

تحرير

عبد القادر ياسين

إعداد:

- عبد العال الباقوري
- د. محمد عبد الله الجعيدي
- عبد التواب مصطفى
- عبد القادر ياسين
- د. عاصم محمد على حسنى
- فتحى عبد العليم
- آمال خزامى
- عبد الناصر حجازى
- د. نعمان خضر البرعى
- م. ريدة خضر البرعى
- م. خالد عبد المنعم عبد الحميد
- م. معالى أحمد عصمت
- ليلى محسن
- راندا أبو الدهب

سلسلة كتاب
القدس (11)





• الكتاب: ملحمة جنين
• تحرير: عبد القادر ياسين
• السلسلة: كتاب القدس
• قياس الصفحة: ١٤×٢٠
• رقم الإيداع: ١٠٠٥٨ / ٢٠٠٢
• الترقيم الدولي: 5-68-5274-977

مركز الإعلام العربي
ص. ب ٩٣ الهرم - الجيزة - مصر
• هاتف: ٣٨٣٣٣٦١ / ٠٠٢٠٢
• فاكس: ٣٨٥١٧٥١ / ٠٠٢٠٢
• الموقع على شبكة الإنترنت:
Home Page:www.Resalah4u.com.
• البريد الإليكتروني:
E .Mail:media-c@ie-eg.com

• الطبعة الأولى
ربيع الأول ١٤٢٣هـ
يونيو ٢٠٠٢م





تقديم المحــرر

فى ذاكرة الأمة نودع هذا الكتاب، حيث وثّق ثلاثة عشر باحثًا عربيًا من أبناء مصر وفلسطين، ملحمة مخيم جنين، والمذبحة التى نظمها القتلة الصهاينة؛ علهم يدارون عار هزيمتهم.

من فجر الثلاثاء ٢٠٠٢/٤/٢ وحتى مساء العاشر من الشهر نفسه، سطَّر بضعة مقاتلين فلسطينيين، فى بسالة عز نظيرها، وبأسلحة متواضعة، صفحة مجيدة فى تاريخ الأمة، فى مواجهة آلاف المقاتلين الصهاينة، تعززهم مئات الدبابات، وعشرات الطائرات والمروحيات الأمريكية الصنع، وحين انكسرت شوكة «الجيش الذى لا يُقهر» عمد كعادته إلى قتل المدنيين العزل، بالعشرات، دون تفريق بين طفل وشيخ.

فيما بين مساء الأربعاء ٤/٢٤، ومساء الأربعاء الذى تلاه تم إنجاز المدخل والفصول الأحد عشر التالية من الكتاب، بعد أن تكفل بها الشباب إياهم، المخترقين بأربعة شيوخ أحدهم فى حوالى الخمسين، بينما تخطى آخران الستين من عمرهما، فيما تراوحت أعمار الباقين ما بين العشرين والثلاثين.

ثمة ضرورة لجولة أفق للإطار الدولى، والعربى، والفلسطينى لهجمة ٢٠٠٢/٣/٢٩، مع عودة خاطفة إلى الوراء، فضلاً عن ضرورة توفير مشهد

مدينة جنين ومخيمها للقارئ، وفصل آخر عن الهجمة العسكرية الصهيونية، منذ ٢٠٠٢/٣/٢٩، والتى استمرت زهاء شهر، وفى القلب منها تلك المواجهة المسلحة فى مخيم جنين، فضلاً عن دعم الاستشهاديين لأشقائهم من مقاتلى المخيم، على أن الأمر لم يتوقف عند حد الملحمة البطولية، فقد حاول أعداء الأمة إفساد فرحتنا، بتدبير جرائم بشعة من قتل المدنيين العزل، بالجملة، إلى تدمير المنازل، إلى إعدام المقاتلين، بعد أسرهم، حين تنفذ ذخيرتهم.

فى هذه المعمعة كان لسلطة الحكم الإدارى الذاتى المحدود أداء ذو نكهة خاصة، كما أحدثت الملحمة والجريمة أصداء عربية وأخرى خارجية، واقتحم المخيم - بقوة - المحافل الدولية، إلى ما بعد الملحمة والجريمة بأسابيع، مع هذا كله يبقى مخيم جنين «بور سعيد الفلسطينية» تستحق أن تُقرأ «آيات من سفرها» ولا يخلو الأمر من ضرورة الرد على سؤال: «ماذا عن الغد»؟ فملحمة جنين ليست الأولى فى تاريخ الكفاح الوطنى الفلسطينى، ولن تكون الأخيرة.

لعل اللهفة على تسجيل الوقائع قبل أن تداهمنا ملاحم وجرائم أخرى، هو عذرنا فى سرعة إصدار هذا الكتاب، حتى لا ننسى، وتسقط ملاحمنا وجرائمهم من ذاكرة الأمة، دون أن يبرر هذه الخطيئة أى عذر.

إن مثل هذا التسجيل مهمة مثقفين مهمومين بقضايا أمتهم، وهذا يزيد قليلاً عن أضعف الإيمان، ﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى﴾ صدق الله العظيم.

المحــرر

القاهرة فى: ٢٠٠١/٥/١

مقدمة الكتاب

من وحي صمود مخيم جنين

الدكتور/ محمد عبد الله الجعيدى
أستاذ الدراسات العربية بجامعة مدريد

من مدريد فى يوم الذكرى الرابعة والخمسين لطرد المحتلين الصهاينة من جنين
على يد المقاومة الشعبية الفلسطينية والجنود العراقيين



بسم الله الرحمن الرحيم

من على السفح الشمالى لجبل النار، تطل جنين على ساحل مرج بن عامر، مرج الخير والعطاء، بشذاه الصحابى، تطل على أوديته، فتنعش الذاكرة بقصص من مرّوا بتلك الأودية، من فاتحين احتضنتهم، ومن غزاةٍ لفظتهم. وفى محيط جنين تحققت المعجزة السماوية بشفاء المسيح عشرة من المرضى المصابين بالبرص.

إنها عين جينيم، أو عين الجنائن، أو جينين، أو جنين فى أفراحها، و«جينا» أو «جراند جرين» فى أتراحها.

بعد طرد البيزنطيين منها، فى القرن السابع من الميلاد، استوطنتها بعض القبائل العربية، وتبعت إداريًا لجند الأردن، وعاصمته طبريا، وإثر إعادة تحرير فلسطين، تحريرًا خالصًا، فى العهد المملوكى، أصبحت جنين مركزًا للبريد الصادر والوارد من مصر ودمشق، عبر غزة وصفد، وكان بها برجٌ للحمام الزاجل، الذى يحمل الرسائل بين الشام ومصر، وكانت تحطُّ بها الهُجُن المحمَّلة بالثلج الدمشقى، فى طريقها إلى القاهرة، أيام الصيف.

وجنين، عبر التاريخ، حاضرة عمران ومدنية، ففى القرن السادس

من الميلاد أقيمت أول كنيسة فيها، فى مكان قريب من جامعها الكبير، القائم حتى اليوم. وفى القرن السادس عشر أنشأ العثمانيون فيها جامعًا، وحمّامًا، وتكية، وعدة دكاكين. وفى القرن السابع عشر أنشأ فيها أمراء قبيلة حارثة الطائية، أصحاب جنين، مرافق عامة للمسافرين، وعمال البريد، والحجاج، والتجار، منها خان، وسبيل ماء، وحمام، ومسجد، ودكاكين. فقد كانت جنين نقطة مرور، واستراحة، بين مصر والشام، لحجاج بيت المقدس، وبيت الله الحرام، وقلعتها مشهورة بتوفير الراحة والحماية والأمن للتجار، والنازلين بأكنافها. فهى، كما وصفها فى القرن الثامن عشر، الشيخ مصطفى أسعد اللقيمى، فى مخطوطته: **«سوانح الأنس فى رحلتى لواد القدس»**.

فيها ثلاث للسرور تجمعت — الماء والخضرة والوجه الحسن

وفى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، شهدت جنين حركة عمرانية واسعة، وازدهارًا فى جميع أوجه الحياة فيها. وفى مطلع القرن العشرين ربطتها الطرق المعبدة، وخطوط السكك الحديدية، بما يحيطها من مدائن، وبلدات فلسطينية، كالعفولة، وبيسان، ونابلس.

وارتفع عدد سكان مدينة جنين، سنة ١٩٤٨، من أربعة آلاف نسمة إلى عشرة آلاف، بسبب تدفق اللاجئين، الذين طردتهم العصابات الصهيونية من القرى، والمدن المجاورة عليها، ليصل، فى سنة ١٩٧٨،

إلى ثلاثين ألفًا، مما أدى بأهلها إلى البحث عن مصادر الرزق خارج فلسطين، وبخاصة فى البلدان الخليجية، حيث تنقطع الأنفاس من الجرى خلف رغيف الخبز، الهارب عبر الصحراء.

وتعرضت جنين، عبر تاريخها، لغزاة طامحين، ومستعمرين طامعين، قتلوا أهلها، ودمروها، وخربوها، لكنهم فى النهاية أُخرجوا منها، وظلَّت مخرزًا فى عيونهم وعظامهم. فقد خرَّبها دوق أدنبره الفرنجى، فى سنة ١١٠٣م، وخرَّبها نابليون بونابرت، فى سنة ١٧٩٨، فى محاولة منه لكسر شوكة أهلها الأشداء. وخرَّب الأتراك بعض قراها، مثل عرَّابة، معقل آل عبد الهادى، الثائرين على الحكم العثمانى، فى منتصف القرن التاسع عشر. وجعل الألمان فى جنين مطارًا لهم، خلال الحرب العالمية الأولى، واتخذوا منه مركزًا لسلاحهم الجوى. واحتلها الجيش البريطانى، بقيادة الجنرال اللنبى، بعد أن طرد حاميتها التركية والألمانية منها، فى ٢٥/ ٩/ ١٩١٨م، فأصابها ما أصاب سائر فلسطين من أذى الاستعمار الفرنجى الصهيونى الغاصب وتخريبه.

وكانت جنين، طوال العصر الحديث، هدفًا للمجازر البريطانية، وعمليات الهدم، والتدمير، والقتل، التى كانت تقوم بها قوات الانتداب. وتحديًا لنضال أهلها، اختارها الانتداب مقرًا لإذاعته الاستعمارية، الموجهة للشرق الأدنى باللغة العربية، وفى ١٤/ ٥/ ١٩٤٨م انسحب

منها الإنجليز، تاركين أسلحتهم ومعسكراتهم للعصابات اليهودية، التى تمكنت من احتلال بعض قراها، إلا أن صمود أهلها، وصمود الجنود العرب العراقيين فيها، واستبسالهم فى الدفاع عنها قد أخَّر سقوطها، فى ١٠ من حزيران/ يونيو من عام النكبة الكبرى، لتسعة عشر عامًا أخرى، وقد هلك من الغزاة الصهاينة، فى محاولة احتلالها سنة ١٩٤٨، حوالى ألف وخمسمائة هالك، لكنهم عادوا إليها، سنة ١٩٦٧، فخرَّبوها تخريبًا تلموديًا مبرمجًا، بلغ ذروته أثناء انتفاضة الأقصى.

وظلت جنين، طوال تاريخها، معقلاً مهمًا من معاقل انتفاضات الشعب الفلسطينى، تحتضن الثوار والفاتحين، والفدائيين والاستشهاديين قبل النكبة الكبرى وبعدها. فبعد انتصاره فى حطين بات فيها الناصر صلاح الدين ليلة، وهو فى طريقه إلى بيسان، ومن قرية يعبد الجنينية انطلقت ثورة المجاهد الشهيد الشيخ عز الدين القسام، سنة ١٩٣٥، وفى مثلثها شهدت ثورة ١٩٣٦ أشد معاركها ضد المحتلين الإنجليز والغزاة الصهاينة. وعرفت جنين ببطولات فدائييها المجاهدين، ومنهم فى العصر الحديث صقر المثلث، وشهيد صانور المجاهد أبو كمال، عبد الرحيم الحاج محمد الخليلى، من قيادات ثورة ١٩٣٦ - ١٩٣٩، والمجاهد على أبو عين، بطل العملية الجهادية النوعية، فى آب/ أغسطس ١٩٣٨، ضد الحاكمية العسكرية البريطانية

بالمدينة، ومحمود طوالبة (النورسى)، الذى حلَّقت فى الآفاق أخبار استبساله، واستشهاده فى الدفاع عن مخيم جنين للاجئين الفلسطينيين ضد الهجمة الشارونية - البوشية العنصرية، حيث صمدت قلة من المجاهدين، بأسلحتهم الشخصية البدائية، صمودًا أسطوريًا، طوال تسعة أيام فى وجه أحد أقوى جيوش العالم المعاصر، وأكثرها دموية، وانتهاكًا للقوانين الدولية وحقوق الإنسان، إلى أن نفدت ذخيرتهم ومؤونتهم، وحين عزَّ النصر، قاتلوا، واستشهدوا كالأشجار واقفين، ولم يستسلموا، فانغرز صمود المخيَّم مخرزًا فى عظم الصهاينة المستعمرين. وقد خلَّد الشعر الفلسطينى بطولات هؤلاء الأبطال، كما فى قصيدة ناهض منير الريس فى صقر المثلث:

عبد الرحيم أجل وإنك أهلها	هى ثورة مشبوبة بضرام
لما ركبت المخاطر لم تسل	ووقيت شر الشحّ والإحجام
هل كان بعد الانتداب ونحسه	غير الجراد الجائع الحوام
صهيون فى التاريخ مصاص الدماء	فاجعل له بالنار شر فطام

وكما فى مسرحية برهان الدين العبوشى «شبح الأندلس» الشعرية، التى اتخذت من معركة جنين الكبرى، فى البقاء على أرض الوطن، منذ صدور قرار التقسيم الجائر فى ٢٩ من تشرين ثان/ نوفمبر ١٩٤٧

موضوعًا لها، ولما قدَّم لها، حلَّل الأمورَ بمعطياتها، ما ظهر منها وما بطن، فى ظل استفراد قوى الاستكبار الفرنجى الصهيونى، ومن داروا فى فلكه بالشعب الفلسطينى، الذى وقف وحيدًا فى المعركة، فتبدت له سحب المأساة، ومن خلفها شبح الأندلس، وتسرَّب إلى نفس الشاعر إحساس بأن ما أصاب الأندلس قد يصيب فلسطين، فصور، تحت وطأة هذا الهاجس، تضحيات أهلها، ودفاعهم المستميت عن الديار والمقدسات تارة، وراح يُنْذِر الأمة ويحذِّرها، ويستنجد بها، ويدعوها لرص الصفوف والتماسك ضد الهجمة الاستعمارية تارة أخرى.

فمن جنين أوشك المقاومون الفلسطينيون والجنود العراقيون على تحرير حيفا، وشطر الكيان الصهيونى، ولم تكن قد تثبتت أركانه، بعد، شطرين، لولا دور الحكام الذين كانت تحركهم اليد الأجنبية، الأمر الذى دفع البطل راغب باشا - رئيس أركان الجيش العراقى - فى جنين للاستقالة، على ما بدا له من مسرحية تهدف لغزو الدولة الصهيونية الفرنجية على أرض الإسراء والمعراج.

فقد أحب جنين بخضرتها، ومائها، ووجهها الحسن، كل من نزلها ضيفًا أو صريخًا، إذ وجد الجيش العراقى من أهل جنين كل رعاية، ومحبة، واحتضان، إنه احتضان الأخ الصريخ للأم الصريخ. وخير شاهد على ذلك ما كتبه القائد الكبير محمود شيت خطاب - ضابط

ركن جحفل اللواء الرابع العراقى - الذى رابط فى جنين، فى شهادته «لمحات من إنسانية أهل فلسطين ممثلة بأهل جنين»، وقد عاش فى أكنافهم رفيق جهاد، سنة كاملة، حيث يقول:

أجنينُ إنك قد شهدت جهادنا وعلمت كيف تساقطتْ قتلانا
أجنينُ لا أنسى البطولة حية لبنيك حتى ارتدى الأكفانا
أجنينُ بلد الكرام تجلدى ما مات ثارٌ ضرَّجَتْه بلوانا
إن السِّنان يكون عند مُكبَّل بالقيد فى رجليه ليس سنانا

●●●

المُخلصون تسرَّبوا بقبورهم والخائفون تنسموا البُنْيانا
إن الخلودَ لمن يموتُ مجاهداً ليس الخلودُ لمن يعيش جبانًا

والشىء بالشىء يُذكر، فمنذ تلك الأيام التى تصدى فيها أهل جنين ومعهم الجنود العراقيون جنبًا إلى جنب لمخرجى المسرحيات التخاذلية، الذين تحركهم اليد الأجنبية، والمؤامرة لم تتوقف، حتى استُعمرت جنين، وحوصرت، وسُلبت أراضيها، ودُمِّرت بنيتها التحتية، وذُبح أهلُها، وأبيد مخيمها، فى طقوس تلمودية سادية، وفتك بالعراق الأبى داءُ الحصار الفرنجى الصهيونى، فقتل أهله، ودمر مدنه، وسلب خيراته، وصادر قراره ومستقبله، والإخوة يطالبونه بتنفيذ قرارات ظالمة، ويعفون الكيان الصهيونى التلمودى من تنفيذ قرارات عادلة، وكأن

الشاعر جميل صدقى الزهاوى قد عاش ليشهد حصار العراق، ويشهد مجزرة مخيم جنين، ويقول فى هؤلاء الإخوة وفينا:

وأبخل أرض بالرجولة بقعة ... يُضام الفتى فيها ولا يتبرَمُ
فما بالُ ابناء العروبة اصبحتْ ... على الذلُ اشتاتًا تشبُ وتهرمُ
وما خفقانُ القلب ما انت سامعٌ ... ولكنهُ آمالُ قوم تتكسرُ

ولكن إطلالة جنين الحق، والخير، والجمال، والتحدى، علينا بهامة مخيمها من عل، تمنحنا الأمل فى النهوض من ركام الواقع، وتمدنا بالعزيمة لمواصلة الصمود لتحقيق سلام البلاد والعباد، كاملاً عادلاً، فى ظل أمن قومى أوسع وأشمل، لا مكان فيه «لشهداء السلام الأمريكى - الصهيونى وشجعانه!!».

○○○

مدخل

الإطار السياسي لهجمة ٢٩ من مارس

عبد القادر ياسين

كأن فلسطين مركز العالم؛ فما من تحول دراماتيكى عالمى فى العصر الحديث، إلا وأضر بفلسطين، أيما ضرر، حتى إن هذه البلاد تقدمت كل الأقطار فى دفع ضريبة هذا التحول أو ذاك.

انقشع غبار الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) عن حجر الأساس للمشروع الصهيونى فى فلسطين، بمجرد إكمال القوات البريطانية احتلال فلسطين، بعد انتزاعها من أيدى العثمانيين (١٩١٨)، حتى تضع الإمبريالية البريطانية «وعد بلفور» موضع التنفيذ، الأمر الذى تعزز مع صدور «صك الانتداب» عن «عصبة الأمم» صيف ١٩٢٢، والذى انتدبت بموجبه بريطانيا على فلسطين، وأدمج «وعد بلفور» بالصك، وبالتشريعات الجائرة والإجراءات التعسفية تمكنت سلطات الانتداب البريطانى من دفع قضية الشعب الفلسطينى، باطراد، إلى الوراء، لحساب الصهيونية ومشروعها.

كما تمخضت الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٥) عن تبدلات جوهرية فى النظام العالمى، بعد أن تقدمت الإمبريالية الأمريكية «المعسكر الإمبريالى» خلفًا لنظيرتها البريطانية، وكان طبيعيًا أن تنقل الصهيونية مركز ثقلها إلى عاصمة الزعيمة الجديدة، واشنطن، وتسارعت عملية فرز الأوراق، إلى أن كان صدور قرار تقسيم فلسطين

عن الجمعية العمومية للأمم المتحدة (٢٩/١١/١٩٤٧)، وتضفَّر التقدم الصهيوني في المجال العالمي مع الوضع العربي المتردي؛ حتى إنه يمكن القول بأن هزيمة الجيوش العربية في «الحرب العربية - الإسرائيلية الأولى» (١٩٤٨) كانت بقرار من «جامعة الدول العربية»، مع سبق الإصرار والترصد.

فقد قدر مجلس الجامعة في كانون الأول/ ديسمبر ١٩٤٧، حجم المقاتلين الصهاينة بأربعة وستين ألفًا، فيما أرسلت الحكومات العربية الخمس (مصر، والأردن، والعراق، وسوريا، ولبنان) ١٨,٥ ألف مقاتل، بينما كان عليها أن ترسل ضعف القوات الصهيونية المدافعة، وقد زاد الطين بلّة أن القوات العربية المهاجمة كانت ذات تسليح ردئ، وتدريب متدن، وضباط متعجرفين، بخمس قيادات عسكرية، مع جهل تام بطبيعة الأرض التي يحاربون عليها، ناهيك عن ضعف إيمان نسبة كبيرة من القوات العربية بالقضية التي يحاربون من أجلها، بينما أقطار هذه القوات نفسها ترزح تحت نير الاحتلال الأجنبي.

لذا كان طبيعيًا أن تحيق الهزيمة بالجيوش العربية، وأن تُرخى النكبة سدولها، مقوِّضة شتى البنى الفلسطينية، لنحو عقد من السنين، قبل أن يستعيد الاقتصاد الفلسطيني عافيته، وتسترد الحركة

الوطنية الفلسطينية أنفاسها، الأمر الذى تجلى فى ظهور زهاء ثلاثين منظمة فدائية فلسطينية فى الربع الثانى من ستينيات القرن العشرين.

غنى عن القول إنه بعد توفر العامل الذاتى لعودة الحركة الوطنية الفلسطينية، تضافرت جملة من العوامل الموضوعية، العربية والدولية، فعدا عن تراخى القبضة الرسمية العربية التى لطالما منعت الشعب الفلسطينى من استعادة دوره فى مجال قضيته الوطنية، وذلك بعد أن استبدت الخلافات العربية - العربية، غداة انفصال سوريا عن مصر (١٩٦١/٩/٢٨)، إلى استقواء الفئات الوسطى الفلسطينية بوصول نظيراتها العربية إلى سدة الحكم فى كل من مصر، وسوريا، والعراق، والجزائر، عدا النهوض القومى العربى، آنذاك الذى شكّل الحامل القومى للعامل الفلسطينى المستجد، ودوليًا كان ارتفاع حصة «المعسكر الاشتراكى» فى صنع القرار السياسى العالمى، وتأكد مضاء سلاح «حرب الشعب» فى مواجهة الاستعمار.

مع ذلك لم يفقد النظام العربى الأمل، بل عمد إلى إفراز «منظمة التحرير الفلسطينية»، حتى يحتوى المنظمات الفدائية الوليدة، ويحول بينها وبين توريط الدول العربية فى حرب لا تسعى إليها؛ لذا لم تستعد لها، مع ذلك نسى عبد الناصر هذا الأمر فى حماسه للدفاع عن

سوريا التى احتشدت الدبابات الإسرائيلية فى مواجهتها، فى آيار/مايو ١٩٦٧، ما وفر الذريعة لإسرائيل كى تشن عدوانها، الذى كانت الإدارة الأمريكية قد قررته، وبدأت فى التخطيط له، منذ وصلت القوات المصرية إلى تخوم منابع البترول فى اليمن، لنجدة ثورتها هناك (خريف ١٩٦٢) وكانت الهزيمة العربية إياها.

إذا كان الانفصال قد سمح بولادة المنظمات الفدائية، بقلبه شعار «الوحدة طريق التحرير» إلى «التحرير طريق الوحدة»، فإن الهزيمة العربية فى حرب ١٩٦٧ أعطت العمل الفدائى الفلسطينى دفعة قوية إلى الأمام، أولاً: لأنها زادت فى تراخى القبضة الرسمية العربية، وثانيًا: لأن هزيمة الجيوش النظامية سوَّغت إفساح المجال لحرب العصابات أو «الحرب الشعبية»، التى رفعت شعارها المنظمات الفدائية.

بذا حققت هذه المنظمات حضورًا ملحوظًا، لكن جسمها تضخم على حساب رأسها، فتوالت الكوارث على القضية الفلسطينية، وقفزت القيادة الفلسطينية المتنفذة من النقيض إلى النقيض، فبعد شعار «التحرير من النهر إلى البحر» تنكرت هذه القيادة له، واكتفت بأى شبر من الأرض المحتلة، واعتمدت صيغة مبتذلة من «المرحلية» على حساب الهدف الاستراتيجى «تحرير فلسطين».

مع نهاية ثمانينيات القرن العشرين تقوض «المعسكر الاشتراكى»، وبعده بسنتين انفرط عقد الاتحاد السوفييتى، وبينهما اندلعت حرب الخليج الثانية، بتداعياتها الكارثية.

وإذا كانت القيادة الفلسطينية أعجز من أن ترفض حضور «مؤتمر مدريد» خريف ١٩٩١، فإنها ذهبت إلى كارثة أوسلو بقدميها، وفى ليل عقدت «اتفاق أوسلو» بعد أن أدارت ظهرها لعمقها العربى، فيما كانت أدانت المقاومة المسلحة بالإرهاب خريف ١٩٨٨ أى قبل الكوارث العربية والدولية إياها.

ربما تكون القيادة الفلسطينية المتنفذة لم تر - بفعل قصر نظرها السياسى - المشهد العالمى الذى يحتم التمسك بالثوابت، والصمود فى وجه العواصف، وليس الميل معها.

فى لحظة انتهاء «الحرب الباردة» وبدايات الحرب العالمية الرابعة، اندفع القادة المتنفذون فى فلسطين إلى أوسلو، فكانت الكارثة، ولم يبرر هذا الاندفاع، ما ساقه محمود عباس «أبو مازن» من أن «اتفاق أوسلو» قد يوصلنا إلى دولة فلسطينية، أو إلى تكريس الاحتلال الإسرائيلى، مرة وإلى الأبد. **معروف أن القيادة المتنفذة قامرت بأوسلو حتى تفلت بكرسيها، بعد أن تضافرت دول خليجية لإسقاط هذه**

القيادة، بعد موقفها من حرب الخليج الثانية، وبعد أن هدد خط «حماس» الصاعد الكرسى نفسه، هذا فى حين كان أعضاء «فتح» فى الوفد الفلسطينى إلى «مؤتمر مدريد»، الذى انعقد ابتداء من خريف ١٩٩١، ثم انتقلت جلساته إلى العاصمة الأمريكية واشنطن، قد بدأوا يخفون عن عرفات أمورًا أثارت ريبته (فيصل الحسينى/ حنان عشراوى/ صائب عريقات/ سرى نسيبة) التى اتسعت مع مناداة وزير خارجية الولايات المتحدة، آنذاك، وارين كريستوفر على فيصل الحسينى: «سيدى الرئيس»، خلال التقائهما فى «بيت الشرق» بالقدس (١٩٩٢)، وجاء التهديد الرابع لعرفات من الملك حسين، الذى كانت تفضل إسرائيل التعامل معه فى أى تسوية قادمة، مما يشى بخروج عرفات صفر اليدين فى التسوية المنتظمة.

هنا نزل عرفات مناقصة التسوية بأدنى الأسعار، فرست عليه المناقصة، فى أوسلو، وحين دلف إلى مناطق الحكم الذاتى فى الضفة الغربية، وقطاع غزة، فإنه أوهم نفسه بقدرته على «نشل» الدولة الفلسطينية، فى غفلة من إسرائيل، رغم أن «اتفاق أوسلو» رتب على عرفات، وسلطة الحكم الذاتى، وأجهزتها الأمنية مهمة حفظ أمن إسرائيل والإسرائيليين!

فى الوقت الذى غدا فيه عرفات أسير إسرائيل، ومع استئثاره بالقرار السياسى الفلسطينى، غدا هذا القرار أسيرًا للعدو الإسرائيلى بالتالى.

إلى ذلك زاد اقتناص مسئولين كبار فى السلطة، وأنجالهم، وكالات لشركات غربية وإسرائيلية المشهد تعقيدًا، وغدا لهؤلاء المسئولين مصالح مع الغرب الاستعمارى والعدو الإسرائيلى، يستحيل أن يعمل هؤلاء المسئولون على العكس منها، أو حتى يسمحوا بالعمل ضدها.

حين اندلعت «انتفاضة الأقصى والاستقلال»، فى ٢٠٠٠/٩/٢٨، اختار عرفات لنفسه موقعًا وسطًا بينها وبين العدو الإسرائيلى، ما جرَّ عليه سخط الطرفين، الوطنى الفلسطينى، والعدو الإسرائيلى، كما أغرى هذا الموقع الوسط إسرائيل على محاولة جذب عرفات إلى صفها مرة وإلى الأبد، ولعل فى هذا بعض ما يفسر الضغوط الإسرائيلية المتزايدة على عرفات، على مدى أيام الانتفاضة.

لم يخرج عرفات عن المألوف كلاسيكيًا عند كل قادة العالم الثالث، ذوى الازدواجية فى المواقف؛ إذ كان يبتعد عن الشعب، كلما تصاعدت الانتفاضة، وينأى عن العدو الإسرائيلى، كلما اشتدت عليه ضغوط هذا العدو، طمعًا فى إعلان انحيازه التام لهذا العدو.

بعد سنتين من بدء تبلور جبهة عالمية ضد العولمة، جاءت أحداث ١١ سبتمبر/ أيلول ٢٠٠١ المتفجرة فى واشنطن ونيويورك، فاستشرست العولمة، وتعسكرت، وتطابقت إسرائيل مع الإمبريالية الأمريكية، تمامًا، خاصة مع تجلى التخاذل الرسمى العربى، فى غير موضع، مما حفّز حكومة العدو الصهيونى لتشديد هجومها العسكرى على مناطق الحكم الذاتى، لقصف عمر «انتفاضة الأقصى والاستقلال» وقطع رأسها، ثم كان التصعيد الكبير، منذ يوم ٢٠٠٢/٣/٢٩، فى صفعة قوية للمبادرة التى صدرت فى اليوم السابق، عن مؤتمر القمة العربية، فى بيروت، وعرضت على العدو الصهيونى «الانسحاب الكامل مقابل الاعتراف الكامل».

○○○

الفصـــل الأول

جنين ومخيمها

آمــال الخزامــى

هل نمى إلى علمك بأن مقولة «الماء والخضرة والوجه الحسن» التى يُتغنى بها فى الجميلات، قيلت فى الجميلة جنين، منذ ثلاثة قرون عندما زارها الشيخ مصطفى أسعد اللقيمى، وكتب انطباعاته فى مخطوطة «سوائح الأُنس فى رحلتى لوادى القدس» فقال: «وبعد صلاتنا العشاء بين جماعة، فقصدنا جنين، فوصلناها قبيل الفجر بساعة، نزلنا بخانها المعد للمسافر، فوجدنا الحسن من محياه سافرًا، وبجانبه مسجد قد كساه الجمال جلبابًا، وعقد له من بهجة النفوس بابًا، ترى الروض محيطًا بجوانبه، جاريًا فى مشارق الخان ومغاربه، ولا بدع إذا كان مذهبًا للحزن، فقد جمع الماء، والخضرة، والوجه الحسن».

يا حبذا يومًا «بجنين» مضى ... كالغرة البيضاء فى وجه الزمن

فيه ثلاث للسرور تجمعت ... الماء، والخضرة، والوجه الحسن

هذه هى جنين إحدى المدن الرئيسية فى فلسطين، ذات الشهرة الواسعة فى جمالها الطبيعى، والجنائن التى تحيط بها، وعطائها الاقتصادى الوفير، تنطق بكسر الجيم، والنون، والياء، والنون «جنين» وهى مُحرَّفة، عن كلمة «عين الجنائن» العربية الكنعانية، عندما فتحها العرب المسلمون، ذكروها فى كتبهم باسم «جنيين» ثم حذفت الياء الأولى للتخفيف.

أولاً ـ جنين الموقع

تمثل جنين ملتقى بيئات متعددة، منها البيئة الجبلية، والبيئة السهلية، والبيئة العورية، ولجنين أهمية خاصة، لوسطية موقعها بين المدن الفلسطينية، حيث تقع جنوب مدينة الناصرة، والجنوب الشرقى من مدينة

حيفا، والشمال من مدينة نابلس.

تعتبر جنين مركز تجمع طرق المواصلات، القادمة من نابلس والعفولة، وبيسان، وهى نقطة مواصلات مهمة فى الطرق المتجهة من حيفا والناصرة شمالاً، إلى نابلس والقدس جنوبًا، وتقع جنين على الطريق التجارية بين الشام، ومصر، وعلى طريق الزائرين إلى بيت المقدس، أصبحت جنين مركزًا «للواء جنين» يتبع إداريًا محافظة نابلس، وأتاح موقع جنين على طرق المواصلات أن تكون مركز القضاء والقرى الكبرى، وهى: عرابة، ويعبد، وقباطية، وأم الفحم.

وتعد المنطقة الغربية فى المدينة، أرقى أحيائها السكنية، لما تتمتع به من موقع سفحى جميل، ولما تتميز به من مبان جميلة، وبيوت عصرية.

ثانيًا ـ جنيـن الطبيعيـة

تمتاز جنين بمناخها المعتدل، حيث ينتمى إلى مناخ البحر الأبيض المتوسط، وتشتهر جنين بينابيعها، وآبارها، وسيلانها المائية، وجنائنها عبر العصور التاريخية.

ويلاحظ قلة المياه فى السنوات الأخيرة فى جنين، بسبب استغلال الاحتلال السىء للمياه الجوفية، وتعتمد الآن جنين فى شربها على مياه بئر فى قرية عرابة، تنقل إليها بالأنابيب.

جنين مدينة سفحية، ينتشر عمرانها بشكل رئيسى على امتداد سفوح الجبال المطلة على سفح مرج ابن عامر.

وتقوم المدينة على زاوية مثلث واسع، يتألف من سهل مرج ابن عامر، الذى يمثل فتحة طبيعية فى وسط المرتفعات الجبلية الفلسطينية، والتى تتصف بالتربة الحمراء البحر متوسطية، تربط بين وادى الأردن، والسهول الساحلية لفلسطين.

ثالثًا ـ جنين الاقتصادية

تعتمد جنين ولواؤها على الزراعة، وبعض المهن والحرف، والتجارة.

تعد الزراعة النشاط الرئيسى لأهل جنين، حيث تمارس الزراعة منذ القدم، وذلك لخصوبة أراضيها، ولظروفها المناخية، وتزرع جنين الحبوب، والقطن، والخضر، والفاكهة، ويعتبر قضاء جنين من أشهر المناطق فى زراعة الزيتون بفلسطين، وتشتهر أيضًا بأنواع ممتازة من الرمان، والتين، والتوت، والقراصيا، ورغم تميزها بجودة إنتاجها من الخضر والفاكهة، فالملكية الزراعية فردية، ومفتتة؛ لا سيما فى المناطق الجبلية، وقد أثر على الزراعة اغتصاب قوات الاحتلال الصهيونى، قرابة مائة ألف دونم من أخصب أراضى اللواء الزراعية، بعد حرب ١٩٤٨م، وبعد حرب ١٩٦٧م هاجر العديد من سكان اللواء إلى الضفة الشرقية، بينما هاجر الشباب منهم للعمل فى دول الخليج، وكذلك امتداد العمران على الأراضى الزراعية، وممارسة الصهاينة المضايقات مما قلل من مساحة الأراضى المنزرعة.

أما قطاع الثروة الحيوانية فقد ارتبط بقطاع الزراعة فى جنين، وكانت للثروة الحيوانية، وعلى الأخص الماعز أهمية كبرى فى مطلع القرن الحالى، وتناقصت هذه الأهمية بتقلص الزراعة، والمراعى فى جنين، وتُربى فى جنين المواشى، والأغنام.

أما الصناعة فلا وجود لها بالمعنى الدقيق، ولكن ثمة حرفيين، ومهنيين، مثل: الخياطين، والحدادين، وبعض الصناعات القائمة على الزراعة، وأهمها معاصر الزيتون، ومطاحن الغلال، والصناعات الخاصة بالبناء، وتشمل: المقالع، والمحاجر، والكسَّارات، وصناعة البلاط، والموازييك، ويعد لواء جنين من أهم مناطق الضفة الغربية فى هذه الصناعة، وصناعة الملابس، والأحذية، والصناعات الخشبية، وكذلك صناعة الخبز، والمرطبات، والصناعات الخاصة بالطباعة، وصناعة الورق.

فى مجال التجارة ارتبطت مدينة جنين، منذ عهد الانتداب البريطانى، بسهل مرج ابن عامر، والجليل، وحيفا، إلى جانب ارتباطها بنابلس، وكانت الوجه التجارى نحو حيفا، والناصرة، وبيسان، وصفد.

أما بعد نكبة ١٩٤٨م فقد فُصلت جنين عن المناطق الشمالية المحتلة من فلسطين، واقتصر ارتباطها على المناطق الجنوبية من الضفة الغربية، وبذلك فقدت مركزها التجارى بسبب انقطاع خطوط النقل والمواصلات مع المدن الشمالية وحيفا، واقتصر اتصالها على مدن وقرى الضفة الغربية، بصورة رئيسة، وعلى الضفة الشرقية والمناطق العربية المجاورة بصورة ثانوية.

واجهت التجارة فى جنين مصاعب كبيرة، لسوء الأحوال الاقتصادية، عادت بعد ذلك إلى مسارها الطبيعى بعد التحويلات التى ترد من أبنائها فى الخارج، وخصوصًا دول الخليج والسعودية.

تُصدِّر جنين الخضر والفاكهة، وتستورد المنتجات الصناعية.

إداريات: كانت جنين مركز قضاء يشتمل على مساحة كبيرة (نحو ٨٣٥٠٠٠ دونم من الأرض) وعدد سكان قدر بنحو ٧٥ ألف نسمة. بجنين فى

أواخر عهد الانتداب البريطانى زهاء ٦٠ قرية، وصلت الآن إلى حوالى ٦٥ قرية، و١٧ خربة، يشرف عليها إداريًا متصرف يرأس لجنة ضريبة المعارف، ولجنة تحسين القرى، ومن مهامه بناء المدارس، وتنفيذ المشاريع للقرى.

فى مجال التعليم ضمت جنين مدرستين إحداهما للبنين، وأخرى للبنات (١٩٤٨/٤٧)، وتطور التعليم فيها فأصبحت ست مدارس (١٩٦٣/٦٢م)، وفى عام (١٩٧٧/٧٦) اشتملت جنين على سبع مدارس، أربعة للبنين، وثلاثة للبنات، ثانوى، وإعدادى، وابتدائى، وبها روضة أطفال تابعة لجمعية الهلال الأحمر، ولوكالة الغوث أربع مدارس، اثنتان للبنين، والأخرتان للبنات.

أثرت النهضة التعليمية الشاملة فى جنين فى مستويات الثقافة المرتفعة لأهلها، وأصبحت تصدر المدينة الطاقات البشرية فى مختلف التخصصات العملية للخارج، وتشير الدلائل إلى آلاف المعلمين، والموظفين، والأطباء، والمهندسين، والفنيين، والعمال من أبناء جنين يعملون فى منطقة الخليج.

رابعًا ـ جنين عبر العصور

لطالما ترك موقع جنين بصماته على تاريخها، منذ أن نشأت، فكانت عرضة للقوات الغازية المتجهة جنوبًا وشمالاً من بابليين، وآشوريين، ومصريين، وآراميين وغيرهم، بالقرب منها لقى ملك العبرانيين شاؤول وأبناؤه الثلاثة مصرعهم فى حربهم مع الفلسطينيين، وكانت جنين تتعرض للتدمير، والخراب فى كل غزو.

لأن مرج ابن عامر من أخصب أراضى فلسطين الزراعية، فقد أدى إلى توفير بيئة ملائمة لاستقرار الإنسان فى تلك المنطقة، فنشأت قرية عين

جنيم التى أقامها الكنعانيون فى موقع جنين الحالى بين مدن فى فلسطين الشمالية: بيت ثان، بيسان، ومجدو، ودونان.

أطلق على عين جنيم فى العهد الرومانى اسم «جينا»، وفى عهد البيزنطيين أقيمت كنيسة فى جينا، فى القرن السادس عشر لا يزال بعض بقايا لها، بالقرب من جامع جنين الكبير.

نجح العرب فى القرن السابع الميلادى من طرد البيزنطيين منها، وسارت تتبع التقسيم الإدارى الإسلامى لجند الأردن، وعرفت لديهم باسم «جينين» الذى حرف فيما بعد إلى جنين.

توالى حكم العرب على جنين والمدن الفلسطينية الأخرى من عصر الخلفاء الراشدين، والأمويين، والعباسيين، والفاطميين إلى أن داهم الغزو الصليبى البلاد، واحتل دوق أدنبرة عام ١١٠٣ جنين، ودخلت ضمن مملكة بيت المقدس، وقام بتحصينها، وتسليحها، وغيَّر اسمها إلى «جراند جرين» أو الأرض الخضراء، فحررت جنين من قبضة الصليبيين، بعد معركة حطين عام ١١٨٧م، وعادت إلى الرحاب الإسلامية، ونزلها البطل صلاح الدين الأيوبى، وبات فيها ليلة، ثم استأنف مسيرته إلى بيسان، سيطر الصليبيون على جنين بموجب اتفاق الكامل الأيوبى، وفريدريك الثانى عام ١٢١٩م، وفى عام ١٢٤٤م نجح الملك الصالح أيوب من إخراجهم نهائيًا، وكان التحرير النهائى لجنين على يده.

أصبحت فلسطين تابعة لسلاطين المماليك منذ عام ١٢٥٥، ونالت جنين فى عهدهم قسطًا من الأهمية، فكانت مركزًا مهمًا للبريد إلى دمشق، وصفد، وغزة، ومصر، وأصبحت محطة للحمام الرسائلى - الزاجل -

ومحطة لناقلى الثلج، برًا من دمشق إلى القاهرة، واهتم حكام المماليك بالبنية الأساسية لجنين، فأنشأوا سبيلا، وخانات، وعدة حوانيت، وجامع كبير، وفى أواخر الحكم المملوكى ظهر فى منطقة جنين أمراء قبيلة حارثة الطائية، ولا يزالون فى جنين.

ولى الأمير أحمد بن طرباى حكم جنين، عام ١٦٠٢م، تحت سيادة العثمانيين، واعتبرت جنين فى تلك الفترة من المراكز الدينية بفلسطين، وساعد على نموها الاستقرار النسبى فى طبيعة الحكومة، والإدارة فيها، وظلت تحت حكم آل طرباى، حتى عام ١٦٧٧م، وبعد ذلك أصبحت السلطة العثمانية تتصرف فيها، وتولى من تشاء، وظلت جنين تحت الحكم العثمانى، وفى القرن الثامن عشر تعرضت جنين للنهب والحريق، أثناء الحملة الفرنسية على فلسطين انتقامًا من أهلها، الذين شاركوا الجيش العثمانى فى موقعة مرج ابن عامر، وبوصول الحملة الفرنسية على أسوار عكا أصبحت جنين مركزًا لمن ينوب عن والى صيدا.

جعل إبراهيم باشا بن محمد على باشا (١٨٣١ - ١٨٤٠) جنين لواء خاصًا بها، واختار حسين عبد الهادى حاكمًا لها، ذلك بعد طرد الأتراك من فلسطين، ولم يطل حكم المصريين، وأخرجوا من سوريا عام ١٨٤٠، وعادت جنين ضمن منطقة نابلس تابعة لولاية بيروت.

فى منتصف القرن التاسع عشر اجتاحت جنين موجة من الفتن، والحروب بين القوى المحلية المتصارعة أدت إلى تدخل الدولة العثمانية بحملة ضدهم، وأخذت تدير شؤون جنين من قبل موظفيها مباشرة، مما أدى إلى نهضة معمارية، وانتعاش اقتصادى.

فيما شهد مطلع القرن العشرين هدوءًا نسبيًا فى جنين، وبدأت حياتها

الاقتصادية تنتعش، وبنيت فيها بيوت حديثة، ورصفت الشوارع الرئيسة، وأقيم سوق منسق يعرف الآن باسم «السوق القديم» «السُّباط».

وارتبطت جنين بخطوط السكك الحديدية التى وصلتها بالعفولة، ونابلس، وبيسان، وأنشئ فيها مجلس بلدى للإدارة المحلية، وشق بينها وبين نابلس طريق معبَّد.

خلال الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) اتخذ الجيش الألمانى المقيم فى فلسطين، جنين مركزًا لسلاح طيرانه، فأقام بها مطارًا ضخمًا، وعسكر فيها أيضًا جزء من الجيش العثمانى.

لكن بدخول الجيش البريطانى وانسحاب الجيش العثمانى من فلسطين، احتلت جنين فى ١٩١٨/٩/٢٠م، وعقد الجنرال اللنبى مؤتمرًا عامًا لقادة جيوشه فى فلسطين، وتم تعيين حاكم بريطانى عسكرى للمدينة، وبذلك دخلت المنطقة كلها فى عهد جديد، كان وبالاً على فلسطين، والوطن العربى كله، لا تزال آثاره السيئة تدمى وجوهنا، وقلوبنا، نذرف عليه الدم إلى الآن.

من يعبد - إحدى قرى قضاء جنين - انطلقت أول ثورة مسلحة منظمة ضد الوجود البريطانى، بزعامة شيخ المجاهدين عز الدين القسام عام ١٩٣٥ الذى استغل ثورة الفلاحين ضد الاستعمار البريطانى، كما أتاح موقع جنين، وطرقها الجبلية الوعرة ميزة للثوار الفلسطينيين عام ١٩٣٦، وكونها أيضًا مركزًا رئيسًا للطريق الوحيد الذى يربط شمال فلسطين بجنوبها، مما أتاح للمجاهدين فرصة مهاجمة السيارات البريطانية، والمارة منهم، وإيقاع الكثير من الإصابات بينهما.

ســجل البطل على أبو عــيش، فى ٢٤ من آب/ أغـسطس ١٩٣٨م أهم حدث عـرفته جنين فى تلك الفتـرة باغتيـاله حاكمـها البـريطانى الجنرال موفيت، المعروف بعدائه الشديد لكل ما هو عربى، وذلك أثناء وجود الحاكم فى دار الحكومـة، وتمكن الفـدائى البطل من النجـاة بنفسـه برغم كل رجـال البوليس والحرس.

ما أشبه اليوم بالبارحة

أوردت الكاتبة البريطانية فرنسيس إميل نيوتن فى كتابها «خمسون عامًا فى فلسطين» نصًا لرسالة بعث بها أحد البـريطانيين إلى صديقته، تصف جانبًا من الجرائم البـريطانيـة ضد جنين، قال فـيها «تجدين ما لا يطاق، إرهابًا بريطانيًا أشد من الإرهاب، لا يصدقه بريطانى مدنى مثلى، لولا أنه شاهد بعينه، قُتل بوليس بريطانى، فنسفوا بلدة جنين نسفًا، ونهبوا، وسلبوا النقود والمجوهرات، وتتبعوا الأبرياء، فعذبوهم، وقتلوهم، وبينما كان هناك بعض العـريان الشـجعـان الأوفـيـاء يقـضـون نهـارهـم فى إصـلاح أسـلاك التليفونات عرضة للرصاص، عادوا فوجدوا منازلهم أنقاضًا».

بمرور الوقت تجـاوز أهل جنين مـحنتـهم، وبدأوا يعـمـرون، ويزرعـون، ويحصدون.

خلال الحرب العالمية الثانية، وفى عام ١٩٤١ بالذات، اختار البريطانيون جنين، لتكون مقرًا لإذاعة «محطة الشرق الأدنى» بالإذاعة العربية.

العراقيون والفلسطينيون يقتلون الصهاينة

هاجم الصهاينة بعض القرى السهلية فى شمال جنين عام ١٩٤٨م، وتمكنوا من احتلال سبع منها، تمهيدًا للهجوم على جنين ذاتها، وقاموا بمحاصرتها، فاحتمى أكثر من ثلاثمائة من المجاهدين الفلسطينيين والعراقيين، بعمارة البوليس، عند مدخل جنين العربى، واستطاع أكثر من أربعة آلاف من الصهاينة أن يستولوا على معظم أحياء المدينة، وإذ بقوة عراقية قوامها خمسمائة جندى، وأخرى فلسطينية قوامها مائة مجاهد من القرى المجاورة، وبعد معارك دامية لمدة أربعة وعشرين ساعة انهزم الصهاينة، على يد القائد العراقى عمر على، واعترفوا فى بياناتهم الرسمية بأن عدد قتلاهم وجرحاهم فى معركة جنين بلغ (١٢٤١) فردًا، وذكر المجاهد أن القوات العراقية فقدت (٧٥) شهيدًا، والمناضلين الفلسطينيين (٥٠) شهيدًا، وشن الأبطال المجاهدون، عراقيون، وفلسطينيون بعد انتهاء الهدنة الأولى فى ١٩٤٨/٧/٩ هجومًا كبيرًا على القوات الصهيونية، استطاعوا خلاله تحرير سبع قرى، بعد يومين من القتال العنيف، واستولوا على كميات ضخمة من الأسلحة الثقيلة والخفيفة.

بدخول الجيوش العربية فلسطين (١٩٤٨/٥/١٥) استولت السلطة الصهيونية على جنين، وغيرها بدون قتال.

لعل المفاجأة أن جنين هى المدينة الوحيدة التى احتلها العدو الصهيونى وطرد منها بالقوة، والأهم من طردهم هو تأخر احتلالهم للضفة الغربية بأكملها مدة تسعة عشر عامًا حتى عام ١٩٦٧، كما قال الرئيس الإسرائيلى حاييم هيرتزوج فى كتاب «الحرب والسلام فى الشرق الأوسط».

احتلت القوات الصهيونية جنين عام ١٩٦٧ مع أجزاء من الضفة الغربية، وإلى اليوم تعانى وطأة الاحتلال الصهيونى.

خامسًا ـ جنيـن الأثريـة

يعتبر **الجامع الكبير** من أهم المعالم التاريخية فى جنين، وقد أقيم على أنقاض مسجد آخر، ويحتمل أن تكون الكنيسة الكبرى التى أقامها الصليبيون، قد أقيمت على نفس الموقع الذى أقيم عليه هذا الجامع، أقامت البناء الحالى للجامع السيدة/ فاطمة خاتون، ابنة محمد بك بن السلطان الملك الأشرف قانصوة الغورى.

وقد أوقفت أوقافًا كثيرة، وحفظت وثيقة الوقف فى إدارة أوقاف جنين، التى يعود تاريخها إلى ٩٧٤هـ، وتوضح هذه الوثيقة أنه أوقف على هذا الجامع أوقافًا، وأحباسًا بعيدة عن جنين، وأهمها دمشق، وحمص، وحماة، وصفد، واشتمل هذا الجامع على تكيه تقدم الطعام والمنام، كما اشتمل على حمام، وعشرين حانوتًا.

وفى عام ١٣٢١هـ قام مصطفى بن باقى بترميم الجامع، وأضاف له فرقة جديدة، كما بلَّط ساحته.

أما **الجامع الصغير** فيقول البعض إنه كان مضافة للأمير الحارثى، وينسبه البعض إلى إبراهيم الجرار.

ويطلق اسم «**التل**» على المرتفع الذى يقع قرب الموقع الصغير، ويشكل التل مجموعة من الأنقاض، وقيل إنه كان يقوم عليه بناء كبير، كثرت فى أرضيته الفسيفساء.

إلى ذلك تقع خـربة «مـابه» فى الجـهـة الشـرقـيـة من المدينة فى أرض سـهليـة، وتشـمل هـذه الخـربة على قـرية متـهـدمة، وصـهـاريج منحـوتة فى الصخر، وإلى الشرق منها قبور منحوتة فى الصخر أيضًا.

أما خربة «خـروبة» فتقع على مـرتفع يبعد قـرابة كيلو متـرين عن مـدينة جنين، وقد كانت هذه مأهولة بالسكان، حتى قيل إن سكانها نزحوا عنها إلى مـدينة جنين، وتشـمل على بقـايا برج له قـاعـدة مـائلة، وأسـاسـات جـدران، وصهاريج، وكهوف، ومدائن.

وثمة الأماكن الأثرية فى قضاء جنين مثل:

تل الزاعى: عبارة عن تل «أنقاض».

خربة الآخرين: عبارة عن «أكوام حجارة».

خربة أم الثلايد: تحتوى على «بقـايا محلة صغيرة، وأساسـات، وجدران، وقطعة عمود».

خربة جبجب: تحتوى على «أساسات بناء مربع، وشقف فخار على سطح الأرض».

خـربة الخـرجـة: تحـتـوى على: «آثار مـحلة، وصـهـاريج مـحـفـورة على الصخر».

خـربة رابين: تحـتـوى على «أنقـاض مـبـان مطمـورة، وصـهـاريج، ومـغـر، وشقف فخار».

خربة ظهرات حماد: عبارة عن «حجارة مبعثرة».

خربة على قوقة: عبارة عن «أساسات وبقايا زراعة قديمة».

خربة كفر يصية: تحتوى على «تل أنقاض صغيرة، وأساسات وعمود وصهاريج مبعثرة».

خربة نحالين: تحتوى على «آثار محلة، وتل أنقاض صغيرة فيه مدافن، وشقف فخار» وقد تكون «نحالين» آرمية سريانية بمعنى (الوديان الجافة).

دير الهوا: عبارة عن «أسس حجارة مبعثرة».

قصر الشيخ رابا: عبارة عن «أنقاض برج».

سادسًا ـ جنين وعائلاتها

تعود أغلبية العائلات فى جنين بأصولها إلى المدن والقرى الفلسطينية المجاورة لها التى نزحت لجنين لتحسين أوضاعها المعيشية، بعد أن أصبحت جنين مركز قضاء عام ١٨٨٢م، عندما استحدثت الدولة العثمانية أقضية جديدة فى فلسطين، ومن هذه العائلات: جرار، عبد الهادى، جرادات، السعدى، الطاهر، أبو على، عزوفة «الإمام» الحنيطى، منصور، فزع، صباح، العيوشى، اللحام، الزغبى، أبو الرُب، أبو عيسى، الحافى، الصغير، أبو عميرة، الشرايعة، الخالدى، الحسينى، لحلوح، العارضة، الشقران، حمدان، موسى، الزريقى، عساف، البدرانة، العطاطرة، الجريان، أبو شملة، الحمارثة، الشواهنة، الغبارية، العلاونة، الحمامرة، الناضيورى، وهيب، الشلبى، العارورى، السعدى، أبو شملة، زيد، أكحيل، الزكارنة، العمارنة.

سابعًا ـ جنيـن وشخصياتهـا البارزة

تعد جنين وقضاؤها، مثل باقى مدن فلسطين، منجبة للعظماء فى شتى المجالات، وهذه باقة من الشخصيات البارزة فى جنين ممن توفاهم الله تعالى خلال القرن العشرين:

الشهيد/ سليم الأحمدى عبد الهادى - الشهيد الشيخ/ فرحان السعدى - الشهيد/ محمد سليم الحسن - القائد الشهيد/ محمد صالح الحمد «أبو خالد» - الشهيد/ عبد الفتاح محمد الحاج مصطفى - المجاهد/ داود الحورانى - المجاهد/ عارف حمدان أحمد - الشهيد/ مصطفى على الأحمد - الشيخ/ محمد اليوسف جرار - القائد الشهيد/ يوسف سعيد أبو درة - القائد/ عبد الرحمن الحمد (أبو عمر) - الشيخ/ أحمد محمود الحمدان - رجل الأعمال/ عبد السلام محمد أبو عيسى - الشيخ المجاهد/ نمر السعدى - المجاهد/ حافظ باشا عبد الهادى - المجاهد/ فوزى جرار - المجاهد/ أحمد مسعود المصلح - الشهيد الحاج/ محمد أحمد الجرار - الأديب/ عبد الله مخلص - الشهيد/ سامى طه - المجاهد/ عبد الغنى سنان (أبو عارف) - الشاعر الأديب/ محمد العدنانى - المجاهد/ حسن البابر - المجاهد/ محمد نجى أبو جعب - الشيخ/ فريز جرار - الوجيه/ حلمى نافع العبوشى «رئيس بلدية سايفف» - الشهيدة/ إلهام زعرور - المجاهد/ تميم محمد العدنانى - القائد الشهيد/ عبد الله عزام - الشهيد البطل/ عصام دراغمة...إلخ.

ثامنًا ـ جنيـن والاستيطان الصهيونى

تشكل جنين مشكلة تواجه السياسة الاستيطانية الصهيونية، فالكثافة السكانية العربية العالية فى المنطقة تشكل كابوسًا يؤرق الكيان الصهيونى، ولوعورة المنطقة، فإن تأسيس مستوطنات زراعية كبيرة هى إمكانية صعبة التحقيق، ورغم ذلك تم تأسيس عدد من المستوطنات فى المنطقة لتحقيق الأهداف الآتية:

١ - السيطرة على مفارق الطرق الاستراتيجية.

٢ - وصل مستوطنات الأغوار، وشفا الأغوار بالمنطقة الساحلية.

٣ - إقامة عدد من المدن الصهيونية لإحداث سيطرة سكانية صهيونية فى المنطقة.

الجدير بالذكر أن لواء جنين كان يخلو من أى تواجد صهيونى قبل حرب ١٩٤٨، وبعدها استقطع الصهاينة من لواء جنين قرابة مائة ألف دونم، اشتملت هذه المساحة قرابة تسع عشرة قرية عربية، وطبقًا للسياسة الصهيونية التى تقضى بإزالة الأثر العربى من المنطقة، قامت قوات الاحتلال الصهيونى بتدمير ست قرى عربية، أقاموا على أنقاضها إحدى وعشرين مستوطنة، بنيت تسع منها فى الفترة من ١٩٤٨ - ١٩٥٥ وإحدى عشرة مستوطنة فى الفترة من ١٩٥٥ - ١٩٦٥، ومستوطنة واحدة عام ١٩٧٧.

ولاقت السياسة الاستيطانية الصهيونية فى جنين انتقادات كثيرة، نظرًا لقلة أعداد المستوطنين فيها، ولارتباط المستوطنين بأعمال داخل إسرائيل، ورغم ذلك فإن استمرارها، وزيادتها، وتوجيه الاستثمار إليها سيجعل منها

قاعدة اقتصادية فيما سيعزز هيمنة المستوطنات التى أخذت شكل أحزمة وقطاعات حول المدن الرئيسية، بهدف خنق المدن العربية، وقطع صلاتها بعضها البعض، وحرمانها من التوسع مستقبلاً، ويعنى ذلك تخلف المدينة والإقليم فى آن، وهذا هدف السياسة الاستيطانية.

ولتحقيق تلك الأهداف قامت السلطات الصهيونية بضرب حزام استيطانى حول مدينة جنين، ولم يترك للمدينة أى مجال للتوسع سوى من جهة واحدة، وهى الأخرى تواجه حزامًا آخر من المستوطنات، فأقامت خمس مستوطنات قبل عام ١٩٨٠، واثنتى عشرة مستوطنة بعد ذلك.

ورغم سياسة الاستيطان الصهيونية الداعية إلى الهمجية، والسيطرة على الأراضى العربية فى المنطقة، إلا أن العوامل الديمغرافية تعمل لصالح السكان العرب، حيث لم يتجاوز عدد المستوطنين الصهاينة، بعد قرابة أربعة عقود ٢٠٪ من مجموع السكان.

تاسعًا ـ مخيم جنين

يعد مخيم جنين رمزًا للصمود، ووسيلة إيضاح لما يتعرض له الشعب الفلسطينى من ظلم، وقهر، ومؤامرات، حيث أجبروا على الخروج من مدنهم، وقراهم، لتوطين صهاينة معتدين عليهم.

أنشئ مخيم جنين عام ١٩٥٣م عندما وصل إليه مئات من الأسر الفلسطينية الذين تشردوا من مدن حيفا، ويافا، وقرية اللد، وقرية مجد الكروم، وكلها قريبة من المخيم، يستطيع كل فرد فى المخيم أن يرى منزله فى قريته، ومدينته، يوميًا، ولا يستطيع الذهاب إليه.

يقع مخيم جنين إلى الجانب الغربى من مدينة جنين، وفى أطراف مرج ابن عامر تحيط به مرتفعات، ويمر بوادى الجدى، إضافة إلى منطقة سهلية مكتظة، تعرف باسم منطقة الساحل بمحافظة نابلس.

تقدر مساحة المخيم بـ ٣٧٢ دونمًا منذ إنشائه فى عام ١٩٥٣، زاد إلى ٤٧٢ دونمًا عام ١٩٦٦ بنسبة حوالى ٤,٣٣٪، بلغ عدد سكان المخيم عام ١٩٦٧ (٥٠١٩) لاجئًا، ووصل فى عام ١٩٨٧م إلى (٨,٧) ألف لاجئ، ويقيم فيه الآن حوالى (١٥) ألف لاجئ، فى المخيم خمس مدارس منها ثلاث مدارس للبنين، واحدة إعدادية، ومدرستان ابتدائيتان، فضلاً عن مدرستين للبنات الأولى ابتدائية، والأخرى إعدادية، إلى جانب مركز لرياض الأطفال، تم إنشاؤه من مساعدات محلية بواسطة «جمعية الرعاية الاجتماعية الخيرية» فى نابلس، وفيه مركز صحى تابع لوكالة الغوث.

فى المخيم أيضًا «مركز الفتيات الاجتماعى» وهو النادى الوحيد فى المخيم، تشرف عليه وكالة الغوث، وفيه مسجد واحد تم توسيعه، وبناء طابق ثان يحتوى على مكتبة للنساء.

يعانى المخيم من غياب المساكن الصحية، وأزمة مزمنة فى المياه، وأخرى فى مجال الصرف الصحى، وبالتالى الوضع الصحى لسكان المخيم متدهور، الذى يعانى أيضًا من الافتقار إلى مقبرة للمخيم، حيث يقوم السكان بدفن موتاهم فى مقبرة جنين.

ooo

مراجع الفصل الأول

(١) إحسان عباس **«فصول حول الحياة الثقافية والعمرانية فى فلسطين»** المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٩٣.

(٢) حرب حنيطى **«قصة مدينة جنين»** سلسلة المدن الفلسطينية (١٠) تونس، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، منظمة التحرير الفلسطينية، د.ت.

(٣) عبد القادر ياسين **«الحركة الوطنية الفلسطينية المحطات الرئيسية.. الدروس المستفادة»**، دار الكلمة، القاهرة، ط١، ٢٠٠٠.

(٤) نبيل خالد الأغا **«مدائن فلسطين دراسات ومشاهدات»** بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٩٣.

(٥) د. محمد عبد الهادى **«خرائط التوزيع الجغرافى لمخيمات اللاجئين والنازحين الفلسطينيين»** **صامد الاقتصادى** «عمان»، العدد ١٠٥، تموز - آب - أيلول (يوليو - أغسطس - سبتمبر) ١٩٩٦، ص٧٩-١٠٦ .

(٦) **الموسوعة الفلسطينية**، القسم العام، المجلد الثانى، الطبعة الأولى، دمشق، ١٩٨٤، ص ٨٣ - ٨٨.

○○○

الفصـل الثانـى

هجمة ٢٩ من مارس

عبـد الناصـر حجـازى

دارت عجلة الحرب، لم تترك قائمًا إلا هدمته، هدمت مدنًا بكاملها، قتلت الآلاف، أعادت المدن والقرى الفلسطينية إلى القرن التاسع عشر، لم تترك حتى دور العبادة، بل دنست أقدس الأماكن لدى المسلمين والمسيحيين على حد سواء.

جرائم لا تحتويها الكلمات، بل لا يكفى كل يوم من أيام العدوان أن يحتويه كتاب، ولكن نحاول أن نرصد أهم ما حدث فى تلك الأيام العصيبة، من أيام فلسطين، فى يوميات؛ لتبقى فى ذاكرة الأمة.

اليـــوم الأول (٣/٢٩)

بدأت القوات الإسرائيلية فى اجتياح رام الله، بعد منتصف ليل الخميس/ الجمعة، ٢٩ من آذار/ مارس ٢٠٠٢م، وتقدمت عشرات الدبابات، والمجنزرات، وناقلات الجنود المصفحة، تحت حماية جوية كثيفة من الطيران الإسرائيلى، فى دخول المدينة واحتلتها بالكامل، ولم تحدث أية اشتباكات، إلا فى محيط مقر الرئاسة، ووسط المدينة، وحى الطيرة.

فرضت قوات الاحتلال حظر التجول، فى النهار لم يستطع المصلون الوصول إلى المساجد لأداء صلاة الجمعة، وقطعت قوات الاحتلال التيار الكهربائى، والمياه عن المدينة المُحاصَرة.

فى محيط مقر الرئاسة، تقدمت الجرافات، لتفتح ثغرات فى أسوار المبنى؛ بما يسمح بدخول المجنزرات والجنود الإسرائيليين، وحاصرت الدبابات الإسرائيلية مقر الرئاسة، وقطعت عنه الإمدادات الخارجية، من غذاء ودواء، خاصة وأن المقر يفتقر إلى مخزن للأغذية، لم تبق وسيلة اتصال خارجية لمقر الرئاسة، إلا بالهواتف المحمولة، ومنها تحدث الرئيس

الفلسطينى مع قناة «الجزيرة» الفضائية القطرية، قال فيه عبارته المشهورة: «إنهم يريدوننى أسيرًا، أو قتيلاً، أو طريدًا، وأنا أقول لهم بل شهيدًا»!

بعد صلاة الجمعة فى المسجد الأقصى بالقدس، رجم المصلون بالحجارة صهاينة، كانوا بجوار «حائط البراق»، فما كان من جنود الاحتلال إلا أن اقتحموا باحة المسجد.

فى المساء اقتحمت الدبابات الإسرائيلية مدينة بيت جالا، وكان لها ما كان لرام الله، بلغت حصيلة هذا اليوم ٧ شهداء فلسطينيين، أثناء تصديهم للقوات الإسرائيلية، خلال هجومها على مقر الرئاسة، وبعد معارك باسلة، استشهد ٧ فلسطينيين، فيما قتل ضابط إسرائيلى، وأدى إطلاق النار، عشوائيًا، إلى هدم بعض المنازل، وتضرر أخرى فى رام الله.

اليوم الثانى (٣/٣٠)

بعد إتمام احتلال رام الله، قامت قوات الاحتلال بإجلاء الرعايا الأجانب عن المدينة، وانتشرت ٤٠٠ دبابة إسرائيلية فى رام الله ومحيطها، فى هذا اليوم تم تدمير شامل لشبكتى الكهرباء والتليفون، ودخلت الدبابات الإسرائيلية داخل سور مجمع الرئاسة، وسيطر جنود الاحتلال على المجمع بأكمله، باستثناء مبنى مكون من ٣ طوابق، واحتلت قوات الاحتلال وزارة الثقافة، ومقر التليفزيون الفلسطينى، وبقيت بعض جيوب المقاومة فى وسط المدينة، حيث حدث تبادل لإطلاق النار بالرشاشات الثقيلة، ولم يخل الليل من بعض المناوشات. بعد احتلال رام الله وبيت جالا، توسعت الحملة الإسرائيلية لتشمل الخليل فى الضفة الغربية، وبيت لاهيا، ورفح، فى قطاع غزة، وتوغلت ٥ دبابات إسرائيلية مسافة ٥٠٠ متر داخل مدينة الخليل.

اجتمع فى هذا اليوم رئيس الأركان الإسرائيلى، الجنرال شاؤول موفاز مع الملحقين العسكريين الأجانب، وطلب منهم إجلاء رعاياهم من مناطق الحكم الذاتى؛ حرصًا على حياتهم؛ لأن العملية العسكرية ستستمر لاحتلال باقى مدن مناطق الحكم الذاتى.

فى هذا اليوم ارتكبت إسرائيل من الفظائع ما فاق النازى فى أوروبا، حيث قام جنود الاحتلال بإعدام خمسة من رجال الأمن، بعد القبض عليهم، أعدموهم رميًا بالرصاص، فى الرأس، والصدر، من مكان قريب، وهم عُزَّل من السلاح. وقال شهود العيان: إن القتل تم ليلة الجمعة/ السبت ٢٩ - ٣٠/ ٣، كما قتلت قوات الاحتلال رجلين فلسطينيين، بزعم أنهما كانا يخططان للقيام بعملية استشهادية، وذلك فى برقة الغربية، قرب طولكرم، وهى من قرى فلسطين المحتلة فى سنة ١٩٤٨، وقتل فى الحادثة جندى إسرائيلى، واعتقلت قوات الاحتلال ١٤٥ فلسطينيًا من منازلهم فى رام الله، وقامت السيارات المصفحة الإسرائيلية والدبابات الإسرائيلية بتدمير السيارات الفلسطينية، والمتاجر المملوكة للفلسطينيين، واستخدمت سيارات الإسعاف كدروع، بل وصل الأمر إلى إخراج أحد الجرحى من سيارة الإسعاف، ونزع ضماداته الطبية، وتركه فى العراء، من الرابعة عصرًا حتى الواحدة من صباح اليوم التالى.

اليـــوم الثالث (٣١/٣)

أعلن الجيش الإسرائيلى أن رام الله منطقة عسكرية محاصرة، وطلبت سلطات الاحتلال إلى الصحفيين مغادرة رام الله، وعُزِلت رام الله عن

العالم، حتى الهاتف المحمول لعرفات قطعوا عنه الاتصال، فى أثناء محادثة بين عرفات ورئيس وزراء أسبانيا خوسيه ماريا أزنار.

وأقرت الحكومة الأمنية الإسرائيلية المصغرة عمليات أخرى فى مدن قلقيلية، وبيت لحم، وبيت جالا، وتطوير الهجوم على المدن التى سبق أن هاجمها الجيش فى اليومين السابقين، وقدم الجيش صورًا جوية للمدن الفلسطينية، وللأهداف المطلوب احتلالها، أو تدميرها. بعد الاجتماع صرح وزير الأمن الداخلى الإسرائيلى، عوزى لاندو، بأن الغرض من تلك العمليات إنهاء السلطة الفلسطينية.

وأوضحت صحيفتا «هآرتس» و«يديعوت أحرونوت» الإسرائيليتان فى موقعهما على شبكة الإنترنت، استنادًا إلى مصادر عسكرية، أنها لا تنفى أن يستمر الاحتلال لعدة أشهر، وشوهدت يومها أرتال الدبابات الإسرائيلية فى محيط مدن شمال الضفة: جنين، وطولكرم، وقباطية، وفى الخليل جنوبًا.

فى اليوم الثالث لاحتلال رام الله، انضم ٤٠ متضامنًا أوروبيًا، من فرنسا، وأيرلندا، وإيطاليا، انضموا للرئيس عرفات فى مقره، المحاصَر بالدبابات الإسرائيلية، وجعلوا من أنفسهم دروعًا بشرية دفاعًا عنه، ولم يمنع ذلك من تبادل لإطلاق النار فى مقر عرفات، وإحداث ثغرة أخرى فى جدار مكتبه، حيث اقتحمت قوات الاحتلال مكتب المحافظ، الذى لا يفصله عن مكتب الرئيس سوى باب واحد، ودارت اشتباكات عنيفة بين جنود الاحتلال وحرس الرئيس؛ للحيلولة دون اقتحام مكتب الرئيس، ووقعت خمسة انفجارات، عند باب صالة الطعام الموجودة داخل مقر الرئاسة، وألقيت على المقر قنابل غاز مُسيلة للدموع، فيما نفى جيش الاحتلال حدوث

أية اشتباكات، وكذَّبها جرح اثنين من مرافقى عرفات، ورفضت قوات الاحتلال دخول الهلال الأحمر الفلسطينى؛ لإمداد المحاصرين داخل المقر بالماء والطعام، وإخلاء الجرحى، وتمَّ اقتحام مقر القوة (١٧)، المكلفة بحماية عرفات، فضلاً عن مقر الأمن الوطنى، حتى المنازل حَوَّلها جنود الاحتلال إلى ثكنات عسكرية، وسرقوا، ونهبوا محتويات المنازل والمتاجر، ولم يبق غير مستشفى رام الله، حيث دافع عنه أوروبيون بأجسادهم، وقد نجحوا فى الحيلولة دون اقتحامه، وتحولت رام الله إلى مدينة أشباح، لا تتحرك فيها سوى الآلات العسكرية الإسرائيلية، وتعذر نقل الجثث والجرحى من الشوارع؛ حيث أعاقت قوات الاحتلال عمل سيارات الإسعاف، واحتجزت عشر سيارات منها.

واعتقلت قوات الاحتلال عشرات الشباب فى رام الله، ووضعتهم معصوبى الأعين، مكبلى الأيدى، أمام ذويهم من الأطفال، والأمهات، والآباء، دون أن يستطيع هؤلاء تقديم يد المساعدة للمعتقلين، تحت ظروف جوية بالغة السوء، من البرد الشديد، والمطر الغزير، ووصل الأمر حد بث أفلام خليعة على القنوات الفلسطينية، والتى احتل مقراتها جيش الاحتلال فى اليوم السابق.

أما فى بيتونيا، فقد تمت محاصرة مقر الأمن الوقائى فى الضفة، حيث استقرت ١٤ آلية عسكرية إسرائيلية على التلة المقابلة للمقر.

فى قطاع غزة، أطلقت إحدى الدبابات قذائفها، ناحية شرق جباليا، وحلقت طائرات فوق قطاع غزة، وتوغلت المجنزرات الإسرائيلية أكثر من ألف متر فى بيت لاهيا، وأكثر من ٢٠٠ متر فى تل السلطان فى رفح.

استخدم جنود الاحتلال فى ذلك اليوم أسلحة مُحرَّمة دوليًا، وأعدموا تسعة أفراد من قوات الأمن الفلسطينى، بعد القبض عليهم، وهم عُزَّل من السلاح، واعتقل جنود الاحتلال ٢٥ فردًا من عائلة البرغوثى، رهائن عن أمين سر حركة فتح فى الضفة الغربية، مروان البرغوثى.

تصاعد العدوان فى اليوم الثالث، ربما لإنهاء عملية السيطرة على رام الله، حيث لم يعد الوقت فى صالح الكيان الصهيونى، خاصةً بعد تسرب أنباء عن مجازر قوات الاحتلال فى رام الله، وتَحَدُّث الإعلام الغربى عنها، ولم يعد فى مقدور الضوء الأخضر الأمريكى تبرير العدوان الإسرائيلى.

اليــــوم الرابع (٤/١)

الآلة العسكرية الإسرائيلية وحدها تتحرك فى شوارع رام الله، ويبدو بأنها وجدت فى أعمدة الكهرباء ما ينافسها، فعمدت إلى إزالة تلك الأعمدة، ستة وعشرون شهيدًا فى ثلاجة مستشفى رام الله (سعتها القصوى) وقوات الاحتلال ترفض دفنهم، ولا تأبه بكارثة صحية محققة، فى حال تأخير دفنهم.

قبضت قوات الاحتلال على عشرة نشطين أوروبيين فى رام الله؛ لترحيلهم قسرًا إلى بلادهم، كان منهم النشط الفرنسى، جوزيه بوفيه، المعروف بمواقفه المساندة للقضية الفلسطينية. وعلى أحد الحواجز فى رام الله وضعت سيدة فلسطينية مولودها، بعد أن رفضت قوات الاحتلال نقلها للمستشفى.

تقدمت قوات الاحتلال باتجاه قلقيلية واحتلتها، وأحياء حولها، وانتشرت

فى شـوارع قلقـيليـة عـشـرات الدبابات الإسـرائيليـة والجـرافـات، وناقـلات الجنود المصفحة، وقطعت قوات الاحتلال التيار الكهربائى عن المدينة.

شـددت قوات الاحـتلال، فى ذلك اليوم، حصـارها حول طولكرم، واحتلت مـزيدًا من المواقع حـولهـا، وفى بيت لحم، مـثل الخـضـر، وبيت جـالا، وبيت سـاحور.

فى هـذا اليـوم اعـتـرفت «إسـرائيل» بقـتل خـمـسـة من أفـراد الأمن الفلسطينـى، كانوا ضمن عشـرين فردًا، حُوصـروا فى مبنى تجارى، يقع بين مجمع الرئاسـة ودوار المنارة، فى وسط رام الله، وأفـاد شـهـود عيـان برؤية ٧ جثث، عدا اثنتين، داخل المبنى التجارى، وأفادوا، أيضًا، بأن من ٢٠ إلى ٣٠ فردًا كانوا داخل المبنى التجارى، ومنهم من طلب التسليم، وخرج اثنين منهم، رافعين أيديهم، لكن قوات الاحتلال قتلتهما، وبقى مصير باقى المحاصرين مـجهـولاً، وازدادت المخـاوف من احـتمـال إعدامـهم، مـيدانيًا، خـاصـة وأن مشاهد الإعدام الميدانى توالت فى رام الله.

اليـــوم الخامس (٤/٢)

بعد طول انتظار، لم يجد القـائمـون على مسـتشـفى رام الله بدًا من دفن الشـهـداء فـى حـديقـة المسـتـشـفى. العـدوان يأخـذ منحـى جـديدًا، فـقـوات الاحـتلال تعتدى على كنيسـة المهد فى بيت لحم، ونتيجـة لكثافة إطلاق النار فـى سـاحـة الكنيسـة أصـيب الكاهن، جـاك أمـاتيس، إصـابة بالـغة الخطورة، عدا ست راهبات أصبن داخل الدير، هكذا صـار مـهـد السـيـد المسـيح (عليه السـلام) مـيـدان رمـاية لقـوات الاحـتـلال الإسـرائيلى، والتى هـدمت تمثـالاً للسيدة العذراء فى سـاحـة المهـد، وفى طولكرم دمـرت قـوات الاحـتـلال أحـد

المساجد، إنه، بلا شك، يوم العدوان على المقدسات.

فى إطار الحرب النفسية على الشعب الفلسطينى، قامت قوات الاحتلال بجمع الشباب من سن ١٦ إلى سن ٤٠ سنة، على قارعة الطريق، وجردتهم من ثيابهم، وأركعتهم معصوبى الأعين فى البرد الشديد، وحتى وقت متأخر من الليل.

بالرغم من علم القوات الإسرائيلية بوجود أكثر من ٤٠٠ مدنى فلسطينى، فى مقر قيادة الأمن الوقائى فى الضفة الغربية، والموجود فى بلدة بيتونيا، ومن بين المحاصرين أكثر من ٦٠ سيدة وفتاة، على الرغم من ذلك قامت قوات الاحتلال بقصف المقر، بطائرات الأباتشى، الأمريكية الصنع، وبعشرات الدبابات، واشتعلت النار فى المقر، مما سبب الكثير من الإصابات فى صفوف المدنيين.

فى اليوم نفسه، أقدمت القوات الإسرائيلية على جريمة مروعة، حيث قتلت أربعة مدنيين فى بيت لحم، هم أم، وابنها، وجنين، وكهل، ناهيك عن عصابات المستوطنين التى قتلت اثنين من الفلسطينيين، على طريق نابلس فى سيارتهما، وكأن ما يفعله جيش الاحتلال لا يكفى.

فى هذا اليوم، كان هناك حدث ذو دلالة، فقد سمحت الولايات المتحدة لدبلوماسييها فى القدس بمغادرة «إسرائيل» فى هذا اليوم، وعلى نفقة الحكومة الأمريكية، فبدا لكل ذى عينين أن الضوء الأخضر الأمريكى يسمح لـ «إسرائيل» باستخدام كل ألوان القوة، ولفترة مفتوحة، ولذلك تخشى أمريكا على دبلوماسييها فى القدس من محاولات انتقامية محتملة؛ نتيجة لذلك الموقف الأمريكى المتحيز لـ «إسرائيل».

اليــوم السادس (٣/ ٤)

تعيش بيت لحم، اليوم الثانى لها تحت رحمة جنود الاحتلال الإسرائيلى، طوقت الدبابات الإسرائيلية كنيسة المهد، وكذلك كنيستى السريان وسانتا ماريا، واقتحمت قوات الاحتلال الإسرائيلى مقر البلدية، واحتجزت الصحفيين الموجودين بداخله، ودمرت قوات الاحتلال محطات الهواتف المحمولة، وقطعت المياه كلية عن أحياء بكاملها، وقطعت الكهرباء عن أخرى، وانطلقت قذائف الدبابات الإسرائيلية لتصيب مسجد عمر بن الخطاب، القريب من كنيسة المهد، وتصاعدت ألسنة الدخان من المسجد.

واحتلت القوات الإسرائيلية ساحة كنيسة المهد، والمبانى المحيطة بها، وحاصرت بداخل الكنيسة رجال دين مسلمين ومسيحيين، بعد أن أعلن غبطة بطريرك اللاتين فى القدس، ميشيل صباح، منح اللجوء داخل الكنيسة لأكثر من ٢٠٠ فلسطينى احتموا بها.

عاشت رام الله لليوم السادس تحت الاحتلال، ولم تتوقف قوات الاحتلال عن اقتحام البيوت، وأخذ الرهائن، ووضعهم بالعشرات فى غرف ضيقة، وسرقة محتويات المنازل والمتاجر. ووصل الأمر إلى سرقة محتويات المكاتب الرسمية للسلطة، وتحطيم أثاثها، وحرق وتمزيق الأوراق، والوثائق، والخرائط، حتى أجهزة الحاسب الآلى تم تفريغ ما بها من معلومات، ثم حطم الجنود كل الأجهزة، حتى بات عمل سنوات طويلة من البحث والدراسة مجرد أوراق ممزقة، خاصة فى مراكز الوثائق، التى تعنى بمعلومات وافية عن الملايين من أبناء الشعب الفلسطينى.

بالقرب من بيت لحم، فى مخيم عايدة، مأساة إنسانية مروعة، جثة أم وجثة ابنها الشاب فى صحن منزلهما، ولا يستطيع أحد دفنهما، بالرغم من مرور ثلاثة أيام على وفاتهما. وقوات الاحتلال تمنع سيارات الإسعاف، أو الهلال الأحمر الفلسطينى من الوصول إلى منزلهما، ولم يجد رب الأسرة بدًا من وضع الأطفال فى «حمام المنزل»، حتى لا يفزعهم منظر الجثتين.

كانت حصيلة هذا اليوم ثمانية شهداء، منهم خمسة مدنيين، حيث استشهد ثلاثة فلسطينيين فى محيط كنيسة المهد، وعند دخول قوات الاحتلال لبلدة سلفيت، قرب قلقيلية، اشتبكت قوات الاحتلال مع المدافعين عن البلدة، مما أدى إلى استشهاد خمسة فلسطينيين، منهم زياد الزبيدى، أحد قادة «كتائب شهداء الأقصى»، وإحدى الممرضات، وطفل.

فى قطاع غزة، استُشهد شاب من جباليا، أثناء اشتباك جرى شمال بيت حانون، شمالى قطاع غزة.

كشف جيش الاحتلال من حشوده على مدينتى الخليل ونابلس بالضفة الغربية، لتبقى أريحا من المدن الفلسطينية التى لم يقتحمها جيش الاحتلال، توغل جيش الاحتلال فى قرية البدوية، قرب بيت لاهيا، شمالى قطاع غزة، واقتحم منازل القرية، وانتقل جنود الاحتلال من بيت لآخر بحثًا عن مطلوبين، وانسحب الجنود، بعد أربع ساعات، وبعد اعتقالهم لأربعة من شباب القرية، ثم ما لبث الجنود أن أفرجوا عن اثنين، واقتادوا الآخرين لجهة غير معلومة، وفرضت قوات الاحتلال حظر التجول على بلدة الجعفراوى، جنوب دير البلح، القريبة من مستوطنة «كفار داروم» الصهيونية.

اليــوم السابع (٤/٤)

فجَّرت قوات الاحتلال الإسرائيلى الباب الجنوبى لكنيسة المهد فى محاولة للتأثير على معنويات المُحاصرين داخل الكنيسة، وانتشر قناصة جيش الاحتلال فوق أسطح المبانى القريبة من الكنيسة، وسقط شهيدًا قارع أجراس الكنيسة، سمير سلمان (٤٣ سنة)، وانتشر خبر استشهاده فى المدينة، وسط دهشة الجميع، حيث لم يكن لقارع الأجراس علاقة بأعمال المقاومة، بل قتل فى ساحة كنيسة المهد برصاص جيش الاحتلال.

أطلق جنود الاحتلال النار، بشكل عشوائى، فى ساحة كنيسة المهد لأول مرة فى التاريخ، حيث لم تتعرض الكنيسة للعدوان إلا فى عدوان سنة ١٩٦٧، حيث أطلقت عليها بضع طلقات، فقط، من الجانب الإسرائيلى.

لم تسمح قوات الاحتلال بإجلاء الجرحى من داخل كنيسة المهد، على الرغم من وجود ١٢ جريحًا، منذ ثلاثة أيام، جراح بعضهم خطيرة.

اليــوم الثامن (٥/٤)

فجَّرت قوات الاحتلال منزلاً فى بلدة طوباس، قرب نابلس، مما أدى إلى استشهاد ثمانية فلسطينيين: طفلة صغيرة، وامرأة، وستة مطلوبين لسلطات الاحتلال.

قصفت مروحية إسرائيلية سيارتين فى الخليل فى محاولة لاغتيال أحد كوادر «الجهاد الإسلامى» لكنه نجا بأعجوبة، ونتج عن هذا القصف خمسة جرحى، أحدهم فى حالة موت سريرى.

سقط فى نابلس وحدها ١٢ شهيدًا، أثناء دفاعهم عن البلدة القديمة فى نابلس (القصبة)، وفشلت قوات الاحتلال فى السيطرة على البلدة القديمة؛ نظرًا للمقاومة الباسلة التى أبداها المقاتلون الفلسطينيون المدافعون عن المدينة، رغم الفارق الكبير فى العدد والعدة.

اليـــوم التاسع (٤/٦)

شهدت نابلس يومًا آخر من المعارك الطاحنة، حيث تحطمت الهجمات الإسرائيلية المتكررة على صخرة المقاومة الفلسطينية الباسلة فى نابلس القديمة (القصبة) على الرغم من التصعيد الإسرائيلى غير المسبوق، حيث اشتدت الهجمات الصاروخية والقصف المدفعى، بشكل لم يسبق له مثيل فى الأيام السابقة.

وسَّع جيش الاحتلال نطاق عملياته لتشمل بلدة قباطية، قرب جنين، ومخيم الفوار فى الخليل، وبلدة يطا فى المنطقة ذاتها، اقتحم جيش الاحتلال منزل قيادى فى «حماس»، فى رام الله هو «حسن يوسف»، واعتقل نجله.

سقط فى هذا اليوم ثلاثة شهداء فى نابلس، منهم عماد الحاج حمد (٢٣ سنة)، ونضال عبيدات (٢٥ سنة)، سقط الشهيدان دفاعًا عن نابلس القديمة، بينما سقط شهيد ثالث بصاروخ أطلقته مروحية إسرائيلية على منزله، كما أطلقت قوات الاحتلال النار على مقر الرئاسة فى رام الله، مما أدى إلى سقوط شهيد وجريحين.

فى رفح، جنوب قطاع غزة، سقط خمسة شهداء، بينهم طفلتان، بينما

سقط شهيدان قرب معبر صوفا برصاص قوات الاحتلال، واستشهد الخامس فى قصف مدفعى على مدينة رفح، كما سقط فى الخليل ثلاثة شهداء برصاص جنود الاحتلال، هم: نادر الخضر (٢١ سنة)، وجمال مريشى (٢٧ سنة)، وروبن ضرور (١٣ سنة).

فى غزة سقط شهيدان، حاولا دخول مستوطنة «فرح يام»، فيما بدا كمحاولة للقيام بعملية استشهادية، اعتقلت قوات الاحتلال شابين من كوادر «الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين»، هما محمود أحمد عودة، وشادى الشرفا، تتهمهما «إسرائيل» بالمشاركة فى قتل وزير السياحة الإسرائيلى السابق، رحبعام زئيفى، والتخطيط لهجمات بسيارات مفخخة.

اليــــوم العاشر (٤/٧)

تصمد نابلس ليوم آخر من العدوان، ورغم التفاوت الواضح فى القوة بين المقاومين الفلسطينيين وقوات الاحتلال، فإن قوات الاحتلال فشلت، مجددًا فى اقتحام البلدة القديمة فى نابلس (القصبة)، وسقط من الجانب الفلسطينى ثمانية شهداء، جميعهم فى العشرينيات من عمرهم، وجرح فى العدوان الإسرائيلى ثلاثة فلسطينيين.

فى رفح، جنوبى قطاع غزة، سقط شهيدان هما: سعدى أبو حسنة (٣٣ سنة)، وخالد الطير (٢٦ سنة)، قرب مستوطنة موراغ الصهيونية، شمال مدينة رفح، وبدا واضحًا على جثث الشهداء آثار التنكيل والتمثيل، حتى إن إحدى الجثتين حملت بها آثار لنهش الكلاب البوليسية، التى تستخدمها، عادة، قوات الاحتلال.

أخلت قوات الاحتلال مبنى يضم ٥ طوابق فى مخيم بلاطة، ووضعت سكان المبنى السبعين فى مكان واحد، ثم قصفت المبنى بالمروحيات، قبل أن تحطم أبواب المتاجر، وتنهب ما فيها، وإحراقها بعد ذلك. اعتقلت قوات الاحتلال كثيرًا من الشباب فى قرى دير غسانة، وبيت ريما، وبنى زيد غرب رام الله. قصفت قوات الاحتلال قرية عقربة، قرب نابلس، قبل اقتحامها، وأشعلت قوات الاحتلال النار فى منزلين، واقتحمت العديد من المنازل؛ بحثًا عن مطلوبين لها.

اليوم الحادى عشر (٨/ ٤)

أقر الكنيست الصهيونى دخول أعضاء جدد فى حكومة شارون، وهما اثنان من حزب المستوطنين، (إيفى إيتام، رئيس الحزب، وسلفه إسحاق ليفى)، والثالث زعيم حركة غيشر، ديفيد ليفى، العضو السابق فى الليكود. وهناك توقعات بعودة ليبرمان وبيتى آلون للوزارة الإسرائيلية، مما يجعل لها أكبر تكتل فى الكنيست (٨٩ من ١٢٠ عضوًا)، وهو إن دل على شىء فعلى الإصرار على السياسة العدوانية لحكومة شارون، وعلى النية المبيتة لدى حكومة شارون لاستمرار عملياتها العسكرية فى المناطق الفلسطينية لفترة طويلة.

زوارق وبوارج حربية إسرائيلية تجوب المياه الإقليمية الفلسطينية، قبالة شواطئ غزة، وشوهدت الدبابات الإسرائيلية قرب معبر صوفيا، مما يرجح أن قطاع غزة قد يكون هدفًا لأعمال عدوانية إسرائيلية فى الأيام المقبلة، على غرار ما حدث فى الضفة الغربية.

دمرت قوات الاحتلال مقر الأمن الوقائى فى الخليل، ومقر الأمن الوطنى، ومقر القوة ١٧، وبعدها اعتقلت قوات الاحتلال النائب عن الخليل فى المجلس التشريعى الفلسطينى، زهران أبو قبيطة، مع خمسين آخرين من أهالى بلده يطا، جنوب شرقى الخليل، قبل الانسحاب بساعات قليلة.

استُشهد فى هذا اليوم ستة فلسطينيين، ثلاثة منهم فى نابلس أثناء تصديهم للقوات الإسرائيلية، وكذلك سقط شهيدان وثلاثة جرحى فى مخيم عسكر، قرب نابلس، واستُشهد سائق سيارة فى رام الله، قتله جنود الاحتلال بزعم أنه لم يلتزم بحظر التجول.

اليوم الثانى عشر (٤/٩)

رغم ضراوة الهجوم الإسرائيلى فشلت قوات الاحتلال فى السيطرة على نابلس القديمة (القصبة)، وبقى حى الياسمين فى أيدى المقاومين الفلسطينيين. حاصرت قوات الاحتلال مخيمات: العين، وعسكر، وبلاطة، كما استمر حصار كنيسة المهد، وانطلق مكبر صوت حول الكنيسة يطلب من المحاصرين الخروج، وأعلن رقم هاتف يستطيع المحاصرون الاتصال به، فى حالة طلبهم التسليم، لكن أحدًا من المحاصرين لم يستجب لهذا النداء المتكرر. ولم يتوقف إطلاق النار فى محيط كنيسة المهد، مما أدى إلى جرح اثنين من المحاصرين داخل الكنيسة، كما نسفت قوات الاحتلال العديد من الكهوف التاريخية، الموجودة فى المدينة المقدسة.

اقتحمت ٥٠ دبابة وآلية عسكرية إسرائيلية مدينة الخليل، تحت غطاء جوى من مروحيات العدو، كما اقتحم جنود الاحتلال، أيضًا، بلدة دورا،

القرية، وسقط فى هذا الاقتحام ثلاثة شهداء، وجُرح أكثر من ١٥ فلسطينيًا، واعتقلت قوات الاحتلال أكثر من ٧٠ فلسطينيًا.

توغلت قوات الاحتلال لأكثر من ٧٠٠ متر فى بيت حانون، بقطاع غزة، تدعمها الدبابات والجرافات، وقامت قوات الاحتلال بتجريف بعض المزارع، وأقامت عليها موقعًا عسكريًا.

اليـــوم الثالث عشر (٤/١٠)

قصفت قوات الاحتلال مخيم العين بالدبابات والمروحيات، دون أن تقتحم هذه القوات المخيم، واستمر القتال فى مخيم بلاطة وعسكر، حيث توجد جيوب للمقاومة منعت قوات الاحتلال المواطنين الفلسطينيين من دفن شهدائهم، أو التزود بالمؤن الغذائية؛ بسبب فرض قوات الاحتلال حظرًا للتجول على المدن والمخيمات الفلسطينية لفترات طويلة.

اقتحمت قوات الاحتلال مخيم الدهيشة، القريب من بيت لحم، اقتحمته قوات الاحتلال مدعومة بالدبابات والآليات العسكرية، وكذا بلدة السموع، القريبة من الخليل، وقطعت التيار الكهربائى عن مدينة بيت لحم.

وبعد، فما هذه اليوميات إلا النزر اليسير مما تسرب إلى أجهزة الإعلام، دون رغبة من العدو الصهيونى، ليشهد العالم جزءًا من جرائم هذا العدو ضد الشعب الفلسطينى، ومع هذا فكل ما حدث فى المدن والمخيمات الفلسطينية يهون أمام ما حدث فى جنين ومخيمها.

○○○

الفصل الثالث

المواجهة المسلحة فى المخيم

فتحى عبد العليم

من الصعب على المرء، وهو يقف أمام كارثة جنين المروعة، والتى قال عنها مندوب الأمين العام للأمم المتحدة تيرى لارسن: «إنها تفوق الخيال والوصف»، نقول من الصعب أن يلتزم الباحث بالموضوعية، والمنهجية والروح العلمية، والعقلانية فى مواجهة كل مفردات اللامعقول، واللاإنسانى، واللاأخلاقى، ولكنها فى النهاية، أمانة الكلمة وشرف القلم، وأيضًا استجابة لواجب الوفاء لدماء الشهداء، ولأرواح بريئة أزهقت، وأنفس عظيمة قدمت كل ما تملك حتى الطلقة الأخيرة والرمق الأخير.

على قدر بشاعة الجريمة، وخروجها عن كل ما هو مألوف، وموجود فى الحياة البشرية، كانت هناك كل ملامح ونماذج البطولة، والفداء، والتضحية، وقيم حية مجسَّدة، تستعصى على الموت، وتمثل رصيدًا عظيمًا، يحق أن يفخر به هذا الشعب العريق، لذلك من الخطأ الكبير، أن ننظر بعين واحدة إلى واقعة جنين، وأن تغطى الجريمة على البطولة، وأن يطغى هول الإجرام، وثقل المأساة على عقولنا، وأبصارنا، فلا نرى الوجه الآخر من الحقيقة، والجانب المشرق من الصورة. وبناءً عليه فسوف يجتهد الباحث فى الخوض فى غمار البحث على محور واحد، تم تكليفه به وهو المواجهة المسلحة فى جنين.

ثمة أسئلة بحثية تطرح نفسها بالضرورة، وسوف يتم الإجابة عليها، أو محاولة تفسيرها، بتوفيق من الله تعالى، منها: لماذا جنين بالذات؟ وما هى طبيعة المواجهة العسكرية التى تمت هناك؟ ما هى الاستراتيجية العسكرية التى اتبعها العدو الصهيونى؟ وفى المقابل: ما هى ملامح المنهجية المضادة التى اتبعها الجانب الفلسطينى؟ وفى النهاية من المنتصر، ومن المهزوم فى موقعة جنين؟

لماذا جنين؟

استقر فى وعى وإدراك القيادة السياسية والعسكرية الصهيونية، أن جنين هى معمل لتفريخ العناصر الإرهابية، من وجهة نظرها، وهى بؤرة حية للمقاومة، وتمثل خطرًا على الدولة العبرية، حيث إن معظم أبطال العمليات الاستشهادية، والتى هزت بنيان المجتمع، ونشرت موجات متتابعة من الهلع، والرعب، وعدم الاستقرار فى داخل إسرائيل نفسها، وأحصى الإسرائيليون منها حوالى ٢٣ استشهاديًا خرجوا من منطقة جنين أثناء انتفاضة الأقصى الحالية، ١٧ منهم من «الجهاد الإسلامى»، اعتقل العدو أربعة قبل تمكنهم من التنفيذ(١)، لذلك أطلقوا على جنين عاصمة الانتحاريين، والحقيقة بالطبع أنها عاصمة الاستشهاديين.

هكذا ضربت هذه العمليات الاستشهادية بقوة، نظرية الأمن الإسرائيلى فى حالة سياسية، ومجتمعية، وعسكرية غير مسبوقة. وهو ما فشلت فيه وعجزت عنه كل الدول والجيوش العربية على مدار تاريخ الصراع العربى - الإسرائيلى، وبالتالى بدأت تظهر عورات وسوءات يخاف منها العقل اليهودى، ويعمل لها ألف حساب، وهى سهولة اختراق الحواجز والاستحكامات الأمنية، وفشل أجهزة الأمن والاستخبارات الإسرائيلية فى الكشف عن هذه العمليات، وعدم النجاح والعجز فى التعامل مع هذه الظاهرة الاستشهادية، أو الوقاية منها، وبالطبع فالسكوت عن هذه الأمور سوف يجر مجموعة من التداعيات والانعكاسات السلبية على نظرية الأمن والاستراتيجية والبنيان الفكرى والسياسى للدولة.

لذلك تم وضع خطة «الجدار الواقى»، والتى كان ضرب وإبادة جنين فى

القلب منها، ومما زاد الأمر سوءًا وتعقيدًا بالنسبة للطرف اليهودى، هو صمود وبسالة جنين، وبالتالى تحولها إلى رمز للصمود، والمقاومة، والتحدى، فكان لابد من كسر إرادة المقاومة، والقضاء على كل القيم التى تمثلها جنين؛ لأنه غير مسموح بنموها وازدهارها، فذلك يعنى إعطاء الأمل أو معنى الانتصار للطرف الفلسطينى، فى مقابل الخطر، أو التراجع النسبى لدى الجانب الإسرائيلى.

كل هذا يفسر، إلى حد كبير، إدارة الآلة العسكرية الصهيونية، إلى حدها الأقصى، تحت قيادة رئيس الأركان الإسرائيلى بنفسه، شاؤول موفاز، مما أثار استغراب ودهشة الكثير من المراقبين والمحللين، أن يتولى رئيس أركان جيش لدولة ما، عملية اقتحام مخيم للاجئين، ولكن كان هناك وضع منطقى مغاير لدى العقلية اليهودية.

طبيعة المواجهة العسكرية

لعل من الأمور التى تدعو إلى السخرية والاشمئزاز، وصف طبيعة المعركة، فقد اعتاد المحللون والمؤرخون، أن يصفوا طبيعة أى معركة بين جيشين، يملك كل منهما جنودًا وضباطًا وسلاحًا وعتادًا، وكذلك فرقًا ومدرعات وغرفًا للعمليات ومراكز للاتصالات، والدعم اللوجيستى، والغطاء الجوى.

أما هنا فطبيعة المعركة هى ضد الطبيعة، فجنين هى مجرد مخيم، يسكنه لاجئون، مساحته كيلو متر واحد، يقطنه ثمانية عشر ألفًا من البشر، معظمهم من النساء، والشيوخ، والأطفال، ويوجد به بضع عشرات من

المقاتلين، وجدوا أنفسهم فى مواجهة جيش جرار، مدجج بأعتى ما أنتجته الترسانة العسكرية الأمريكية، يسعى للإبادة، وتم وضع الجميع فى سلة واحدة، الشاب المقاتل، مثل المرأة، مثل الطفل، مثل الشيخ العجوز، فالمقاتل «إرهابى» يمثل خطرًا وتحديًا لأمن إسرائيل، والمرأة سوف تنجب أجيالاً جديدة من الأعداء، والطفل سوف يكون رجلاً بعد عدة سنوات، وبالتالى فهو خطر فى المستقبل، والشيخ العجوز يُعلم أولاده، وأحفاده قيمة الأرض، والتمسك بها، ويحفظ فى ذاكرته، ووجدانه، ذكريات وسنوات الصراع المرير، والقهر، ويغذى بها مشاعر العداء، والانتقام، للخلف من بعده، وبالتالى فهو مصدر للطاقة المعنوية والروحية، ينشرها فيمن حوله.

من جهة أخرى فقد نشرت مجلة «الاستخبارات العالمية» تقريرًا مطولاً، حمل مفاجأة غير متوقعة، حيث ذكر أن خطة «الجدار الواقى» التى اتبعتها إسرائيل، وضعها ضباط من المخابرات الأمريكية (CIA)، عددهم ١٣ ضابطًا، بالإضافة إلى ٤ ضباط من مكتب الـ (CIA) فى إسرائيل، من المتخصصين والخبراء فى طبيعة الأرض فى الضفة والقطاع، بناء على مبادرة وطلب من جهاز المخابرات العسكرية الإسرائيلية (أمان)(٢).

هكذا يتضح مدى الطبيعة الشاذة لهذه المواجهة، والذى أكدناه، سابقًا فى سياق البحث، حيث طرف متخم بالوسائل والإمكانات، بينما الطرف الآخر، يفتقر إلى أبسط مقومات وأسس الحياة، فضلاً عن الحد الأدنى من الأدوات، التى تمكنه من إدارة معركة ضروس بهذا الشكل، اللهم إلا القوى والصفات الذاتية، وإيمانه بالله وقضيته، وحقه وأرضه، وبالتالى فالمقارنة هنا، تفقد معناها، ولا حديث بالطبع عن القوى غير المتكافئة، والخلل فى

موازين القوى، فلا ميزان للقوى، أصلاً، بينما ثمة مدى واسع غير محدود من الخلل فى التسليح والعدد.

هكذا فُرضت المعركة على أهل جنين، وعندما بدأ الهجوم والاقتحام فجر يوم ٢/ ٤/ ٢٠٠٢، كان فى العقل الجمعى لدى كلا الطرفين هذه الحقائق، فالطرف الأول (الإسرائيلى)، يدرك أنه متخم بكل الوسائل والإمكانات، بينما الثانى (الفلسطينى) يدرك مدى صعوبة وحرج موقفه، ومحدودية السلاح، والعتاد، والطعام، والدواء، ولكنها مع ذلك معركة الوجود أو اللاوجود، والمصير، والشرف.

تسليح الطرفين

القوات الإسرائيلية: مروحيات، وطائرات الكوبرا والأباتشى، وإف ١٦، دبابات ميركافا كأحدث أنواع الدبابات فى العالم، وشتى أنواع المدفعية والصواريخ جو - أرض، والقذائف الانشطارية، والأسلحة المحرمة دوليًا، فضلاً عن كافة أنواع الأسلحة الذكية والغبية الموجهة إلكترونيًا وغير الموجهة.

تسليح الطرف الفلسطينى

أسلحة خفيفة (كلاشينكوف، إم ١٦، كارلو غوستاف)، قنابل الهاون، نصب قنابل (الانيرجا) على الأسلحة الخفيفة(٣)، قاذفات (آر، بى، جى) وتم استخدام عدد محدود منها لعدم فاعليتها ضد شفرات ومصدات الدبابات المحصنة ضد هذا النوع من المقذوفات، تم الاعتماد بشكل أساسى

على العبوات الناسفة والألغام البلاستيكية وزرعها فى كافة أرجاء المخيم بشكل كثيف من أجل إعاقة تقدم واقتحام القوات الإسرائيلية، وإلحاق أكبر قدر من الخسائر بين صفوفه، ومن الوسائل المنتشرة أيضًا لاصطياد الدبابات، والتى ابتكرها رجال المقاومة (الأكواع)، ويتم من خلالها استخدام (أكواع) من البلاستيك المستخدم فى الصرف الصحى، حيث يتم سد إحدى الفتحات بإحكام بمادة صلبة، ويتم حشوه بالمسامير وصخور صلبة والبنزين، والجاز وسد الفتحة الأخرى بقطعة من الفلين، وعمل فتيل اشتعال، وعند إلقائه على الدبابة، ينفجر الكوع ويتم تدمير جنزير الدبابة ويسهل اصطياد أفرادها(٤).

موقعة جنيـن: الدلائل والمؤشرات

ليس من أهداف هذا البحث، الحصر الكامل لكل وقائع وأحداث المواجهات المسلحة، التى وقعت داخل مخيم جنين، فذلك غير ممكن عمليًا، وليس المقصود عملية سرد هذه المعارك والمواجهات، ولكن سوف يتم الحديث عنها، من خلال تأكيد وإيضاح مدى ما يتمتع به الفلسطينى من قدرة على الصمود والتضحية، وما يملكه من عزيمة، وصلابة، ومهارة قتالية وبطولة نادرة، فإذا تغيرت الظروف، وانصلحت البيئة المحيطة به، ولم تجعله أعزلاً، وقدمت له الدعم والسلاح، فسوف يرى الجميع عجبًا، وسوف تنفك كثير من العقد والإشكاليات، بالنسبة له وللدول العربية.

بدأت عملية الاقتحام الفعلى، فجر يوم ٢/ ٤/ ٢٠٠٢، وحشد الجيش الإسرائيلى أكثر من ٢٠ ألفًا من قوات الاحتياط، وأكثر من ٤٠٠ دبابة وناقلة

جنود ومجنزرة(٤)، بالإضافة إلى الدعم والقصف الجوى، واستخدام شتى أنواع المدفعية والصواريخ، كما هو معروف، وفى المقابل اشتعلت المقاومة الضروس، بكل أشكالها وألوانها، لدرجة تعرض خلالها لواء «جولانى»، الذى كان يقود عمليات الاقتحام، إلى خسائر فادحة، أوصلت رئيس الأركان الصهيونى، شاؤول موفاز، إلى قرار بعزل العقيد يونيل ستريك، قائد هذا اللواء العسكرى المكلف بالمهمة، وعين نائبه المقدم ديدى بدلاً منه، وتجرع القائد الجديد مرارة الفشل، فقام شارون بتكليف رئيس الأركان نفسه، بقيادة العمليات العسكرية ضد المخيم، وهو أمر له دلالة كبيرة على مدى شراسة المقاومة، ومدى الصعوبة التى يواجهها الجيش والقيادة الصهيونية.

فى المقابل تم استدعاء المجاهدين من المناطق المحيطة بالمخيم، وانصهر الجميع فى بوتقة واحدة، وملحمة بطولية رائعة، بعد أن ذابت الفروقات، والاتجاهات السياسية، والمدارس الفكرية، وتوحد الجميع تحت لواء فلسطين، فى إطار لجنة التنسيق بين القوى الوطنية والإسلامية، ورفع الجميع شعار «النصر أو الشهادة».

عجز الجيش الإسرائيلى عن اقتحام المخيم، لمدة ثمانية أيام كاملة، واضطر إلى تكثيف القصف الجوى، بالقنابل، والصواريخ، لتدمير المنازل، ودفن السكان تحت الأنقاض، كوسيلة للتغلب على المقاومة الباسلة، ورغم كل آلة الحرب والدمار، فقد حول الفلسطينيون المخيم إلى ساحة حرب حقيقية(٥)، وملعب للبطولة الفذة النادرة، وقاموا فى براعة ومهارة، بتحويل المخيم إلى مصنع كبير لإنتاج العبوات الناسفة، فى الأزقة، والمنازل، وساحات المخيم(١). وقام الجميع بزرع العبوات فى كل زاوية، وعلى كل

مدخل أو زقاق، ووصل الأمر إلى زرع العبوات المتفجرة على أعمدة الكهرباء، وفى السيارات الواقفة، وتلغيم بيوت كاملة متوقع دخول الجنود الصهاينة إليها، مثل بيت الشهيد محمود طوالبة، الذى قتل فيه جنديان وجرح خمسة آخرون باعتراف العدو.

هكذا يتضح بشكل أساسى اعتماد المقاتلين فى جنين على سلاح العبوات الناسفة والألغام، وكان قائد ومهندس هذه العملية هو الشهيد محمود طوالبة، وهو مهندس متفجرات وأحد القادة البارزين فى صفوف المقاومة، والذى مثل استشهاده خسارة كبيرة للمقاومة، وكان يمثل هدفًا رئيسيًا للقوات الإسرائيلية من اقتحام المخيم، كما أعلنوا هم ذلك، وقام عشية الهجوم على المخيم بإعداد أكثر من ألف كيلو جرام من المتفجرات بمفرده، ولقد صرح الدكتور رمضان عبد الله شلح فى حوار مع جريدة الحياة اللندنية(❖). أنه اتصل به قبل الاقتحام بيومين، وقال له: يا محمود هذه معركة طويلة والحرب كر وفر، ابنوا حساباتكم على أنها ليست آخر جولة بيننا وبينهم، فرد محمود الطوالبة بالحرف: «هذه معركة كر وليس فيها فر، وأنا اتصلت مودعًا لأقول لكم إن شاء الله نلتقى بكم فى الجنة».

ومن مظاهر تلك البسالة، أن يتم قتل الرائد عساف أسولين، من وحدة المظلات الجوية، مما أدى إلى تغيير القيادة وإسنادها إلى شاؤول موفاز نفسه، وقد ورد فى خبر من رام الله عن وكالة أنباء الشرق الأوسط(❖❖)، قال مصدر فلسطينى: إن رجال المقاومة قاموا بتنفيذ حكم الإعدام فى أحد عملاء إسرائيل، الذى كان يقوم برش المنازل بمادة تجعلها هدفًا لطائرات الأباتشى الإسرائيلى، وحصلوا منه على هذه المادة، وقاموا برشها على

المواقع التى كانت تتواجد فيها قوات الاحتلال، مما عرضها لقصف الأباتشى، وتكبدها خسائر فادحة.

عن الكمين الشهير الذى قتل فيه ١٣ جنديًا إسرائيليًا، وردت المعلومات على لسان بعض المجاهدين الناجين من المعركة، كما قال الدكتور رمضان شلح - أمين عام الجهاد الإسلامى - حيث كان الكمين مدبرًا بإحكام، عندما بدأ الجيش الإسرائيلى، يحقق بعض الاختراقات داخل المخيم، ويقترب من إحدى النقاط التى يتمترس فيها المجاهدون بقيادة الشهيد محمود الطوالبة، قرر الشباب التوقف عن إطلاق النار، وطلبوا من النساء، أن تخرج من البيوت، وتقول للجيش الإسرائيلى: إن الشباب نفذت ذخيرتهم وغادروا المكان، وكان هناك اتفاق مع إحدى النساء، أن تعطى إشارة للشباب إذا وصل الجيش للمكان المفخخ المزروعة فيه العبوات الناسفة، وفعلاً عندما وصل الجنود إلى مكان المصيدة، أعطت المرأة إشارة إلى الشباب، فقاموا بتفجير العبوات فقتل على الفور ٨ جنود إسرائيليين(❖)، وعندما تقدم جنود آخرون، فتح الشباب نيران أسلحتهم الرشاشة عليهم، فقتل ٥ آخرون، وكانت الحصيلة الفورية مقتل ١٣ جنديًا، وإصابة بضع عشرات آخرين، وارتفع عدد القتلى فى اليوم التالى إلى ١٥.

الشيخ جمال أبو الهيجا، أحد رموز حركة المقاومة الإسلامية «حماس»، ويلقب «شيخ المجاهدين فى جنين»، والذى شارك فى عمليات المقاومة ضد اقتحام المخيم، وفقد ذراعه اليسرى كاملة خلال المواجهات فى مرات سابقة، وفى المرة الأخيرة فقد اثنين من أبنائه، صرح أبو الهيجا فى حوار أجراه معه مركز الإعلام الفلسطينى(٦) «أن أعداد القتلى التى أعلنها العدو بين

صفوفه، وهى ٢٣ قتيلاً، و١٣٠ جريحًا، لم تحتو سوى أسماء اليهود، وأغفلت أسماء القتلى من الدروز، ومن جنود لحد(*)، وتقديراتنا أن الخسائر التى تكبدها العدو أكبر من ذلك بكثير». كما ذكر فى الحوار نفسه، أن أحدًا لم يطلب من أهالى المخيم البقاء، أو الخروج، وترك ذلك لإرادتهم، وفضل الكثير من النساء، والأطفال، والرجال البقاء، وكانت النساء تقوم بتجهيز الطعام للمقاتلين، وتزويدهم بالماء، وما يحتاجونه فى حدود المتاح، وأضاف أنه يتمنى أن يكون ما حدث فى جنين درسًا لكل الجيوش العربية، على أن عشرات من المقاتلين فقط، استطاعوا أن يقفوا أمام أعتى جيش فى المنطقة، وأن تستفيد الشعوب العربية من هذه البطولات، ولا تبقى أسيرة أنظمة، تحرمها أبسط حقوقها.

عجز الجيش الإسرائيلى طوال ثمانية أيام متصلة عن دخول أو اقتحام المخيم، ولم يتمكن من ذلك، إلا بعد نفاذ الذخيرة من المقاتلين، وعندما لم يجد هؤلاء سلاح أو ذخيرة، دخلوا فى صراع مع الجنود الصهاينة بالسلاح الأبيض، وهجموا على الدبابات، يريدون اقتناص أى شىء، ومنهم من فجر نفسه فى دبابات وجنود العدو، وعندما تنفذ الطلقة الأخيرة، فلابد أن تأتى الفرصة لمن تربى على الحقد والخسة، لكى يقيم المجازر والجرائم على أرض الأنبياء.

الاستراتيجية التى اتبعتها القوات الإسرائيلية فى جنين

من قراءة واقع العمليات العسكرية الإسرائيلية، بشكل عام، وفى جنين بوجه خاص، يمكن رصد مجموعة من الملامح والقسمات، التى تشكل

المنهجية التى وضعها الجيش الصهيونى، موضع التنفيذ، ويمكن إيضاحها فى النقاط التالية:

١ - جمعت قوات الجيش الإسرائيلى بين أسلوبين فى الردع، تمثل أولهما فى الردع عن بُعد، باستخدام المروحيات، والمقاتلات، والقصف المدفعى عن بُعد، وهو أسلوب أمريكى، سبق استخدامه فى يوغوسلافيا، وكوسوفا والعراق، وأفغانستان، واستخدمت إسرائيل الردع عن قُرب، من خلال الاجتياح، وممارسة سياسة «الأرض المحروقة» (الأسلوب الأمريكى فى فيتنام)، ثم انسحاب إسرائيلى وهمى، من خلال التراجع من قلب المدينة إلى أطرافها، وتطويقها لكى تقوم بعمليات «كر وفر» كلما اقتضت الحاجة(٧).

٢ - تحقيق ضربات موجعة للمقاومة الفلسطينية، عبر حملات القتل المنظم، والإعدام بالجملة بدون محاكمة، والاعتقال للفئات العمرية ما بين ١٦ - ٥٠ عامًا، وبلغت أعداد المعتقلين - وفقًا للمصادر الفلسطينية - أكثر من ٥ آلاف شاب ورجل، بالإضافة إلى ثلاثة آلاف معتقل، منذ بدء الانتفاضة الفلسطينية(٨).

٣ - شن حرب نفسية، لتحطيم الروح المعنوية للفلسطينيين، من خلال الترويع، وإعادة أجواء نكبة ٤٨، وحتى يشعر الفلسطينيون أن هذه الأرض، لم تعد مكانًا صالحًا للحياة، أو آمنًا للعيش فيه، وتم ذلك من خلال استخدام شتى أنواع الأسلحة، بشكل مبالغ فيه، بالإضافة إلى منهجية التحطيم النفسى عبر إجبار الرجال والشباب على خلع ملابسهم أمام أسرهم، وإهانتهم بالضرب والشتائم والتهديد بالقتل... وصولاً إلى قتلهم



أمام ذويهم، بالإضافة لحالات اغتصاب للنساء والفتيات ارتكبها جنود الاحتلال(٨).

٤ – ضم شارون إلى أعضاء حكومته وزيرًا للترانسفير (التهجير الجماعى)، والترانسفير أحد أهم أولويات حكومته اليمينية المتطرفة، وهذا يفسر إلى حد كبير حجم الدمار الشامل لسائر مظاهر ومقومات الحياة، وكل المرافق والبنية التحتية، واستخدام الجرافات كسلاح فى هدم المنشآت والبيوت على أصحابها، بحيث تسد كل سبل الرزق، ويقع الفلسطينيون تحت ضغط هائل، يفوق القدرة والطاقة البشرية على الاحتمال، وتصبح الحياة مستحيلة، فيجد الفلسطينى نفسه أمام خيارين هما الموت بكل أشكاله أو الهروب من الجحيم.

٥ – ذكر شارون فى مذكراته وأقواله غير مرة، أن وجود فلسطينى واحد على ظهر الأرض، يمثل خطرًا على أمن إسرائيل، وهكذا فإن سياسة الإبادة، والاستئصال، والتطهير العرقى، وتصفية المخيمات، ومحوها من على ظهر الأرض، كما حدث فى مخيم جنين، هى ترجمة عملية للفكر السياسى لمجرم الحرب هذا، تولى الجيش الإسرائيلى مهمة تنفيذها.

٦ – يقول المثل العربى: «من أمِنَ العقوبة أساء الأدب»، لذلك فمن الدوافع القوية لإدارة الآلة العسكرية الإسرائيلية بهذا الشكل، هو الوعى بالواقع العربى والدولى، وغياب أى رد فعل عسكرى أو سياسى، يمثل قيدًا أو ضغطًا على الحسابات العسكرية، ومركز القرار الإسرائيلى، وفى المقابل عدم وجود أى بيئة مساعدة، أو مساندة للطرف الفلسطينى، يمكن أن تقدم له أى شكل من الدعم المادى أو العسكرى.

المنهجية الفلسطينية المضادة

قبل أن تبدأ عمليات الاقتحام الإسرائيلى لجنين، أدرك العقل الجمعى الفلسطينى كل معطيات الواقع، وألمَّ بطبيعة العدو الصهيونى وأهدافه ومخططاته، فضلاً عن طبيعة المعركة، وطبوغرافية الأرض. ومن هنا تبرز أهم ملامح المنهجية والتكتيك للطرف الفلسطينى فى معركة جنين كما يلى:

١ - توحيد كل فصائل المقاومة، ميدانيًا، والتنسيق بين جميع عناصرها، حيث إن السكين فوق أعناق الجميع، فلا مجال لترف الخلاف، وهى نقطة فى غاية الأهمية، أن يكون ضغط الواقع وسيلة لتوحيد الصفوف، ومواجهة الخطر المشترك، وطرح أى خلافات أيديولوجية أو سياسية جانبًا.

٢ - استخدام «الحرب الشعبية»، أو «حرب العصابات»، أو «حرب الشوارع» حيث القتال من بيت إلى بيت، ومن شارع إلى شارع، وهى تعطى فرصة جيدة للفلسطينى أن يوقع أكبر قدر من الخسائر، بالطرف المقابل، وتمثل فى نفس الوقت معضلة للجندى اليهودى، الذى يهاب هذه الحرب ويتحصن وراء مدرعاته ومجنزراته، وهى أيضًا، تضع مشكلة أمام القيادة العسكرية للعدو، الذى بدا واضحًا فى تولى رئيس الأركان قيادة العملية بنفسه.

٣ - الاستغلال الأمثل لطبيعة الأرض، والصبر على سلبياتها، فمساحة المخيم محدودة، لا تتعدى كيلو مترًا مربعًا واحدًا، محاطًا بمجموعة من الجبال، وبالتالى يسهل حصاره، وتطويقه. لكن يلاحظ أن مساحة المخيم

مكدسة بالمنازل عمومًا، أما الشوارع، والأزقة فضيقة، وبعضها ملتو مثل الثعبان، مما يعطى فرصًا كبيرة للخداع، والمناورة، ونصب الشراك الخداعية، وزرع الألغام، وتلغيم بيوت بأكملها، وتفخيخ السيارات، مما صنع فى النهاية، ملحمة بطولية رائعة بكل المقاييس، من الظلم أن يسدل الستار عنها، أو أن تغطى الجريمة على البطولة.

٤ - الاعتماد، بشكل كامل، على القوى الذاتية الروحية، والطاقة المعنوية الهائلة المتولدة من الإيمان والظلم فى وقت واحد، بجوار الإمكانات المادية المتواضعة، دون انتظار أو أمل فى أى عون، أو مساعدة من أحد، فى ظل بيئة إقليمية ودولية جاحدة، أو مانعة.

٥ - الاستعداد النفسى والفعلى لتقديم أكبر قدر من التضحية والفداء، فى سبيل التمسك بالأرض والقضية، وهو ما يُفشل عمليًا مخططات «الترانسفير»، وحرب الإبادة، ويعطى وقودًا ورصيدًا مستمرًا للصراع التاريخى، ويسقط عمليًا كل الدعاوى والشائعات المغرضة التى روجها جهاز «الشاى»(❖)، عن إقدام الفلسطينيين على بيع أراضيهم لليهود، والتى لا يزال يروجها الكثير من الجهلاء العرب حتى الآن.

من المنتصر ومن المهزوم؟

بعد كل ما جرى من أحداث فى مخيم جنين، وما تم تسطيره بدماء الشهداء، فى ملحمة تاريخية كبرى، يقابلها أكبر جريمة فى العصر الحديث، وهو ما شاهده العالم كله بالصوت والصورة، لابد من طرح التساؤل عن من

الذى انتصر، ومن الذى انهزم فى هذه الواقعة؟

قد يبدو من الوهلة الأولى لأصحاب النظرة السطحية للأمور، أن يبادر أحد الأفراد، ويقول: لقد انتصر الجيش الصهيونى ومحا مخيم جنين من الوجود، وأباد السكان وشردهم، على أن النظرة العميقة الموضوعية، تبين خلاف ذلك، تمامًا، لقد عجز أعتى جيش فى المنطقة عن دخول مخيم للاجئين، يقاتل فيه بضع عشرات من المقاتلين، طوال ثمانية أيام أو يزيد. ولم يتمكن من الدخول، إلا بعد نفاذ الطلقة الأخيرة.

عندما يقاتل الفلسطينى حتى الرمق الأخير فى بيئة معاكسة تمامًا، جعلته أعزل من أى دعم سواء إمداد، أو سلاح، أو جيش فى مواجهة آلة عسكرية جبارة وعاتية بهذا الشكل فقد انتصر، وعندما يقبل الفلسطينى على القتال والشهادة وهو متشبث بأرضه، وحقه، فهو قد انتصر لقضيته وأمته، وأفشل مخططات التهجير والترانسفير، المعدة سلفًا.

من حقنا أن نتساءل، عند نفاذ الطلقة الأخيرة، مَنْ المسئول عن نفاذ الطلقات؟ إن المسئول عن نفاذ الذخيرة هو الفاشل والمهزوم، أما الأعزل الشجاع، فقد انتصر، بكل المقاييس، بعد أن أدى ما عليه من واجب وتضحية.

يعلم خبراء العسكرية والحرب بأن النصر، دائمًا، لمن يصمد فى الحرب، ولمن لديه القدرة على الصبر والتحمل، والاستعداد للتضحية، وبذل الدماء. ونحن نعتقد بأن الفلسطينى قدم أروع الأمثلة فى ذلك، وهو ما يمثل سمات مهمة للشخصية الفلسطينية، وقدرات ومؤهلات تمكنه، عبر الأجيال

المتتابعة، من مواصلة فصول الصراع التاريخى مع الصهاينة، والمطلوب أن تتبدل الظروف ويعى العرب والمسلمون كيف يمكن توظيف واستثمار تلك القدرات، والصفات البطولية الفذة وإتاحة الفرصة لها، ووضعها فى بيئة طبيعية تسمح بالنصر والإنجاز، ومن مفردات تراثنا العريق القول المأثور: «اعلم أن النصر مع الصبر». ولقد ضرب الفلسطينى أروع الأمثلة، ووصل إلى أعلى المستويات من الصبر فى مواجهة الكوارث والمحن.

عن الذى انهزم، لا يمكن لعاقل أن يقول بأن الجيش الذى يقتل الأطفال قد انتصر، ولا يجوز القول بأن الجندى، الذى يغتصب المرأة أو الفتاة، قد انتصر، كما لا يمكن الادعاء بأن جيشًا جرارًا، يهجم على مجرد مخيم، لعدة آلاف من اللاجئين العزل المعدمين، ويعجز عن اقتحامه إلا بعد ثمانية أيام مبيدًا كل مظاهر الحياة فيه، قد انتصر أو حقق نصرًا عظيمًا، أو مؤزرًا، سوف يسجل فى صفحات تاريخه العسكرى، لا يمكن الادعاء بذلك، إلا فى عصر اختلال القيم، وانعكاس كل معقول.

لقد فشل الصهاينة فى قتل إيمان الفلسطينى بعدالة قضيته، وفى انتزاعه من أرضه، وفى تهجير شعبه إلى البلاد المجاورة، ولقد فشل الصهاينة فى مواجهة البطولة ببطولة، وكل ما استطاعوا أن يفعلوه أن يواجهوا البطولة بالجريمة، وهنا لا يليق بالنصر، وهو معنى سام، أن يأتى لجندى خسيس، بل النصر فى انتظار أبناء وأحفاد هؤلاء الشهداء. وكل ما هنالك مجرد ضباب تاريخى، ودخان باطل، يحاول أن يحجب الحقائق الناصعة عن العيون والعقول، ولابد له أن يزول. ولقد قال الله سبحانه

وتعالى: ﴿وأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض﴾ صدق الله العظيم.

لقد خلد اليابانيون ذكرى هيروشيما وناجازاكى، عند إلقاء القنابل النووية عليهما، وخلد الروس ذكرى ملحمة «ليننجراد» و«ستالينجراد» فى الحرب العالمية الثانية، عندما دار القتال من شارع إلى شارع، فى مواجهة جيوش النازى، وكل الأمم والشعوب تخلد ملاحمها، ونحن أحق من الجميع بتخليد ملحمة جنين، التى شهدت بطولات، تصل إلى حد الأسطورة، التى يدهش لها التاريخ، والأمل أن تظل هذه الملحمة مودعة فى ذاكرة الأمة.

وبعد، فقد جاء المدد إلى مخيم جنين، عبر عمليات استشهادية جسورة.

○○○

الهـوامـش

(١) من نص حوار مع د. رمضان عبد الله شلّح - الأمين العام لحركة الجهاد الإسلامى - **الحياة** (لندن) ٣٠/ ٤/ ٢٠٠٢م.

(٢) طارق فهمى: «خطة الجدار الواقى وضعها ضباط الـ CIA» **آفاق عربية** (القاهرة) ١١/ ٤/ ٢٠٠٢م.

(٣) محمد عبد الله: «متى تتحول الانتفاضة إلى ثورة مسلحة؟»، **الأسبوع** (القاهرة) ٨/ ٤/ ٢٠٠٢م.

(٤) مصطفى بكرى، ومحمود بكرى: («جنين» ملحمة الصحابة الجدد ضد كفار العصر)، **الأسبوع** (القاهرة) ١٥/ ٤/ ٢٠٠٢م.

(٥) **المرجع نفسه**.

(❖) نص الحوار فى جريدة «**الحياة**» ٣٠/ ٤/ ٢٠٠٢م، والدكتور رمضان شلح - الأمين العام لحركة الجهاد الإسلامى فى فلسطين.

(❖❖) نقلاً عن **أخبار اليوم** (القاهرة) ٢٧/ ٤/ ٢٠٠٢م.

(❖) نفس الحوار السابق فى «**الحياة**» ٣٠/ ٤/ ٢٠٠٢م.

(❖) هم جنود أنطوان لحد - قائد جيش جنوب لبنان العميل لإسرائيل - الذين فروا لإسرائيل بعد تحرير الجنوب.

(٦) نص الحوار، فى جريدة «**آفاق عربية**» (القاهرة) ٢٥/ ٤/ ٢٠٠٢م

(٧) إبراهيم قاعود، «الحصاد المر.. كشف حساب اجتياح شارون للأراضى الفلسطينية» **آخر ساعة** (القاهرة) ٢٤/ ٤/ ٢٠٠٢م ص ١٠، ١٢.

(٨) **المرجع نفسه**.

(❖) «**الشاى**» هو جهاز الاستخبارات الصهيونى القديم، قبل عام ٤٨، والذى ورثه «الموساد» فيما بعد، وكان له فرع قوى فى مصر، روّج إشاعة بيع الفلسطينيين للأراضى، لكى يحدث بلبلة بين الجماهير، وكذلك داخل السلطة المصرية، لكى لا ترسل قوات للحرب فى فلسطين.

ooo



قد يتساءل البعض: «ما الذى يدفع إنسانًا لأن يضحى بما تبقى من عمره؟ وكيف يقوى على اتخاذ مثل هذا القرار؟» لكن إذا تلخصت إجابة السؤال الأول فى ثلاث كلمات فحسب هى: «فى سبيل تحرير الوطن» هانت إجابة السؤال الثانى، هنا يطفو سؤال مشروع: «لماذا العمليات الاستشهادية بالذات؟» فهى تعنى تحول الجسد إلى قنبلة موقوتة، تنفجر فى وجه العدو، بمجرد أن تلمحه، ولا تقتصر التضحية هنا على الرجل دون المرأة، أو الفلسطينى دون غيره من أبناء وطنه العربى الكبير، صحيح أنه حتى الآن الاستشهاديون هم من الفلسطينيين، إلا أن الدلائل تشير إلى أن الاستشهاديين القادمين من العرب، ويكفى إحصاء طلبات آلاف المتطوعين للاستشهاد على أرض فلسطين، وسقوط أول شهيد مصرى دفاعًا عنها، عند بوابة صلاح الدين الحدودية الفاصلة بين رفح المصرية، والفلسطينية.

ويبقى السؤال: «لماذا العمليات الاستشهادية؟».

تهدف العمليات الاستشهادية إلى تعويض غياب الدعم العربى، بالإضافة إلى الميل الواضح فى ميزان القوى لصالح العدو الصهيونى، ومحاولة رأب الصدع فى الوحدة الوطنية الفلسطينية، وتذبذب القيادة الفلسطينية.

لكن السؤال الأخير: لماذا جنين بالذات التى تعرضت للاجتياح والتدمير؟ لن نقول لأنها معقل المقاومة الشرسة التى استطاعت كسر أنف العدو الصهيونى، أو هو أكثر مخيمات الضفة الغربية تقديمًا لعدد الشهداء والاستشهاديين، بل يكفى أنها البقعة التى استشهد بالقرب منها عز الدين القسام، رامى بذرة الكفاح المسلح فى فلسطين.

ظــافـــر كميـــل

لم يولد فى فلسطين، ولكنه نال شرف الشهادة على أرضها يوم ٢٩ من آذار/ مارس ٢٠٠٢، إنه «ظافر الشهادة» ظافر محمد كميل الذى ولد فى جبل المنارة إحدى ضواحى العاصمة الأردنية عمان عام ١٩٧٥، وبعد أن توفى والده عام ١٩٩٣ انتقل للعيش فى مسقط أمه بلدة «قباطية» شرق جنين الباسلة، وعمل فى محاجر البلدة لسنوات كثيرة، كما اعتاد إلقاء دروس أسبوعية فى مسجد صلاح الدين، وفى عام ١٩٩٥ تم اعتقاله لمدة عشرة أشهر فى سجن «مجدو»، بتهمة القيام بنشاطات تنظيمية وتحريضية، وأعيد اعتقاله فى العام التالى، بالتهمة نفسها لمدة ثلاثة أشهر، فضلاً عن ذلك اشتهر «ظافر» بحبه للرياضة، فكون فريق قباطية الإسلامى الرياضى من شباب البلدة، أما عن نشاطه الوطنى، فقد انضم لحركة المقاومة الإسلامية حماس، واشترك فى الكثير من العمليات، خاصة زرع العبوات الناسفة فى طريق السيارات الصهيونية على الطرق الالتفافية، كما قام باشتباكات مسلحة عدة، وفى يومه الموعود كُلف وزملاؤه بزرع عبوات ناسفة، واشتبك مع مجموعة مع الجنود الصهاينة، ليسهل على زملائه الانسحاب من مواقعهم التى كانوا يزرعون فيها العبوات، فأُصيب برصاصة فى الفخذ، وأخرى فى الخاصرة، وثالثة فى القلب، واستشهد بالقرب من بلدة الزبابدة.

لم يكن ظافر أول استشهادى من «قباطية»، فقد سبقه قائد كتائب عز الدين فى جنين، إبان الانتفاضة الأولى محمد عساف، فضلاً عن أخيه صالح محمد كميل الذى استشهد قبل ظافر بأسبوعين.

آيات الأخرس

مثل كل أبناء وطنها المحتل، حلمت ببركة ماء وبستان، وظل شجرة على أرض محررة، وسماء زرقاء دون إف ١٦، لكنها استيقظت على اجتياح وفتك، وقتل، ودمار، وغياب الضمير.

مثل كل صباح انطلقت آيات الأخرس ذات الستة عشر ربيعًا إلى مدرستها، فاليوم جمعة، ولديها حصص إضافية لتعويض ما فات من دروس بسبب الحصار، وفى الصف انشغلت آيات بورقة تخط بها بضع كلمات، ولم تجب على تساؤلات صديقاتها عما فى الورقة تلك.

أنهت يومها الدراسى، وافترقت عن زميلاتها متعللة بعمل يجب إنجازه قبل العودة لمنزلها فى مخيم الدهيشة، وتركتهن، بعد أن ودعتهن الوداع الأخير، وأسرعت الخطى نحو شهادتها.

بعد ساعات وصلهن الجواب، فقد اقتحمت آيات أحد المتاجر فى مستعمرة «كريات يوفيل» بالقدس المحتلة، وفجرت جسدها الطاهر، لتقتل اثنين من الصهاينة، وتصيب ثلاثة وعشرين آخرين، مخاطبة الحكام العرب الذين أنهوا قمتهم قائلة: «كفاكم تخاذلاً»، أما صديقاتها فى مخيم الدهيشة القريب من بيت لحم، فقد أطلقن الزغاريد، ووزعن الحلوى، مرددين كلمات آيات: «لا أمن لمحتل فوق أرض فلسطين، لا للذل والمهانة والركوع» فالمقاومة قالت كلمتها، فيما أكد والدها بأنهم فخورون بهذه التضحية، التى تحمل رسالة للعدو، بأن كل شاب، وطفل، وفتاة فى فلسطين، سيذيقه الويل والعذاب.

شــادى طوباســى

من كلمات وصيته: «ليعلم شارون وجنوده أن شعبنا لن يرجع، وسيبقى يقاوم، حتى تحرير أرضنا وأقصانا ... وليعلم أيضًا أن هناك مئات الاستشهاديين ينتظرون» ناصحًا أبناء شعبه: لا تترددوا فى السير على طريق المقاومة والشهادة التى طلبها، فنالها.

ولد شادى زكريا الطوباسى عام ١٩٧٨ فى بيت شيمته النضال، استشهد بعض أفراده، واعتقل البعض الآخر، بل كان منهم محاولة استشهادية سابقة لم يكتب لها النجاح، درس شادى فى مدارس مخيم «جنين» التابعة لوكالة الغوث، حتى أكمل المرحلة الإعدادية، ثم التحق بسوق العمل مع والده فى الأرض المحتلة عام ١٩٤٨، وخاصة حيفا، فأتقن العبرية، وحصل على هوية تخول له الدخول إلى أراضى ١٩٤٨، لكون والدته من قرية «مقيبلة»، التابعة لجنين والواقعة داخل أراضى ١٩٤٨، وفى عام ١٩٩٧ اعتقل فى سجنى شطة والفارعة، وكذلك شقيقه الأكبر رضا الذى اعتقل عام ١٩٩٣ لمدة ثمانية أشهر بتهمة الانتماء لحركة حماس، ورغم هذا لم يكن شادى الاستشهادى الأول من العائلة، فقد سبقته محاولة ابن عمه سمير عبد الفتاح من «سرايا القدس» الجناح العسكرى لحركة الجهاد الإسلامى، والذى تحزّم قبل ثمانية أشهر من استشهاد شادى يوم ٣١ من آذار/مارس ٢٠٠٢، وانطلق داخل أراضى ٤٨ لتنفيذ عمليته، إلا أنه تم الاشتباه فيه مما أدى لاعتقاله، كما تم اغتيال ابن عمته مجدى أبو الطيب، أحد قادة كتائب شهداء الأقصى فى مخيم جنين مع الشهيد عكرمة استيتى بعد أن تم تفخيخ سيارتهما التى انفجرت وسط المخيم أثناء تحليق طائرة صهيونية فى

سمائه، كما استشهد صديق عمره ورفيق دربه «نضال الجبالى» قبل عام من هذا التاريخ.

«جلست على شرفة بيتى قرب المطعم، وفجأة سمعت دويًا لم أسمع مثله فى حياتى، ورأيت كل شىء بعده ينهار مرة واحدة»، هكذا أفاد أحد الصهاينة بعد أن قام شادى بعمليته المجيدة، فقد كانت الخطة المُعدَّة لشادى أن تكون وجهته إلى المجمع التجارى «جراند كنيون» أكبر المجمعات فى مدينة حيفا، ولكن منظر المطعم المجاور له، والذى كان يعج بالصهاينة استفز شادى، خاصة وأن المجمع التجارى وقتئذ كان تحت حراسة أمنية شديدة نسبيًا.

وفى لمح البصر دخل شادى مطعم «ماتسة» فى حوالى الساعة الثالثة، وبعدها بلحظات انفجر البركان، وتناثرت أشلاء الصهاينة موقعًا ستة عشر قتيلاً، وأربعين مصابًا.

إلهــام دســوقى

على الدرب نفسه سارت إلهام على درب من سبقوها، وفاء، آيات، وغيرهن آتين فى الطريق؛ ليلقن العدو درسًا فى النضال، الذى يرضعه كل فلسطينى، شاب، فتاة، شيخ، أو حتى طفل من مخيم جنين الباسل، سارت إلهام على أول طريق التحرير، مثل غالبية المقاومين الذين على استعداد لتفجير أنفسهم فى العدو الصهيونى.

ففى وقت متأخر من ليل ٥ من نيسان/ أبريل ٢٠٠٢ اقتحمت قوات صهيونية أحد المنازل على أطراف المخيم، تسللت إلى المنزل، وفجرت نفسها

لتقتل اثنين من جنود الاحتلال، وتجرح ستة آخرين، سائرة - حسبما أعلنت «كتائب شهداء الأقصى» - على خطى ناصر عويس - قائد الكتائب فى نابلس - الذى فجر نفسه فى جنود الاحتلال أثناء تصديه لهم فى البلدة القديمة بنابلس، قبل ساعات من استشهاد إلهام الدسوقى، وقتل وأصاب منهم ثمانية على الأقل.

عنـــدليـب

سنرجع يومًا إلى وطننا المحتل، أخبرنا العندليب يوم ٢٠٠٢/٤/١٢، أو عندليب خليل طقاطقة ابنة العشرين ربيعًا، التى اتخذت قرارها، وسارت على طريق وفاء إدريس، وآيات، وغيرهن بتفجير جسدها الطاهر على «مذبح القضية الفلسطينية، كما فعل الكثيرون قبلى، وسيفعل الكثيرون بعدى» كما قالت: «اخترت أن أقول رسالتى إلى الزعماء العرب العاجزين عبر عجزى»، مضيفة: «إنها تقوم بعمليتها انتقامًا لضحايا جنين، ومعاناة شعبها فى المدن الفلسطينية المختلفة، ومثل كل يوم، انطلقت من بيتها فى قرية بيت فجَّار جنوب بيت لحم إلى العمل الذى التحقت به، بعد أن تركت الدراسة، واتجهت نحو القدس الغربية، وبالتحديد شارع يافا، ليس من أجل التسوق والتنزه، لكن من أجل الاحتجاج بطريقتها الخاصة، حيث تنكرت فى هيئة سيدة حامل، وكان جنينها كمية من المتفجرات، وحاولت دخول مركز «ماهانى يهودا» التجارى، ولكنها وجدته تحت حراسة مكثفة، فعادت إلى محطة الأتوبيس فى الشارع نفسه لتقف بين منتظرى الأتوبيس رقم «٦»، وما أن وصل حتى فجرت عندليب جنينها الذى تحمله، فكسرت أنف المحتل، وأرسلت الرد إلى وزير الخارجية الأمريكى كولن باول، الذى أعلن أنه لم

يتلق ردًا محددًا من السفاح شارون فى شأن مدة الهجوم الإسرائيلى فى الضفة، فكانت عملية العندليب التى كذبت ادعاءات شارون عن قرب نجاح عملياته العسكرية فى القضاء على المقاومة الفلسطينية.

لعل رسالة عندليب ورفاقها تصل العدو أينما كان، رسالة الفداء والتضحية، والمقاومة، وإذا كانت عندليب قتلت تلك المرة ستة صهاينة، وأصابت أربعة وخمسين فقط، فالرسائل القادمة ستكون مكلفة للعدو أكثر، حتى إذا أطل علينا الرئيس الفلسطينى من سجنه، وأدان عملية العندليب وغيرها، لعله يحصل على البراءة والإفراج.

الاستشهادى القادم

«أرغب أن أستشهد أريد أن أفجر الإسرائيليين، لقد ذبحونا .. إن لم أجد أبى وأخى، يعنى الإسرائيليين قتلوهما، ماذا سأفعل؟ لا أدرى لقد شاهدنا الجرافات الإسرائيلية وهى تجرف الشهداء، فإن كانا من بينهم فكيف سأجدهما؟ لا أعرف، أنا أقول إنهما ميتان، أنا سأقتل الإسرائيليين، سأقتل الجنود، أمى وأختى طوال الوقت تبكيان، أريد أن تبكى أيضًا أم وأخت الجندى، ثم أضاف جملته الأخيرة «لقد عذبونا كثيرًا .. أريد أن أستشهد، أريد أن أستشهد».

فويل لإسرائيل من استشهادى قادم، بل جيل وراءه أجيال مقاومة، دلت عليها كلمات «حسام» ابن مخيم جنين الباسل، وذو الثمانية أعوام الذى كان محاصرًا، شاهد عيان على أبشع مذابح القرن الواحد والعشرين مرددًا قول الشاعر:

وطنى لا تحزن عيناك

ذاك الشبل، رآك صورة على الجدران

فطال شوقه لرؤياك

وحالت السكين بين قلبه وهواك

وطنى لا تستعجله عيناك

فشبلك أقسم أن يختصر إليك الزمان

فانتظره وطنى، يا وطن الإنسان

فما كان لمغتصب المكان أبدًا

أن يغتصب منه الزمان

وشبلك ذاك، أضحى هو الزمان

لكن عدو الأمة لم يكتف بأشرس آلة عسكرية ضد شعب أعزل، بل عمد هذا العدو إلى الجريمة، كعادته.

ooo

الفصل الخامس

الجريمة

م. خالد عبد المنعم عبد الحميد

اندفعت الآلة العسكرية الصهيونية إلى جنين فى ٣/ ٤/ ٢٠٠٢ لاقتحام مخيم جنين، الذى يأوى ما لا يقل عن (١٣) ألفًا من اللاجئين الفلسطينيين، بينهم عدد غير هين من أفراد المقاومة الفلسطينية، وقد استغلت السلطات الصهيونية انصراف أنظار العالم نحو رام الله، حيث الحصار المفروض على الرئيس الفلسطينى ياسر عرفات، فحاولت القضاء على عناصر المقاومة فى جنين، فى وقت مبكر من حملتها العسكرية على مدن الضفة الغربية، والتى بدأت منذ ٢٠٠٢/٣/٢٩، فكانت تلك بداية المأساة فى مدينة الجنائن القديمة.

بدأت الحملة العسكرية الصهيونية على جنين، باندفاع الدبابات نحوها عبر ثلاثة محاور مع مساندة جوية من مروحيات الآباتشى، وقد جوبهت قوات الاحتلال بمقاومة فلسطينية عنيفة، أفشلت خمس محاولات اقتحام صهيونية حتى يوم ٢٠٠٢/٤/٣، وأكدت المقاومة الفلسطينية - التى تتحصن فى المخيم المحاصر - بأنها لن تسمح باحتلال المخيم، إلا فوق جثث أفرادها، وأنها لن تنسحب، على الرغم من علمها نية الصهاينة باقتحام المخيم(١).

تمكنت المقاومة الفلسطينية من صد محاولات الاقتحام، محاولة تلو الأخرى، فما كان من قوات الاحتلال إلا أن فرضت حصارًا قاسيًا حول المخيم، لمنع وصول الذخائر للمقاومين، ولم يقتصر الحصار على الجانب العسكرى فحسب، بل تم منع دخول المواد الغذائية والأدوية وسيارات الإسعاف، كما تم قطع المياه عن المخيم، ومع عجز قوات الاحتلال عن اختراق المخيم - فى البداية - اتجهت إلى تدمير مقار السلطة الفلسطينية فى المدينة، كما دمر صاروخان مبنى المكتبة العامة فى المدينة، وصيدلية

تدميرًا كاملاً فى ٢٠٠٢/٤/٤، وهو اليوم نفسه الذى تمكنت فيه المقاومة الفلسطينية بالمخيم من إعطاب «٦» آليات عسكرية لقوات الاحتلال(٢)، ومع تكرار سقوط قتلى فى صفوف قوات الاحتلال، ثم تغيير القيادة العسكرية للقوات التى تهاجم المخيم، فعُزل القائد السابق - أيال شلاين - وتولى رئيس أركان الجيش الصهيونى شاؤول موفاز بنفسه قيادة العمليات فى مخيم جنين، كما تم الزج بكتيبة كاملة من وحدات النخبة «جولانى»(٣).

بعد تسعة أيام من صمود مخيم جنين، نفدت ذخيرة المقاومين الفلسطينيين فى المخيم، فتمكنت القوات العسكرية الصهيونية من اقتحام المخيم، وقد أصر الصهاينة على ارتكاب مذابح مروعة فى المخيم؛ لتخوفهم أن تغدو جنين رمزًا جديدًا، يضاف إلى رموز الصمود الفلسطينى، ولهذا فقد توجب على الصهاينة تحطيم فكرة المقاومة، التى تجسدت عمليًا فى أحداث حصار المخيم، فكان ما كان من مجازر صهيونية فى مخيم جنين.

المذابح والشهود

تنوعت الجرائم الصهيونية فى مخيم جنين من القتل العمد للعزل، إلى الاعتقال العشوائى بطرق مهينة، وتعذيب المعتقلين، وصولاً إلى منع وصول الأغذية والدواء للمحاصرين والمصابين، ومنع تسليم جثث الشهداء لذويهم، والقصف العشوائى والمنظم للمنازل والمبانى المدنية، وليس أبلغ من وصف للمذابح فى جنين، من شهادة للضحايا، وشهادة أفراد، يعتبرون شهود عيان على الجريمة الصهيونية.

● **شهادة خضرة سمارة (٣٣) عامًا**: بدأ البلدوزر بتحطيم منزلها ليلاً «شارع الروابى» وكانت مجموعة من النساء والأطفال تحتمى بهذا المنزل،

الذى حطم طابقيه الثانى والثالث صاروخ إسرائيلى، وقد نبهت المجموعة الجنود إلى وجودها بداخل المنزل، فتوقف الهجوم مؤقتًا إلى أن استأنف من جديد، فجر اليوم التالى فهدم البلدوزر جدران غرفة النوم، حيث كان الأطفال نائمين، وحاولت خضرة القيام بهجوم فدائى ضد الجنود، باستخدام أسطوانة الغاز المنزلية، إلا أن ابنتها منعتها من التنفيذ، وفر الجميع من المنزل حين بدأ فى الانهيار، واتجهوا للاختباء فى منزل آخر، فتكرر السيناريو نفسه فى المنزل الثانى، فاختبأوا بمنزل ثالث لقى نفس مصير سابقيه.

● **شهادة رياض غالب (٢٨) عامًا**: عدد المنازل التى تم تدميرها كبير جدًا، وقد أطلقت مروحية صواريخها على منزل جيرانه؛ لأن ثلاثة جنود صهاينة قد قتلوا - فيما سبق - فى منزل قريب، وأطلقت دبابة نيرانها على الصبى الفلسطينى فارس «١٣» عامًا؛ لأنه تجرأ على الاقتراب منها رغم رفع حظر التجول، فقتل الصبى على الفور.

وجاء فى شهادة عصام الفشافشة: أطلقت دبابة نيرانها على منزل يقطنه بعض أقاربه، ثم هدم بلدوزر المنزل فوق جثث الضحايا لشق طريق يسمح بمرور الدبابة، وقد قتل فى هذا الحادث أحمد الفشافشة «٥٠» عامًا، وزوجته سميرة، وابنهما هشام، وأصيب ابناهما الآخران «١١» عامًا، و«١٣» عامًا إصابات متفاوتة الخطورة.

● **شهادة ريما زايد (١٥) عامًا**: أثناء جلوسها فى المنزل مع والدها وشقيقها أصيبت برصاصة فى صدرها، وفتحت مروحية النار على رجل كان فى الشارع يحاول إعادة شحن هاتفه الخليوى من بطارية سيارته(٤).

• **شهادة تمام رجا**: كانت ترتعد تحت غطاء نومها فى المنزل، فى الوقت الذى تعالت فيه صرخات الألم والاستغاثة من منازل جيرانها، إثر إطلاق المروحيات الإسرائيلية صواريخها، نحو مجموعة من المنازل، ثم أصيب زوج ابنتها برصاص قناص صهيونى، أثناء وقوفه فى غرفة بالطابق الأعلى فى المنزل نفسه، واستمر ينزف لعدم وجود أية أدوات، أو مساعدات طبية، حتى دفن حيًا تحت أنقاض المنزل، عندما أطلقت المروحيات صواريخها عليه، وقد استطاعت تمام وزوجها وبعض أطفالهما الفرار من المنزل قبل انهياره، وحاولوا الخروج من المخيم ضمن مجموعة ترفع الرايات البيضاء، إلا أن الجنود الصهاينة - رغم إدراكهم التام لكون هذه المجموعة من المدنيين العزل - أطلقوا النار على المجموعة، فتفرق المدنيون للهرب، ولم تر تمام زوجها منذ تلك اللحظة.

• **شهادة محمد على** (١٧) **عامًا**: كان يختبئ مع أسرته فى مطبخ المنزل (أقوى جزء فيه) حين بدأ القصف، وعندما خاطر بإخراج رأسه من النافذة للاطلاع على ما يحدث بالخارج رأى خمس جثث (بينهم طفل صغير) بين ركام مبنى منهار جراء القصف الصهيونى.

• **شهادة محمد أبو سامن** (١٥) **عامًا**: أطلقت المروحيات «١٤» صاروخًا على منزله، وأجبر الجنود جميع السكان - الذين فروا إلى الشارع - ممن يزيد عمرهم عن «١٥» عامًا على خلع ملابسهم، ويقول محمد: إن الجنود اقتادوه كدرع بشرى، لتسهيل دخولهم إلى المنازل المجاورة، وحين سمح له الجنود بالعودة إلى منزله وجد أنهم قطعوا رؤوس كل طيور الكنارى والعصافير الأخرى التى كان يقوم بتربيتها.

● **شهادة الممرض أسعد خشاش:** رأى بعينيه قناصًا صهيونيًا يقتل شيخًا، يبلغ عمره حوالى «٧٠» عامًا، كان قد خرج لتوه من باب منزله، ليرى الشمس لأول مرة منذ عدة أيام، ورأى قناصًا آخر يقتل راعيًا للغنم، وفى كلتا الحادثتين لم يُسمح لسيارات الإسعاف بالعمل، أى أن المصاب يترك لينزف حتى الموت(٥).

● **شهادة فتاة:** لاحظت عمليات دفن ينفذها الجنود الصهانية فى قرية نباطين، وقد أبلغت الفتاة من قرية أبو كف داخل حدود فلسطين المحتلة ١٩٤٨ مسؤولاً فلسطينيًا، رفض الكشف عن هويته أو عن هوية الفتاة، ولكنه أضاف أن الفتاة أخبرته أن الجنود الذين قاموا بسحب الجثث، كانوا يرتدون قفازات، ويغطون أقدامهم بالغطاءات البلاستيكية، وكانت الفتاة خائفة للغاية.

● **شهادة النائبين العربيين بالكنيست الإسرائيلى أحمد الطيبى، ومحمد بركة:** هناك إشارات تصل يوميًا تؤكد محاولات السلطات الصهيونية إخفاء جريمة حرب، ومجازر ارتكبت فى جنين، وقد تقدم النائبان بطلب إلى محكمة العدل العليا الإسرائيلية لاستصدار قرار بمنع نقل جثث الفلسطينيين من المخيم، كما صرح وكيل وزارة الصحة الفلسطينية، منذر الشريف، أن عدد الشهداء فى المخيم لا يقل بأية حال من الأحوال عن «٥٠٠» شهيد، فى الوقت الذى لم تصل فيه إلى المستشفيات سوى «٢٣» جثة فقط(٦)، كما أن هناك أنباءً - من مصادر إسرائيلية موثوق بها - أن قوات الاحتلال تنوى دفن الجثث فى منطقة نائية، خاضعة لسيطرة قوات الاحتلال، بغور الأردن، تحت لافتات تحمل أرقامًا، بدعوى أن الجثث لأفراد مجهولى الهوية، وهى طريقة قديمة اتبعها الصهاينة فى حرب ١٩٦٧، ثم فى

الاجتياح الصهيونى للبنان عام ١٩٨٢، كما أشارت شهادات بعض الصحافيين إلى مقبرة جماعية، حفرت بوسط المخيم، وطمرت بعد دفن الجثث فيها.

● **شهادات بيار بابارنسى - وهو صحافى فرنسى بجريدة لوماتينيه - وقد أدلى بشهادته فى حوار لوكالة أنباء «فرانس برس»:** قام جنود الاحتلال بحفر فجوة واسعة بوسط المخيم، يوم ٢٠٠٢/٤/١٤، لدفن عدد غير هين من جثث الضحايا الفلسطينيين، وأضاف أن وسط المخيم بات يشبه برلين عام ١٩٤٥، نظرًا لحجم التدمير الفظيع، وقال: شممت رائحة الجثث، وشاهدت أكوامًا من النفايات، وحشرات، وظروفًا صحية مريعة، وأطفالاً متسخين، ونساء يصرخن وهن يحملن أطفالهن، ونقصًا فى مياه الشرب، وانقطاعًا للأغذية والحليب الضرورى للأطفال، وقد قضى الصحافى يومين لدى أسرة فلسطينية بالمخيم، وشاهد الدمار الكامل فى ساحة الحواشين، ولاحظ أن الدمار فى القسم الفوقى للمخيم أقل منه فى القسم السفلى، الذى دمر تدميرًا كاملاً؛ وأضاف أنه رأى «فى مبنيين مختلفين» جثة محترقة بالكامل، وجثتين تحت الركام والأنقاض(٧).

كما أكدت مصادر فلسطينية أنه تم العثور على «١٤»» جثة تحت أنقاض أحد المنازل، من بينها جثة الشهيد محمود طوالبة - أحد قادة سرايا القدس، الجناح العسكرى لحركة «الجهاد الإسلامى» - إلى جانب جثث عدد من عناصر كتائب عز الدين القسام - الجناح العسكرى لحركة حماس - وكتائب شهداء الأقصى التابعة لحركة فتح، ويعد هذا دليلاً جديدًا، يضاف إلى الأدلة الدامغة على جرائم الحرب الصهيونية فى جنين، ومخيمها(٨)، وذكر شهود عيان بأنهم شاهدوا جرافات إسرائيلية تحمل شاحنات كبيرة،

بداخلها جثث لشهداء فلسطينيين، وقد تم نقل الجثث إلى جهة غير معلومة، كما لاحظ مراسلون صحفيون تسللوا إلى داخل المخيم، عدم وجود أى ذكور أحياء، حيث إنهم قد اعتقلوا أو قتلوا(٩).

• **شهادة الممرضة لقية تومى:** لم يكن بوسعها أن تشاهد ما يحدث خارج المنزل إلا من خلال ثقب فى الباب، وقد رأت من خلاله جارها يُقتل بالرصاص، وهو رافع ذراعيه استسلامًا، وامرأة طاعنة فى السن تسقط برصاص القناصة الصهاينة، واستطاعت لقية أن تنقذ طفلة تائهة فى الشارع من موت محقق، حين تسللت من المنزل لتحمل الطفلة بعيدًا عن أعين الجنود الصهاينة، وقد فرت لقية فى اليوم الأول للهجوم على المخيم، من مركز صحى تابع للأمم المتحدة، بحثًا عن الأمان فى منزل أحد أقاربها، وشاهدت رجلاً يسير فى الشارع ممسكًا ببطنه، ولم يكن مريضًا، بل كان يصيح «لقد ضربونى بالرصاص» وذلك رغم كونه مدنيًا غير مسلح.

• **شهادة بهاء عوض (٢٠) عامًا - موظف فى الإسعاف:** فى الأيام الأولى للغزو، أمر الجنود إحدى الأسر بالخروج من المنزل، فخرجت الأسرة تاركة ابنًا معوقًا بالمنزل، فما كان من الجنود إلا أن أمروا البلدوزر بهدم المنزل فوق هذا الابن وقد كان(١٠).

كما ذكرت عناصر من العاملين فى الصليب الأحمر الدولى، والهلال الأحمر الفلسطينى، أن المخيم قد تحول إلى ساحة تلمؤها الحجارة جراء هدم المبانى، وأضافوا بأنه من الواضح أن الصهاينة سيقومون بإبادة الأسرى الفلسطينيين، من المقاومين أثناء الحصار الصهيونى للمخيم، قبل سقوطه(١١)، وقد تأكد هذا بالفعل فى الأيام اللاحقة، وزاد عليه أن الصهاينة أبادوا أيضًا عددًا من المدنيين «لم يتم تحديده بدقة بعد».

وذكر شهود عيان أن الجنود قد حفروا خندقًا لدفن جثث الشهداء الفلسطينيين، ممن تم قتلهم بعد الأسر، سواء من عناصر المقاومة، أو من غير المسلحين، أو من ضباط الأمن الفلسطينى، ويؤكد ذلك ما جاء فى شهادة هند على عويس «٥٠» عامًا: شاهدت ضابط أمن فلسطينى، وهى تعرفه جيدًا، ويدعى «أبو جندل»، وقد قيد الجنود الصهاينة يديه خلف ظهره، ثم قتلوه فى الشارع رميًا بالرصاص(١٢).

● **شهادة شابين سويديين، إريك الجرس، وإيدا فاستين:** كان نشاطهما فى البداية يقتصر على الوقوف بالقرب من الحواجز الإسرائيلية الأمنية لضمان عدم حدوث اعتداءات على الفلسطينيين من قبل الجنود، فى ظل وجودهما كمراقبين تابعين لما يسمى «منظمة التضامن» ثم تحول نشاطهما بعد الغزو الإسرائيلى فى ٢٠٠٢/٣/٢٩ إلى تهريب الأدوية للمخيمات، ونقل الجرحى للمستوطنات، والأهم من ذلك تأدية دور الدرع البشرى للعائلات الفلسطينية فى مواجهة الجنود الصهاينة.

وقد ذكر الشابان أن نحو (٥٤٨) مُبعدًا فلسطينيًا فى قرية رمانة بالقرب من جنين قد تعرضوا لأبشع أنواع التعذيب، وعندما طلب أحد المعتقلين كوبًا من الماء، بال فوقه الجنود الصهاينة.

● **وأضافا شهادة عن فلسطينى يدعى خالد محمد (٣٢) عامًا** كان مع عائلته عندما اقتحمت الدبابات مخيم جنين، فهدم الصهاينة منزله، واقتادوه كدرع بشرى أمام دبابة بعد أن شتموه، وشتموا إسلامه، وحذرهم خالد أمام أحد المنازل من أن المنزل يأوى أربعة أطفال، فلم يأبه الجنود وفتحوا نيرانهم على المنزل، ثم قاده الجنود إلى حاجز سالم، حيث أبقوه

ممدًا على بطنه، عاريًا لمدة أربعة أيام.

• **وأضاف الشابان أيضًا شهادة عن حنون وليد حسن (٤٢) عامًا يعمل فى** منطقة الأنروا: عندما اعتقله الجنود الصهاينة أبرز لهم بطاقته التابعة لمنظمة الأمم المتحدة، فكان ردهم أن كل موظفى الأنروا عناصر فى حزب الله، ثم انهالوا عليه ضربًا، وأخبروه أن يرسل تحياتهم إلى كوفى عنان! وذكر الشابان أن علامات التعذيب كانت واضحة على وجه حنون وظهره(١٣).

• **شهادة أبو بشير:** دمر صاروخ أحد المنازل المجاورة لمنزله، وهو منزل عائلة أبو الهيجا فى حى الجورة بالمخيم، فهربت العائلة قبل تدمير المنزل، عدا أحد أفرادها .. أشرف «٢٦» عامًا فمات حرقًا.

شهادة أبو محمد: أحرق صاروخ منزله، وتمكن من الهروب مع عائلته من الحريق، إلا أن الجنود الصهاينة بالخارج أمروهم بالعودة إلى المنزل، ثم أخرجوهم بعد فترة، وانتقى أحد الجنود أبا محمد وابنه؛ ليستخدمهما كدرع بشرى بعد تقييدهما، واستمر هذا الإذلال لساعات طويلة، حتى طردهما الجنود خارج جنين، فذهبا إلى قرية برقين، تاركين خلفهم باقى أفراد أسرتهما، ولقد لقى عشرات الأطفال الفلسطينيين فى جنين مصيرًا مشابهًا، حيث يوجد عدد كبير من الأطفال فى القرى القريبة من جنين، لا يعرفون مصير أهلهم وذويهم.

شهادة عبد الله الوشاحى: كان مع أمه وشقيقيه فى منزلهم، حين اخترق الرصاص الإسرائيلى نوافذه، فأصيب شقيقه منير برصاصة فى كتفه، ومع عدم السماح لسيارات الإسعاف بالدخول إلى المخيم، نزف منير حتى

استشهد، فحاولت الأم أن تطلب من جندى صهيونى السماح بإحضار سيارة إسعاف لحمل الجثة، فما أن فتحت الباب حتى أطلق الجندى الرصاص عليها، فاخترقت رصاصة رأسها، واستشهدت على الفور، ثم اقتحم الجنود المنزل، وأجبروا عبد الله وشقيقه الباقى على الخروج.

● **شهادة عذراء حسين نجم (٤٢) عامًا:** لم يكن الجنود الصهاينة بشرًا، إلا أمام كاميرات التليفزيون الإسرائيلى؛ حيث يتحدثون مع الأسرى بلطف، ويحضرون الحلوى للأطفال، وبخلاف وجود هذه الكاميرات، فقد كانوا شياطين يرفضون حتى إطعام الأسرى(١٤).

● **شهادة خولة شلبى:** كان زوجها هاربًا من قوات الاحتلال، فجاء إلى المنزل لحمايتها وحماية أطفالها ووالدها وشقيقها، وثلاثة شبان من أقاربها، ثم اقتحم الجنود المنزل، وهزأوا من والدها، أثار غضب شقيقها الذى طالب الجندى بالكف عن التهكم، فما كان من الجندى إلا أن أطلق رصاصة قاتلة على صدره فقتل الشقيق، ثم واصل الجندى إطلاق النار، حتى أجهز على الوالد والشبان الثلاثة.

وقد ذكر شهود عيان أن المعتقلين الفلسطينيين يعاملون بأساليب لا إنسانية من قبل الجنود الصهاينة، بدءًا من طرق الضغط النفسى المختلفة، وتوجيه الإهانات القاسية، إلى منع وصول الدواء للمعتقلين، إلى الضرب المبرح بدعوى الاستجواب، وصولاً إلى إصابة أحد المعتقلين بالشلل، نتيجة قطع وتر عصبى فى جسده، بعد أن تشوه وجهه من الاعتداءات الصهيونية عليه، وذلك على الرغم من أنه لا ينتمى إلى أية حركة سياسية(١٥).

● **وجاء فى شهادة كل من محمد ساعدى (٢٢) عامًا، وعز أبو سارية (٤٢)**

عامًا، **وكمال طلب** (٤٣) **عامًا**، تأكيد على إطلاق الجنود الصهاينة النيران والصواريخ على المنازل، واستخدامهم المدنيين الفلسطينيين كدروع بشرية(١٦).

● **شهادة بهاء الدين أبو الحسن**: اقتحم الجنود الصهاينة منزله أثناء اختبائه مع والديه، وباقى أفراد أسرته، وسألهم الجنود عن معرفتهم أية معلومات حول المقاومين الفلسطينيين، فأجابوا بالنفى، فتمركز بعض الجنود فى المنزل وانتقل آخرون لمنزل مجاور، يخص سيدة تدعى عفاف دسوقى، وهى مسنة ومريضة، وتتحرك ببطء، وحين تأخرت فى فتح باب المنزل، اقتحمه الجنود بتفجيره، وقد عثر على جثة السيدة ممزقة بالشظايا، بعد عشرة أيام من تاريخ الحادث.

● **شهادة دمج**: قُتل جار لها «يعانى من إعاقة ذهنية» حين عجز عن مغادرة المنزل قبل أن تدكه الجرافة، ويدعى حسن أبو حطب، وهو أب لثلاثة أطفال.

● **شهادة هنية كبيسة**: فقد الجنود الصهاينة صوابهم، بعد تكبدهم خسائر فى الأرواح أثناء حصار المخيم، فحين اقتحم الصهاينة المخيم، كانوا يطلقون النار بطريقة مجنونة، وقد ألقى الجنود قنبلة على رجل يسير فى الشارع فقتلوه، وتطايرت شظية لتقتل فتاة تدعى رانيا زايد «١٥» عامًا أثناء جلوسها فى غرفة المعيشة بمنزلها(١٧).

الأعداء شهدوا أيضًا

● **شهادة منظمة «بتسليم» وهى المنظمة الأساسية لحقوق الإنسان فى**

إسرائيل، عبر المتحدث الرسمى باسمها ليئود يبنى، حيث أوضح أن استخدام الدروع البشرية تعكس رغبة الجيش الإسرائيلى فى تخفيض ضحاياه إلى أقل حد ممكن، بغض النظر عن الثمن الأخلاقى، وأضاف أن استخدام الدروع البشرية يطبق بنفس الطريقة التى تطبق بها الجوانب الأخرى لعملية اقتحام جنين ومخيمها، مثل منع سيارات الإسعاف، ومنع المساعدات البشرية لنفس الأسباب المعلنة، وهى ادعاء أن السيارات يمكن استخدامها فى حمل الأسلحة، أو نقل المقاتلين الفلسطينيين(١٨).

• **شهادة جندى احتياطى صهيونى «رفض ذكر اسمه»:** صدرت إليه الأوامر من قائده باستخدام الفلسطينيين لإجراء عمليات تفتيش، وفتح الأبواب، طبقًا لإجراءات محددة، وأوضح الجندى أن الجنود عندما ينتقلون من منزل إلى آخر، فإنهم يطلبون من صاحب المنزل الأول أن يذهب إلى مسكن الجار ويدق عليه الباب(١٩).

• **شهادة جيرالد كوفمان: (أحد أبرز الساسة اليهود فى البرلمان البريطانى)**؛ وتعتمد عليه إسرائيل بصفة مطلقة، فى تأييد الحكومة البريطانية لمواقف إسرائيل العنصرية: إنه لطخ نجمة داود بالدماء، وارتكب أعمالاً همجية، قالها كوفمان ليعبر عن رأيه فى شارون، مطالبًا بمحاكمة من ارتكبوا هذه الجرائم اللاأخلاقية، وعلى الرغم من إسرائيلية توجهات كوفمان البريطانى فإنه قد أجهش بالبكاء عند مشاهدته - مع أسرته - لشريط فيديو يصور ما يقوم به ضابط إسرائيلى أثناء إخراج أسرة من منزلها، حيث عذب أفرادها فى الشارع، بعد إجبارهم على خلع ملابسهم، واستمرت اعتداءات الضابط حتى مات الأطفال، واحد تلو الآخر، وبعد الانتهاء من قتل جميع أفراد الأسرة (ثمانية أطفال والأب والأم)، أمر إحدى

الدبابات بالمرور فوق الجثث لتمزيقها، وطمس عظام أصحابها وتسويتها بالأرض(٢٠).

● بالإضافة لشهادات الأعداء فقد شهد الأمين العام للصليب الأحمر الدولى، **وجاء فى شهادة جورجين بولسين: أن** حجم الدمار والرعب والتخريب الذى شاهده، كان أفظع مما تسببه الزلازل، وقال: إنه لا يستطيع أن يُصدِّق أن يكون ما حدث قد تم على أيدى بشر، واتهم الصهاينة بخرق معاهدة جنيف، برفضهم السماح بوصول المواد الغذائية، وسيارات الإسعاف لعدة أسابيع متصلة، وأضاف أن جنود الاحتلال رفضوا السماح بوصول الحفارات إلى المخيم، لانتشال الجثث من تحت أنقاضه(٢١).

خاتمة

أغرب التعليقات على الجريمة الصهيونية، جاءت على لسان قطبى الحكومة الإسرائيلية، وزير الخارجية شيمون بيريز، ورئيس الوزراء إرييل شارون، فقد صرح بيريز بأن عدد القتلى الفلسطينيين من غير المسلحين والذين ماتوا عن طريق الخطأ فى جنين ومخيمها لا يزيد عن ثلاثة فلسطينيين.

أما تعليق شارون فقد جاء أكثر جنونًا، حيث تساءل: «أين زوجتى منى الآن (توفيت زوجته منذ فترة) لترى بعينيها الجميلتين ما تفعله يداى»؟!

هذه التصريحات ليست غريبة على الصهاينة، فأول أمس كان الجد يذبح فى دير ياسين، وبالأمس كان الابن يقتل ويدفن الأسرى أحياء فى حرب ١٩٦٧، واليوم الحفيد يحرق فى جنين ومخيمها.



الأنكى أن قائد وحدات الاحتياط التى دمرت مخيم جنين، العقيد إيال لاين، أوصى لجنة منح الأوسمة فى الكيان الصهيونى منح أوسمة لسائقى الجرافات الذين هدموا منازل المخيم(٢٢).

لكن هناك فارقًا كبيرًا بين دير ياسين وجنين، فاليوم ليس شبيهًا بالبارحة، على الرغم من تشابه دماء الضحايا، وتشابه أيدى القتلة، إلا أن الأولى دير ياسين أعقبها خوف فلسطينى هائل، أدى إلى فرار الفلسطينيين العزل من العديد من المدن والقرى الفلسطينية، مما سهل من مهمة الصهاينة فى اقتحام هذه المدن، والاستيلاء عليها فى حرب ١٩٤٨، أما الثانية جنين فقد صاحبها وأعقبها صمود مشرف للفلسطينيين فى مواجهة أحدث أنواع الأسلحة الأمريكية فى الجيش الصهيونى.

إذا كان صحيحًا أنه «لولا دير ياسين لما قامت دولة إسرائيل»، على حد تعبير بن جوريون، فإنه يحق لنا أن نقول: «من جنين ولدت فلسطين الحرة».

وبعد، فإذا كانت الهجمة العسكرية للعدو الصهيونى وجرائمه الاستثنائية فى المخيم قد تمت، فإن ثمة أداءً سياسيًا، قبع وراء تلك الهجمة وهذه الجرائم.

○○○

الهوامش

(١) تقرير إخباري، «المقاومون الفلسطينيون يفشلون خمس محاولات لاقتحام جنين، **الحياة**، (لندن) ٢٠٠٢/٤/٤، ص١.

(٢) http://www.**asharqalawsat**.com/pcdaily/5-04-2002/news/ 5,4,2002,012.html.

(٣) تقرير إخباري «يوم المجازر الطويل»، **الحياة**، (لندن) ٢٠٠٢/٤/٧، ص١.

(٤) http://www.**asharqalawsat**.com/pcdaily/13-04-2002/news/ 13,4,2002, 006. html.

(٥) , http://www.**asharqalawsat**.com/pcdaily/14-04-2002/new/14 ,4 .2002, 018. html.

(٦) http://www.**asharqalawsat**.com/pcdaily/ 14-04-2002/news/ 14,4,2002,019. html.

(٧) تحقيق إخباري، «شهادة صحافي فرنسي عن مخيم جنين»، **الحياة** (لندن) ٢٠٠٢/٤/١٥، ص١.

(٨) http://www.**asharqalawsat**. com/pcdaily/11- 04- 2002/news/11, 4, 2002, 012, html.

(٩) تقرير إخباري، «استشهاد ٣ فلسطينيين بينهم قائد لحماس»، **الأهرام** (القاهرة)، ٢٠٠٢/٤/١٥، ص٨.

(١٠) http://www.**asharqalawsat**.com/pcdaily/16- 04-2002/news/ 16, 4, 2002, 013,html.

(١١) تقرير إخباري، «مخيم جنين: قصة صمود حتى الاستشهاد»، **الحياة** (لندن) ٢٠٠٢/٤/٩، ص١.

(١٢) http://www.**asharqalawsat**.com/pcdaily/20 - 04 - 2002/news/20, 4, 2002, 009. html.

(١٣) تحقيق إخباري، «شهادة شابين سويديين»، **الحياة**، (لندن)، ٢٠٠٢/٤/٢٢، ص٥.

(١٤) تحـقـيق إخـبـاري، «جنين: من هنا مـر شـارون»، **الحـيـاة، ملحق الوسط**، (لندن) ٢٢-٢٠٠٢/٤/٢٨، ص٤-٧.

(١٥) **المصدر نفسه**.

(١٦) http://www.**asharqalawsat**.com/pcdaily/11-04/2002/news/11, 04, 2002, 013,html.

(١٧) http://www.**asharqalawsat**.com/pcdaily/22- 04- 2002/news/22, 4, 2002, 028, html.

(١٨) http://www.**asharqalawsat**.com/pcdaily/22- 04- 2002/news/22, 04, 2002, 029. html.

(١٩) **المصدر نفسه**.

(٢٠) تحقيق إخباري، «شهادات على أكبر مجزرة إنسانية، نابلس، قصص مروعة بلون الدم»، **الأسبوع**، (القاهرة) ٢٠٠٢/٤/٢٢، ص٨.

(٢١) تقرير إخباري، «ما حدث في جنين أفظع من التخريب و الزلازل»، **الأهرام**، (القاهرة) ٢٠٠٢/٤/٢٣، ص١.

(٢٢) **يديعوت احرونوت**، ٢٠٠٢/٤/٣٠.

ooo

الفصل السادس

أصداء مذبحة جنين في الصحف الإسرائيلية

د. عاصم محمد على حسنى

فى محاولة مكشوفة للتغطية على جرائم الحرب والمجازر التى ارتكبها الجيش الإسرائيلى فى جنين، نفت شارون فيتجولد - المتحدثة باسم الجيش الإسرائيلى - الاتهامات الموجهة للقوات الإسرائيلية بارتكاب فظائع، حيث قالت: «إن الجنود بذلوا ما فى وسعهم لتجنب وقوع خسائر بين المدنيين فى مخيم جنين»(١).

ولقد وصف جندى إسرائيلى ما يجرى فى مخيم جنين بأنه «حرب شعواء»، حيث نقلت عنه صحيفة «يديعوت أحرونوت» قوله: «الذى يحدث هنا فى جنين هو حرب غير متكافئة، حيث تطلق النار على الجميع، ودون تمييز فى كل اتجاه»(٢).

وأصدرت السلطات الإسرائيلية أمرًا عسكريًا، يخول أى ضابط إسرائيلى، جيشًا كان أم شرطة، السلطة فى اعتقال أى فلسطينى لمدة ثمانية عشر يومًا، بدون السماح له بأن يلتقى بمحام، طوال هذه الفترة، وعلى الرغم من استمرار إسرائيل فى عدوانها الوحشى على مخيم جنين، فقد نقلت الإذاعة الإسرائيلية العامة عن الجنرال رون كتيدى - المتحدث باسم الجيش - قوله: «إن المعارك العنيفة التى يخوضها الجيش الإسرائيلى فى جنين قد تنتهى قريبًا»!!

تحدثت صحيفة «يديعوت أحرونوت» عن معارك دامية فى أزقة جنين، حيث تقوم القوات الإسرائيلية بعمليات، منذ الثالث من نيسان/ أبريل الحالى(٣).

وفى حديث مع رئيس الوزراء الإسرائيلى، إرييل شارون، أجراه الكاتب السياسى دان شيلون، ونشر بجريدة «معاريف»، أوضح شارون «بأن إسرائيل تعيش معركة صعبة ومستمرة، حيث إننا نواجه عدوًا شرسًا، ومعركة قاسية أمنيًا وسياسيًا»، وأردف قائلاً: «إن هناك ثمنًا لإقامة حكومة وحدة وطنية، ولكن فى النهاية تتخذ القرارات وفقًا للأغلبية»(٤).

وفى خطاب للشعب الإسرائيلى، أعلن شارون فى الأول من نيسان/ أبريل ٢٠٠٢، بأنه «منذ يوم أمس تخوض إسرائيل، عمليًا، حربين بصورة متزامنة، الأولى هدفها اعتقال مطلوبين، وجمع أسلحة، وجمع معلومات عن مراكز القوة الفلسطينية، وهى تستدعى إرسال قوات مكثفة، والسيطرة على مراكز المدن، والمراهنة عليها محدودة، ونتائجها مؤقتة ونسبية، بعد عشرات السنين من مثل هذه الحروب أصبحنا نعرف أن كل قيادة تهدم، تبنى من جديد، وكل منظم انتحارين يعتقل يبقى خلفه منظمًا جديدًا، ومع ذلك هذه عملية عادلة، وضرورية، وإذا كانت الولايات المتحدة الأمريكية قد ذهبت حتى أفغانستان من أجل القضاء على البنى لتنظيم (القاعدة)، يجوز لنا أن نذهب حتى قلقيلية، إن العدو الأساس للجيش فى هذه الحرب ليس الفلسطينيين، بل هو الوقت»(٥).

يقول عكيفا الدار: «وفى هذا الوضع فلا غرو أن لدى الكثيرين فى أوساط (معسكر السلام) تكون المشاعر أكثر نشاطًا من الفعل، فمن يهمه اليوم إذا كان باراك قد عرض على الفلسطينيين حقًا الخطة التى لو كنا

نحن محلهم لما رفضناها، والتنازلات الأليمة لشارون ينبغى للفلسطينيين أن يتعرفوا عليها من التكثيف المتواصل للمستوطنات فى غوش قطيف، ولكن لغرض النقاش، لنفترض أن حملة (سور واقٍ) هى اضطرار لا مفر منه، ولنفترض، أيضًا، أنها انتهت بانتصار إسرائيلى مظفر، فالجيش الإسرائيلى يلقى القبض على كل المطلوبين والانتحاريين المحتملين يقررون العيش، وبمعنى آخر أن يلقى باتفاق أوسلو، الذى أساسه دولتان للشعبين إلى سلة قمامة التاريخ، وماذا بعد؟ حسب خطة شارون، بعد أن يسود الهدوء التام فى إسرائيل، وفى الضفة الغربية، ستقترح الحكومة على الفلسطينيين اتفاقًا انتقاليًا طويل المدى، وإذا كانوا محظوظين، ولم يكن رئيس الوزراء القادم، بنيامين نتنياهو، سيكون ممكنًا الحديث عن دولة مستقلة تقع فى جيوب فى أقل من نصف مساحة الأرض، وبالمقابل يتعين عليهم التوقيع على كتاب تنازل نهائى عن القدس، وعن حق العودة، والإبقاء فى يد الجيش الإسرائيلى السيطرة على معابر الحدود، والمجال الجوى، ومن المسلم به أن يكون حق اليهود مصادرة الأراضى، والتمتع بالامتيازات فى كل موقع فى الضفة الغربية، وحتى فى اليمين، يعرفون بأن الفلسطينيين بعد أن رأوا (أرض الميعاد)، لن يضعوا سلاحهم جانبًا، كى يعطوا شرعية لخطة تخلد مكانتهم الدون، وعديمو الأخلاق والمسيحانيون بين رجال اليمين يلوكون فكرة الطرد النكراء، وأناس نزيهون فى هذا التيار مثل الحاخام يوئيل من نون، بقوا بلا حيلة، وكل ما تبقى للحاخام أن يقترحه هو أن (نأكل الفطير والمرير تتذكر المعجزة، نشتكى، نيأس، ونؤمن)، وصايا الحاخام من نون، كما

يتضح لا تعمل لدى الفلسطينيين، وحقيقة أن اثنين من مهندسى أوسلو، وزير الخارجية شمعون بيريز، ومدير عام وزارته آفى جيل، يسعيان إلى طلب تأييد العالم لسياسة هدم أوسلو، تعمق اليأس لدى الكثيرين من محبى السلام فى النخبة الفلسطينية، ممن أملوا بحل سياسى نزيه، والبعض يقترح هجر الكفاح فى سبيل الدولة، ورفع علم أبيض، ومطالبة إسرائيل بمنح كل سكان الضفة الغربية حقوقًا متساوية، والباقى تصنعه الديموجرافيا، إن من لا يكون مستعدًا، الآن، يترك العمليات، والملتزمون يغلقون الطريق فى وجه السلام، يمكنه أن يجد بارقة أمل فى مقال نشرة الأسبوع الأول من نيسان/ أبريل، فى مركز الدراسات الفلسطينية فى واشنطن، المحامى جوناثان كتّاب (عن القدس) ود. مبارك عوض، الذى أبعد من هناك، إذ روج للعصيان المدنى غير العنيف، يكتبان أنه خلافًا للاحتلال فى جنوب لبنان، فإن الكفاح الفلسطينى المسلح غالبًا ما يفسر، فى نظر الإسرائيليين، كتهديد على وجود إسرائيل نفسها، وضد هذا التهديد يطرحون جبهة موحدة، ويقاتلون دون صلة بالثمن، وعدد الضحايا».

ويدعو المكافحان عن حقوق الإنسان إلى استبدال العنف بتجنيد قوى السلام فى إسرائيل وفى العالم، فى عمل سياسى وإعلامى غير عنيف، يوجه ضد الاحتلال فحسب، وهما، أيضًا، يدركان أنه طالما بقى الفلسطينيون يقتلون إسرائيليين فى المقاهى، فإن متزمتى الشعبين سيواصلون قيادتنا، بالتأكيد نحو الهاوية ما بعد الانتصار(٦).

وفى جريدة «معاريف» نشر مقال لـ «دان مرغليت»، فى الأول من نيسان/ أبريل ٢٠٠٢، تحت عنوان: «حرب شارون ضد الفلسطينيين عادلة، ولكن يجب أن ترافقها خطة سلام»، تقول مرغليت: «ظهر إرييل شارون، ولمدة خمس دقائق على شاشة التليفزيون للحديث عن الدم، الدموع، العرق، فى خطاب لن يتوج بهالة تشرشل، إنه لا يستحق ذلك، ولكن مضمون أقوال شارون كان إشكاليًا، منذ أن انتخب، بذل المستطاع من أجل استئناف وقف إطلاق النار، أبدى ضبط نفس، وسحب الجيش من المدن الفلسطينية، وتعاون مع أنتونى زينى، وديك تشينى، وبالمقابل لم يحصل سوى على الإرهاب، هذا هو الطابع المعيب للسلطة الفلسطينية، لقد رد على إيهود باراك، والذى عرض عليه تنازلات أكثر من غيره، بإعلان الانتفاضة، وعلى بادرة المصالحة التى عرضها شارون، ردت السلطة الفلسطينية بتصعيد العنف، والآن، وفى الوقت الذى يغلى فيه الدم، على ضوء زيادة العمليات الانتحارية الفتاكة، التى يقوم بها الفلسطينيون، لا يوجد خيار، يجب مقاتلتهم، وبمنتهى القوة، لا يمكن أن تتدفق سيول الدم من الجانب الغربى فحسب لخط المواجهة، قد يحدث أن يمس الجيش الإسرائيلى الأبرياء، ولكن ليس قصدًا، الإرهاب الفلسطينى عمدًا، يمس الأبرياء فحسب، وأنا غير مقتنع بأن استخدام الجيش من قبل الحكومة يجرى بالوسائل الصحيحة، المروحيات والدبابات هى صور ضارة فى التليفزيون الغربى، ولكن ثمة إحباط موضعى (إسرائيل تفاخرت به)، وثمة أيضًا وسائل».

قال زئيف شيف فى «هآرتس»: «إن ثمة دوائر أمنية تعتقد أن أقارب عائلة وجيران الانتحارى لا يستطيعون مواصلة العيش تحت زيتونتهم، وشجرة التين، هذه فقط واحدة من الإمكانيات، وثمة غيرها الكثير، ولقد وصف شارون عرفات بأنه عدو، وأشار إليه كمدبر أساس للعنف، هذا بالتأكيد مبالغة، ولكن الوصف الأساس الصحيح أن عرفات يتحمل مسئولية فعلية، إنه يرسل القتلة، ويغسل يديه، كما لو أنه ليس له ضلع فى هذا الفعل المقيت، ويشجب أعمالهم بالإنجليزية، لو كنت مكانه لكنت قد سارعت إلى قراءة كتاب حاجى سيخال (إخوة أعزاء)، وهكذا وصفت المنظمة اليهودية، والتى أخذت القانون بيدها، ومست، فى سنوات الثمانين، الفلسطينيين الأبرياء، وحسنًا فعلت السلطات حين اعتقلت المجرمين، وحكمت عليهم بالسجن لفترات طويلة، الواقع تغير: عرفات هو تقريبًا صاحب السلطة والسيادة حين يقتل رجاله يهودًا لا يقوم باعتقالهم، وإذا فعل ذلك تحت ضغط شديد، فإنه يستخدم، فورًا، الباب الدوَّار، ويخرجهم من السجن، فى اللحظة التى تغيب فيها العين الإسرائيلية عن غرفة المعتقل، كذلك إسرائيل لا تستطيع أن تضع بوابات دوارة فى سجونها، وأن تشجب الإخوة الأعزاء الذين سينهضون فى المستقبل، مثلما يتحفظ عرفات عن قتلة التنظيم، أنا لا أقترح ذلك، لا سمح الله، ولكن بالتأكيد أقترح على عرفات الحذر من التدهور إلى هذا الوضع، على إسرائيل أن تقاتل ضد العنف الفلسطينى»»(٧).

ويقول ناحوم يرنباع، فى جريدة «يديعوت أحرونوت»: «شارون يريد

تصفية عرفات بطريقة ملتوية، وتفريق دمه بين القبائل»، يقول ناحوم: «منذ يوم أمس تخوض إسرائيل حربًا عادلة وضرورية، وكل يوم صور من الاحتلال كل يوم صور من الدبابات، قبالة النساء والأطفال، يزيد من الضغط الدولى على الحكومة، شارون يعرف أنه يعيش على الوقت الضائع، إنه يؤمن، كما يبدو، أنه حصل من الأمريكيين على عشرة أيام، هذا ما يوجد، وهذا الزمن سيقل إذا أصابت دبابة بالخطأ أطفال مدرسة، والحرب ضد عرفات كلما استمر السيرك حول حصار عرفات فى رام الله، كلما قصر الجدول الزمنى للجيش الإسرائيلى فى المدن الأخرى، وفى هذه الأثناء يتجند كل من تهمه مصلحة عرفات فى العالم لبذل جهود الإنقاذ، يقترح ممثل الأمم المتحدة، تيرى لارسن، عليه ممرًا حرًا إلى الخارج، ذهابًا وإيابًا. وعرفات هو البطل وهو الضحية، ثمة إغراء كبير للقول لشارون: هيا يا إريل، هيا اضربه، صفِّه، أبعده، لا تبك، قائلاً: إنك أخطأت، حين وعدت بوش لعدم المس به، لا تبك أمامنا بأنك أخطأت بعدم قتله فى عام ١٩٨٢، كل ما يجب أن تفعله الآن هو أن تصدر أمرًا لمقاتلى وحدة (٥١) التابعة لجولانى، والذين احتلوا المقاطعة، وستهدأ البلاد أربعين سنة، أو أن يستمر العنف، إضافة إلى امتداد الحرب إلى الحدود الشمالية، وتدير أمريكا لنا ظهر المجن، وتقطع مصر والأردن العلاقات معنا، وتحترق المراكز اليهودية فى العالم، هذا سيكون صعبًا، ومع ذلك سيكون لنا عزاء واحد، سنعرف أننا جرَّبنا فى النهاية، نهاية الأمر ما يقترحه علينا اليمين، ولكن شارون ليس مغفلاً: بدل أن يتخذ القرار، ويقف خلفه، يفضل أن يصل إلى عرفات

بصورة ملتوية، وإذا نجح فإن الإنجاز سيكون من حقه، وإذا فشل، فإن الذنب يقع على الجيش، وعلى أمريكا والتى ضغطت، وعلى الإعلام الذى طعنه بسكين فى ظهره، يوجد الكثير من المذنبين فى هذه البلاد، ولكن لا يوجد مسئولون»(٨).

وعن مذبحة جنين، وفى حوار مع أحد الجنود للتليفزيون الإسرائيلى، قال: إنه لا يستطيع حتى الآن أن ينسى منظر الأطفال الفلسطينيين، وهم يتدافعون عليه، وعلى زملائه، مما دفعه إلى قتل أكثر من طفل منهم، وكشف الجندى مأساة خطيرة، حيث اعترف بأن الأوامر التى أعطيت له ولزملائه كانت تقضى بضرورة قتل هؤلاء الأطفال؛ لأنهم يمثلون خطورة كبيرة على حياة الإسرائيليين، مما أصابه هو وزملاؤه بأمراض نفسية، وكوابيس مزعجة، تؤرقه كل ليلة(٩).

وفى لقاء بين شارون والجنود المجندين، والذين طلبوا لقاء شارون عقب مذبحة جنين، وتحت عنوان «يوميات الحرب فى معسكرات الجيش»، رصدت جريدة «معاريف» ما حدث فى اللقاء بين شارون والجنود «تساءل الجنود إلى متى سنظل نقتل الأطفال؟ وما هدف ذلك؟ وفوجئ شارون بأحد الجنود يندفع إليه قائلاً: «لقد قمت بقتل أطفال، وهدم منازلهم عليهم، وكان بإمكانى ألا أفعل، ولكنى أجبرت على فعل ذلك، وإن كنت لا أعرف ما الهدف من ذلك؟»(١٠).

وأجاب شارون: «إننا نحارب الإرهاب، ونبحث عن الأسلحة، التى يخبئها

الفلسطينيون» انفجر الجنود فيه غاضبين: «نحن لم نجد أية أسلحة، والإرهاب الذى تتحدث عنه يقوم به الفلسطينيون، عندما نطلق عليهم النيران، بشكل عشوائى، وفى النهاية نحن الذين ندفع الثمن»!

ووجه الضباط والجنود رسالة احتجاج وتمرد، وخاصة المجندات فى السلاح النسائى، حيث طالبن بالانسحاب السريع من المناطق الفلسطينية، وإلا فإنهن سوف يعلن التمرد، وأعلن الجنود لجريدة «يديعوت أحرونوت»: «بأن الوضع أصبح متأزمًا، خاصة بعد ما حدث فى مخيم جنين، حيث اعترف الجنود بأن ما حدث كان مثل مذبحة صبرا وشاتيلا، تنفيذًا لأوامر شارون، وأردف الجنود بأنهم أجبروا على فعل ذلك من قبل قادتهم، وأنهم تعرضوا للتوبيخ، والبعض تعرض للتعذيب، والجميع، فى النهاية هددوا بالمحاكمة العسكرية، ومن جانب آخر فقد وجد شارون نفسه يواجه مأزقًا داخليًا، لم يتعرض له من قبل، ولذلك فقد بدأ فى محاكمة عدد من القيادات داخل الجيش، والذين يتزعمون حركة الانسحاب والتمرد(١١).

وأمر شارون بحملة اعتقالات واسعة للجنود وضباط الجيش المتمردين، حيث طلب الكنيست الموافقة على استدعاء جنود احتياط، يبلغ عددهم حوالى ٣٠ ألف جندى باسم وزير الدفاع بنيامين بن اليعازر، كما قام باستدعاء ابنه عمرى ضمن جنود الاحتياط، فى محاولة لتجميل صورته أمام الرأى العام الإسرائيلى، وانتقد الخبراء السياسيون الأمر برمته، حيث اعتبروها محاولة ساذجة لخداع الرأى العام، وإيهام الشعب الإسرائيلى بأنها

حرب مقدسة. وقال الخبراء السياسيون: إن شارون ينوى الاستعانة باليمين الدينى، وأكدت جريدة «معاريف»، على يد كاتبها المعروف دونى ثقة: إن فى إسرائيل حوالى مائة ألف يهودى، يوصفون بأنهم (طلاب معاهد دينية يهودية عليا)، تقوم الدولة بدفع رواتبهم طوال حياتهم، ويطلقون عليهم لقب (حريديم)، إلا أن هؤلاء الذين كانوا يرفضون الخدمة فى الجيش، قد تحولت مفاهيمهم تمامًا للالتحاق بالجيش من أجل متسلط على الدولة، وتوجيه سياستها الخارجية(١٢).

وذكر بنيامين بيريز، وهو سائق فى شركة على موقع للإنترنت: «مؤسف حقًا ما حدث، وما زال يحدث من أبنائنا الضباط والجنود، والذين وقعوا على رسالة تفيد بعدم رغبتهم فى الخدمة بالجيش الإسرائيلى، وهو ما أثار ردود فعل واسعة داخل إسرائيل، والملاحظ أن الرسالة التى وجهها الضباط للقيادات الأمنية، يعلنون فيها عن رفضهم الخدمة بالجيش، تضمنت تعبيرات وكلمات تنم، وبصورة واضحة، عن تخوف كبير، ورعب من الخدمة فى الجيش، حيث قال أحد الجنود، والذى لم يرغب فى ذكر اسمه: «نحن نعلم بأن الخدمة فى الجيش أمر مهم، وضرورى للغاية، ومن واجبنا الدفاع عن إسرائيل، إلا أن الأوامر بالاحتلال والاضطهاد تعتبر أوامر سيئة، ولا تحترم آدميتنا، وتحولنا إلى وحوش كاسرة، كل هدفها قتل الفلسطينيين، والاعتداء عليهم، وبالتالى فنحن نرفض تلك الخدمة، ولن نقوم بها فى المناطق الفلسطينية، ما دامت القيادة العسكرية تحثنا على القتل، وكانت تلك

الكلمات بمثابة قنبلة يدوية مدوية، تم تفجيرها داخل إسرائيل فى وجه كبار القادة والمسئولين، بدءًا من رئيس الوزراء إرييل شارون، وحتى رئيس هيئة الأركان شاؤول موفاز، والقادة المساعدين له، وازداد الوضع تأزمًا عندما اعترف هؤلاء الجنود بأنهم تعرضوا خلال خدمتهم للتوبيخ والاضطهاد من كبار قادتهم العسكريين، لرفضهم الانصياع للأوامر، والخاصة بقتل المدنيين الفلسطينيين، وإطلاق الرصاص عليهم، بلا هوادة أو رحمة، غير مبالين بأرواح هؤلاء المدنيين(١٣). وقد أثارت تلك الرسالة بدورها جماعات حقوق الإنسان وحركات السلام المختلفة بشكل كبير، وهو ما مثل ضغطًا واضحًا على الجيش، وجعله مثار نقد شديد، سواء من تلك الجماعات، أو حتى من الرأى العام، حتى إن موفاز طالب بمعاقبة من شاركوا فى كتابة تلك الرسالة؛ لأنها تجاوزت كل الخطوط الحمراء المصرح بها، وستنعكس سلبًا على بقية الجنود والضباط، وأوضحت إحدى الدراسات، التى أجراها «معهد الصحة العامة» فى القدس، أن الجنود الذين سبق لهم الخدمة فى المناطق العربية يصبحون أكثر عنفًا، وأقل تركيزًا، وهو ما يظهر على سلوكهم(١٤).

وذكر شلومو بابيربلت أنه بالإمكان، بسهولة نسبية، تمييز نغمة واحدة أساسية بين كل أصوات ردود الأفعال والمقالات الرئيسة، والتحليلات الصحافية الصادرة فى نهاية الأسبوع فى وسائل الإعلام الأمريكية والأوروبية: العالم كله ضدنا، بصورة كاملة، ولكنه بالتأكيد ضد الشرق

الأوسط، وضد الصراع بين إسرائيل والفلسطينيين، وحتى من كانوا فى الماضى من بين كبار المنتقدين لإسرائيل، ومثلهم الكثيرون من مناصريها يبدون، الآن، ميلاً لإلقاء الجانبين فى سلة واحدة.

العنف الفلسطينى الدموى يتسبب بصعوبة حقيقية لقسم من المحللين فى وسائل الإعلام الغربية، والذين اعتادوا تجميل الاحتلال، وذر الأحداث، بصورة أوتوماتيكية. وتبدو خطوات إسرائيل واستدعاء الاحتياط كمحاولة لحل المشكلة بالقوة، فى الوقت الذى لا يوجد فيه حل عسكرى لها، ولذلك تتزايد الأصوات الداعية إلى التدخل الخارجى، فيما وراء ذلك تقوم الصحف بالتقليص المتزايد لمجابهة الشرق أوسطية، وحصرها فى معركة بين اثنين، شارون وعرفات، ووجهت حنان عشراوى تهمًا إلى الجيش الإسرائيلى، من خلال الـ بى. بى. سى: «الجيش الإسرائيلى يقتل عائلات بأكملها»، وذكر شلومو بابيريلت، أيضًا، بأن «الفلسطينيين أجادوا احتلال الصدارة فى اهتمام الإعلام الغربى أكثر من الإسرائيليين، ويبدو أن السياسة فى هذه الأيام هى التى ستنتصر، فلا تتخذ إسرائيل هنا صورة طيبة على نحو خاص على الأقل كما يظهر فى الخط الرسمى للحكومة، وفى تقارير وسائل الإعلام التى تسيطر عليها: إسرائيل تحتل، إسرائيل تهدم، إسرائيل هى المعتدى «سلوك بربرى»(١٥).

وكتب رئيس «ميرتس» اليسارية الصهيونية، يوسى ساريد، فى جريدة «يديعوت أحرونوت» مقالة بعنوان: «انتداب أمريكى محدود فى الضفة» قد

يوفر إطارًا لحل الأزمة، قال يوسى ساريد: «تحديدًا، الآن، وعندما يبدو كل شىء ضائعًا، من الجدير أن نسمع من بين الأنقاض صوتًا ضعيفًا لفرصة من شأنها أن تتعاظم وتعلو فى الأيام القادمة، بالضبط، حين يتوصل المزيد من الأشخاص إلى استنتاج بأنه لا يوجد ما يمكن فعله، من الجدير القول بأن ثمة الكثير مما يمكن فعله، من يواصل السير فى نفس الطريق الوعرة طريق مرة تينت، ومرة أخرى ميتشل، لن يصل بعيدًا، ولكن من يتحلى، الآن، بالجرأة وسط هذه الفوضى، فإنه مع ذلك سيُنقذ، وقبل أن يصل الجنرال زينى، فى مهمته الثانية، قدرنا أن فرصته فى النجاح ضئيلة إلى درجة الصفر، إن من يريد السلام - حسب المقال المشهور - يتهيأ للحرب، ومن يريد اتفاقًا إسرائيليًا - فلسطينيًا يتهيأ لاتفاق مفروض، بدون استعداد أمريكى لذلك لن يحرز أى اتفاق، وإذا أحرز فإنه لن يصمد طويلاً، وربما قامت أمريكا بواجبها، ولكنها لم تنفذ كل واجبها، لم تمارس ضغطًا شديدًا على الطرفين وفهم كلاهما أن أمريكا مشغولة، أساسًا، فى أفغانستان، والعراق، وتهتم بنزاعاتنا الدامية من أجل كسب الوقت، والتنفيس عن الغضب فحسب، هذا لا يكفى، ولا يمكن أن ينجح، واعتادت أمريكا القول بأنه إذا لم يشأ الطرفان التسوية، فهى غير قادرة على إملائها، ولكن كذلك فى كوسوفا، والبوسنة، ومقدونيا لم تشأ الأطراف التسوية، وأرادتها الولايات المتحدة وكانت مستعدة لأن تتحدث بصورة أخرى، تمامًا، أن تتحدث، وتعمل حين لا يريد الطرفان، أو لا يستطيعان، يضغطون عليهما إلى أن يقولا «نعم نريد»(١٦).

أمريكا، بالطبع، غير ملزمة تجاه عرفات وشارون بتدخل أكثر عمقًا وحزمًا، ولكنها ملزمة بذلك تجاه شعوب المنطقة التى تنزف دمًا، وتجاه السلام العالمى. العظمة مثل الشهامة ملزمة، أيضًا، وليس دائمًا، يحق للدولة العظمى أن تختار لنفسها بؤرة تكون مريحة لها، من المؤكد أننى أفهم بأنه لا توجد أى دولة طبيعية تُقْبِل إلى الشرق الأوسط المشاغب بحماس، ولكن إذا كانت أمريكا تؤمن بأنها تستطيع أن تهرب وتبتعد، فإن لديَّ أنباءً سيئة، كل من يهرب من الشرق الأوسط فإن الشرق الأوسط يلاحقه إلى أن يمسكه، ويوقعه فى الفخ. الأرضية الآن مهيأة أكثر من أى وقت مضى لفرض اتفاق، الطرفان مرهقان، كما يبدو، بما فيه الكفاية، ويعيشان فى ظل انطباع بأنه لم يبق لهما الكثير مما يخسرونه، والمجتمع الدولى سئم مما يحدث هنا، وكف عن تعليق الآمال على حكمة وفطنة الإسرائيليين أو الفلسطينيين. المبادرة السعودية حظيت بشرعية معقولة من العالم العربى، وبمقدورها أن تُستخدم كأساس مناسب لاتفاق دائم مع حوار حول تفاصيل خطتى تينيت وميتشل، ثمة ما يمكن الاستناد إليه، وما يمكن الحوار معه، ويمكن إشغال الفراغ المؤقت للمرحلة المؤقتة من خلال انتداب أمريكى فى الضفة الغربية لفترة محدودة وقصيرة، تقريبًا كل شعب وصل إلى استقلاله من رحم انتداب أجنبى، كهذا أو ذاك، كذلك يجب عدم الخوف من أن تعشق أمريكا الضفة الغربية، وتسعى إلى البقاء، مثلما حدث فى مرات كثيرة لدول انتُدبت بتفويض دولى. فقط الأغبياء مثلنا يُحبون مخيمات اللاجئين فى القطاع والضفة، هذا لن يحدث لأمريكا، الانتداب الأمريكى سيلغى، بالطبع،

الاحتلال الإسرائيلى، ويحل مكانه، نهائيًا، مع إقامة الانتداب تُنشر هنا قوات دولية، تفصل بين الإسرائيليين والفلسطينيين، تحمينا منهم، وتحميهم منا، وتدافع عن المصالح المهددة لأمريكا، والعالم الحر، والدول العربية المعتدلة، ثمة للانتداب الأمريكى وقوة الفصل الدولية، بالطبع، زاوية أمنية، ولكن يجب أن تكون لهما زاوية اقتصادية صارخة، إنهما يساعدان السلطة الفلسطينية فى النهوض على قدميها، ويساعدان الشعب الإسرائيلى فى ترميم دماره منذ سنوات، وإسرائيل ترفض فكرة القوة الدولية بدعوى متغطرسة بعض الشىء.. ماذا؟ هل نحن مثل البوسنة، ونشبه كوسوفا؟ ولكننا مثل كوسوفا، حين يسقط كل يوم ضحايا من هنا وهناك، وحين يصاب الطرفان بعمى الكراهية والانتقام فإن هذا كوسوفا، والواقع الكوسوفى يستدعى حلاً كوسوفينيًا، وإذا لم يكن هذا يروق للبعض، فليبدأ بالنظر إلى الواقع بعينيه(١٧).

لقد آن دور الشعب العربى الفلسطينى للخروج من الضائقة، وحين يتحرر من الاحتلال الإسرائيلى سنخرج نحن، أيضًا، من العبودية إلى الخلاص وعندها لا تحتاج أمريكا إلى صب جام غضبها من أجل فرض التسوية»(١٨).

○○○

الهوامش

(١) دان شيلون، «حديث مع شارون»، **معاريف**، ١/ ٤/ ٢٠٠٢م.

(٢) **المصدر نفسه.**

(٣) اليعازر شلوكى، «الحركات اليسارية»، نشرت ترجمتها فى **مختارات إسرائيلية**، (القاهرة)، العدد ٢٨٧، آذار/ مارس ٢٠٠٢، ص ٧٣ - ٧٤.

(٤) يعوشع شالوم، «الرأى العام فى إسرائيل»، نشرت ترجمتها فى **مختارات إسرائيلية**، (القاهرة)، العدد ٢٨٧، آذار/ مارس ٢٠٠٢، ص ٧٣ - ٧٤.

(٥) عكيفا الدار، «العدو الأساسى»، **هآرتس**، ١/ ٤/ ٢٠٠٢م.

(٦) عكيفا الدار، «لنفترض أن الحملة»، **هآرتس**، ١/ ٤/ ٢٠٠٢م، ترجم فى **القدس العربى**، (لندن)، ٢/ ٤/ ٢٠٠٢م، ص ٩.

(٧) دان مرجليت، «حرب شارون عادلة»، **معاريف**، ١/ ٤/ ٢٠٠٢م، ترجم فى **القدس العربى**، (لندن)، ٢/ ٤/ ٢٠٠٢م، ص ٩.

(٨) ناحوم برنياع، «شارون يريد تصفية عرفات»، **يديعوت أحرونوت**، ١/ ٤/ ٢٠٠٢م، ترجم فى **القدس العربى**، (لندن)، ٢/ ٤/ ٢٠٠٢م، ص ٩.

(٩) عيد عطية، «اعترافات الجنود الإسرائيليين»، **صباح الخير**، (القاهرة)، العدد ٢٤١٧، ٣٠/ ٤/ ٢٠٠٢م، ص ١٢.

(١٠) **المصدر نفسه.**

(١١) بنيامين بيريز، «رسالة الضباط مؤشر خطير للغاية»، نشرت ترجمتها فى **مختارات إسرائيلية**، (القاهرة)، العدد ٢٨٧، آذار/ مارس ٢٠٠٢م، ص ٧٣ - ٧٤.

(١٢) زئيف شيف، «أعطينا الجنود أمرًا»، **هآرتس**، ١/ ٤/ ٢٠٠٢م.

(١٣) مرجليت، **مصدر سبق ذكره.**

(١٤) شلومو بابيرلية، «كل العالم يندد بإسرائيل»، **يديعوت احرونوت**، ١/ ٤/ ٢٠٠٢م.

(١٥) **المصدر نفسه.**

(١٦) يوسى ساريد، «انتداب أمريكى محدود»، **يديعوت احرونوت**، ١/ ٤/ ٢٠٠٢م.

(١٧) **المصدر نفسه.**

(١٨) **المصدر نفسه.**

ooo

الفصل السابع

أداء السلطة

ليلى محسن

إذا كانت السلطة الفلسطينية هى الممثل الشرعى الوحيد للشعب الفلسطينى المناضل، فمن الطبيعى أن تقف، بكل ثقلها، وراء شعبها، الذى يواجه عدوًا شرسًا، لا يعرف ألف باء الرحمة، وأن يتسم أداؤها بالانحياز الكامل لكل ما هو فى مصلحة شعبها، باعتبار أنه فى خط المواجهة والدفاع الأول عن تراب بلده المغتصب.

لكن واقع الأمر أن هذا الأداء تأرجح بين صعود وهبوط، وقوة وضعف، لا يخلو من سلسلة متتالية من الإحباطات، التى تنكأ الجراح الفلسطينية، والتى لا تزال تنزف دمًا.

على ما يبدو فإن السلطة التى ارتضت فتات ما قدم إليها على صينية «أوسلو»، بل راهنت أيضًا عليه، لم تفق بعد من غيبوبة ما سمى بمرحلة التجريب، التى روجت لها بعض العقليات المهزومة، والتى تناست أنه عندما يتعلق الأمر بقضية وطنية مصيرية، فإنه يجب ألا يخضع للتجريب، فإما قرارات حاسمة، وإما كفاح حتى النصر، ولا مجال هنا للبين بين أو الوسطية.

إذا كانت السلطة الفلسطينية رهينة ما بين مطرقة أوسلو وسندان العدو الصهيونى، وقبلت أن تلعب دورًا هزليًا وسطيًا، فلابد من تذكيرها سريعًا بأن الوسطية ما هى إلا جسر للصهاينة، يعبرون من خلاله على جسدها المترهل ليصلوا إلى منتهى غاياتهم، وهو إبادة ما تبقى من الشعب الفلسطينى، فلا عجب وهم العابرون دائمًا.

أما البوصلة السلطوية الفلسطينية، التى تتحول سريعًا من مساندة شعبها إلى خذلانه، فإنها لم تعد تكتفى بالتصريحات التى تسفّه من أعمال

المقاومة، وتنعتها بالإرهابية، بل امتد الأمر إلى القيام بدور فعَّال يتمثل فى سلسلة الاعتقالات المستمرة، وقلب الحقائق فى أحيان كثيرة، وليس أدل على ذلك من القول بأن «قتلة زئيفى عملاء لإسرائيل... ولدينا ما يثبت ذلك»! ويستمر الأداء حتى يصل إلى ذروته المسرحية، فيحاول إقناعنا بأن السلطة تمتلك الوثائق والمستندات فى هذا الصدد.

الواقع أن القضية الفلسطينية ليست حقًا خاصًا بعرفات، أو منظمة التحرير، أو حتى الفلسطينيين أنفسهم، بل هى حق لكل الأمة بما فيها الفصائل الفلسطينية، لذلك فإن القضية لابد أن تستمد شرعيتها من جدية الواقفين وراءها، وليس المتخاذلين الوسطيين.

وموقف عرفات، اليوم، لم يعد مستغربًا على أحد، بمن فيهم شعبه الذى اعتاد على مواقفه المتناقضة، فهو الذى أعلن مؤخرًا «يريدوننى طريدًا أو أسيرًا .. أو قتيلاً، وأقول لهم شهيدًا .. شهيدًا .. شهيدًا» عاد سريعًا ليُجرِّم حق بعض الفلسطينيين فى الاستشهاد اختيارًا من أجل حياة الوطن.

عرفات الذى أصبح أداة طيعة وورقة ضغط على شعبه ليتنازل، ويرضى بما قسمته له الإمبريالية الأمريكية وصنيعتها إسرائيل، والذى اعتاد أن يحيد السلطة، أو بالأحرى يمسك العصا من الوسط، ويغير آراءه من النقيض إلى النقيض بين يوم وليلة، والذى أصبح المنفرد الوحيد بالقرار، يثبت لنا أن القضية أصبحت أكبر من قدرات شخص واحد على حملها وتحملها، وأنها أصبحت بحاجة إلى رؤية واضحة ومحددة، لا تقبل التغيير لصالح العدو، أو التسابق على التعايش معها، دون التوصل لحل جذرى.

أما نغمة «حيل خداعية»، أو «تكتيكية» التى لا يمل البعض ترديدها فى

محاولة لتبييض وجه «أبو عمار» فلا تخرج عن كونها نغمة فاشلة لذر الرماد فى العيون التى أعيتها نفس المشاهد كل يوم.

السلطة الفلسطينية
ما بين إهانة العمليات الاستشهادية
وهستيريا الاعتقالات والقمع

إن الحديث عن العمليات التفجيرية التى يقوم بها الشباب، وحاليًا الشابات الفلسطينيات، قد أخذ كثيرًا من وقت الشعب العربى، وأدخلنا فى متاهات لم نكن نحب الخوض فيها، فهل هى عمليات انتحارية أم استشهادية؟

وهو ما يأخذنا بدوره إلى منطقة أخرى، هل هى حلال أم حرام؟ ولا يزال البعض منا يلح فى طرح مثل هذه الأسئلة، ولكن الشىء الأكيد أنها ليست نوعًا من الانتحار كما يروج لها البعض.

فالمنتحر شخص قد يئس من حياته، بسبب فشل ما، وأراد أن ينهيها، أما الاستشهاد فهو عمل من أعمال البطولة، بل أعظم أنواع الجهاد(١)، فالناس لا ينتحرون، بسهولة، حتى لو كان فى الأمر انتحار، وهم لا يفعلون ذلك إلا عندما يصلون إلى طريق مسدود، ويضيع منهم كل أمل فى الحياة. ولكن حين يذهب إنسان، ويضحى بحياته، فمن الصعب على النفس أن يسميه أحد انتحارًا(٢).

فلا هى إذًا عمليات انتحارية، ولا هى عمليات إرهابية موجهة ضد

المدنيين الأبرياء، كما يدعى البعض، ومنهم السلطة الفلسطينية، ممثلة فى عرفات، ففى الوقت الذى اعتبر فيه شيخ الأزهر الشيخ محمد سيد طنطاوى العمليات الاستشهادية أعلى درجات الشهادة، وأطربنا غازى القصيبى بقصيدته الموجهة للفتاوى التى تُحرِّم العمليات الاستشهادية قائلاً:

قل لمن ذبحوا الفتاوى رويداً رب فتوى تضج منها السماء

شكلت العمليات الاستشهادية امتحانًا للسلطة الفلسطينية التى اشترط باول إدانتها لما تسميه بالعمليات الانتحارية والإرهاب واستخدام العنف لأغراض سياسية فى مقابل لقاء عرفات فى رام الله، وكالعادة دفع عرفات ثمن لقاء باول مسبقًا أو بالأحرى فإن الدفع تم بدون مقابل.

وإدانة عرفات لعملية القدس الاستشهادية، التى وقعت فى ١١/ ٤/ ٢٠٠٢ ليست، بالطبع، الأولى من نوعها، فهى محطة فى سلسلة الإدانات، أو بالأدق الإهانات للعمليات الاستشهادية، التى أصبحت جزءًا من استراتيجية السلطة الفلسطينية العرفاتية.

فقد سبق أن اتهم عرفات فصائل المقاومة الفلسطينية بالإرهاب، وأعلن عرفات تصميمه على إنهاء نشاطها، مؤكدًا أن هذه الفصائل لا تمثل الشعب الفلسطينى، أو تطلعاته المشروعة(٣)، وهو الذى أعلن أنه سامح شارون، وأنه يدعوه للعودة إلى مائدة المفاوضات!(٤)؛ فعرفات الذى أكد أن قتلة زئيفى ارتكبوا أخطر العمليات الانتحارية، وأدان بشدة عملية الفتاة الفلسطينية، عندليب، التى أعلنت قبيل قيامها بالعملية أنها ستقوم بها انتقامًا لضحايا مجزرة جنين، استمر فى سياسة القمع والاعتقالات، التى هى الجزء الأهم فى الاستراتيجية العرفاتية.

إن صفة الرهينة لم تعد حكرًا على الرئيس الفلسطينى فحسب، لاسيما بعد حملة الاعتقالات التى تشنها أجهزة الأمن الفلسطينية ضد نشطاء «حماس» و«الجهاد»، والجهتان «الشعبية» و«الديموقراطية»، فمنهم من هو قيد الإقامة الجبرية، وآخرون يمضون أيامهم، حاليًا، فى سجون السلطة(٥) فلم يترتب على إبرام اتفاق «أوسلو»، تخفيف المعاناة الأمنية، التى يكابدها الشعب الفلسطينى، بسبب الممارسات القمعية لسلطات الاحتلال، وانتهاكاتها الفظة لحقوق الإنسان، ولحريات المواطنين، بل لقد قاد إلى تفاقم هذه المعاناة بأن أضاف إليها عبئًا جديدًا، ناجمًا عن الممارسات الاستبدادية، والسلوك التعسفى المنفلت من أية ضوابط أو حدود قانونية من جانب سلطة الحكم الذاتى، وأجهزتها الأمنية(٦).

فسجل سلطة الحكم الذاتى فى ميدان احترام الحريات وحقوق الإنسان لا يقل سوءًا عن سجل سلطات الاحتلال، بل يزيد عليها، كونه منفلتًا من أى ضوابط أو روادع قانونية، لعل أبرز العلامات المخزية على هذا السجل: حملات الاعتقال الجماعية، التى شملت مئات المواطنين دون اتهام أو محاكمة، الاعتداء على حقوق الاجتماع، والتظاهر، والتعبير، والنشر، إرهاب الصحف وإغلاقها المتكرر، أو منع توزيعها، والتنكيل بالصحفيين... إلخ(٧).

أما الإجراء غير المسبوق فهو إقدام عرفات، فى ١٥/ ١/ ٢٠٠٢، على اعتقال الأمين العام للجبهة الشعبية، أحمد سعدات، بينما عرفات نفسه محاصر فى مقره من الدبابات الإسرائيلية، وذلك تنفيذًا لأوامر حكومة شارون التى أصرت على اعتقال سعدات، باعتباره المسئول الأول عن اغتيال وزير السياحة الإرهابى مجرم الحرب، رحبعام زئيفى، المعروف بحماسته

الشديدة لطرد الفلسطينيين بشكل جماعى، حيث تنتمى لهذا المجرم سياسة «الترانسفير»، وسعدات، الذى سبق أن اعتقلته سلطات الاحتلال الإسرائيلى، عام ١٩٦٩ والتى استمرت هذه السلطات فى اعتقاله باستمرار - وإن كان على فترات منقطعة - حتى إن مجموع ما قضاه هذا المناضل الجسور فى سجون الاحتلال ومعتقلاته تعدى الاثنتى عشرة سنة على مدى ربع قرن من انتسابه للجبهة الشعبية، كان أيضًا على قائمة المطلوبين لسلطات الاحتلال، حين دخلت سلطة الحكم الذاتى إلى الضفة الغربية خريف ١٩٩٤، فبادرت أجهزة أمن سلطة الحكم الذاتى إلى اعتقاله، وتكرر مشهد الاعتقال من قبل السلطة ثلاث مرات: كانون أول/ ديسمبر ١٩٩٥، كانون ثان/ يناير ١٩٩٦، آذار/ مارس ١٩٩٦، وفى الاعتقال الأخير اشتبه بإصابة سعدات بالذبحة الصدرية فى سجن تابع للأمن الوقائى فى مدينة أريحا، لكن حين تم نقله إلى المستشفى أكدت التحليلات الطبية التى أجريت له تعرضه لسم طويل الأمد(٨).

فإذا كانت هذه هى المرة الأولى التى تقدم فيها سلطة الحكم الذاتى على اعتقال الرجل الأول فى فصيل فلسطينى، ذى وزن وحضور قويين مثل «الشعبية»، فإن الأمر لم يخلو من توتر العلاقات الداخلية الفلسطينية، مما وسع الهوَّة بين مجموع الفصائل وبين السلطة، فربما كان اعتقال سعدات مجرد محاولة من عرفات لانتزاع ذريعة من يد شارون فى سبيل إطلاق عرفات من رام الله، لكن هذا الاحتمال لن يمنع وحدة كوماندوز إسرائيلية من الوصول إلى حيث وضعت السلطات الفلسطينية سعدات، ما دام موقعه قد تحدد، واقتياده إلى إسرائيل، أو أن تقوم طائرات الأباتشى الإسرائيلية بالإجهاز عليه(٩).

فمنذ زمن بعيد، والقيادة الفلسطينية تشعر بالمرارة والتنافر الذى ينتاب الجمهور فى الضفة الغربية وقطاع غزة إزاء القيادة، وإذا تعرض معتقلو «حماس» و«الجهاد الإسلامى»، و«الجبهة الشعبية» لهجوم إسرائيلى، فإن عرفات ورجاله سيتهمون بالمسئولية عن ذلك، لاسيما وأن التهمة ستصل إلى حد الخيانة، والتآمر لتصفية كوادر الانتفاضة، وفى مثل هذه الحالة ستثور شبهات فى الشارع الفلسطينى بشأن مؤامرة حيكت بين السلطة وإسرائيل والأمريكان، من أجل القضاء على نشطاء الانتفاضة، المحتجزين فى منشآت السلطة(١٠).

رغم أن رد أجهزة الأمن الفلسطينية جاهز عقب أى عملية اعتقال، ومفاده أن هذا الاعتقال لغرض الاستجواب بشأن أنشطة قد تلحق ضررًا بالأمن الوطنى، وأن توقيف بعض الأشخاص يكون فى كثير من الحالات فى صالحهم، ومن أجل حمايتهم، إلا أن الثابت أن القادة الميدانيين فى الفصائل الفلسطينية يؤكدون رفضهم لمثل هذا النوع من الاعتقالات، فالعديد من النشطاء يرفضون تسليم أنفسهم لأجهزة السلطة، خشية على حياتهم من قصف مراكز التوقيف والاعتقال، لذلك فإن شعور الفلسطينيين بأنهم أصبحوا واجهة لكل المدافع، سواء مدافع السلطة أو المدافع الإسرائيلية(١١).

إن السلطة الفلسطينية المستسلمة استسلامًا تامًا، أو بالأدق المنفذة النشطة للأوامر الإسرائيلية الأمريكية، والتى بقمعها، واعتقالاتها، وإداناتها المستمرة للعمليات الاستشهادية تعطى شارون الحق فى ملاحقته للقائمين عليها، وتفتح الباب لنشوب حرب أهلية، أو على الأقل، فتح جبهتين على

الفلسطينيين، الأولى إسرائيلية، والثانية فلسطينية، خاصة أن مسلحين فلسطينيين قد حذروا السلطة الفلسطينية من أن استمرار الاعتقالات ستؤدى لمواجهة عسكرية عنيفة.

امتدت اعتقالات أجهزة الأمن الفلسطينية إلى صفوف الموقعين على بيان يدعو لمواجهة الفساد فى إدارة السلطة الفلسطينية الذين أكدوا فى البيان، الذى أصبح يعرف ببيان العشرين(❖) أنهم متمسكون بمواقفهم، بالرغم من الاعتقال، وأنهم مستعدون لمكافحة الفساد حتى النفس الأخير، وطالبوا الشعب الفلسطينى بمواجهة ما وصفوه بالسياسات الاستبدادية الظالمة والفاسدة، التى تتبناها السلطة، وقال الموقعون: إن «عملية السلام» بعد عدة سنوات من بدئها لم تتمخض إلا عن مزيد من المستوطنات، ومصادرة المزيد من الأراضى، واعتقال أكبر عدد من الفلسطينيين، كما أصدرت منظمات فلسطينية عدة مثل «الجبهة الشعبية»، و«الجبهة الديموقراطية»، و«حماس»، و«الجهاد الإسلامى»، بيانًا مشتركًا رفضت فيه كل أشكال ما وصفته بالإرهاب السياسى(١٢).

وإن دل هذا على شىء فإنما يدل على مدى ازدياد الضغوط الشعبية الفلسطينية على السلطة، وأن الفلسطينيين على درجة كبيرة من الوعى السياسى بالأمور الداخلية، وليسوا مغيبين بفعل الاحتلال الصهيونى فحسب، وهو ما يهدد بانفجار الوضع الداخلى الفلسطينى فى أى لحظة.

ولنقل: إن الأمر امتد، أيضًا، إلى بعض الشعوب العربية، إذ حدث رفض شعبى مصرى لإدانة عرفات للعمليات الاستشهادية فى ١٦/ ٤/ ٢٠٠٢م(١٣).

وتستمر مهازل السلطة بمحاكمة الأبطال الشرفاء قتلة المجرم زئيفى المعتقلين فى مقر عرفات، وقد أعلن كل من محمد دحلان، وصائب عريقات فى وقت سابق «أنهم قاموا بنقلهم لسجن عرفات، بإذن من إسرائيل، وبسيارات أمريكية»(١٤).

أما محاكمتهم فقد تمت على أيدى ضباط فلسطينيين فى ٢٥/ ٢/ ٢٠٠٢ محتجزين من قبل الجنود الإسرائيليين، لتمثل تلك المحاكمة خير دليل على ما وصلت إليه السلطة الفلسطينية من تدهور إزاء هجمة التاسع والعشرين من آذار/ مارس الماضى، أما مساومة وضع المتهمين فى حراسة أمريكية بريطانية فى مقابل فك حصار عرفات، فهى سقطة جديدة للسلطة تضاف إلى سابقاتها.

• ارتباك السلطة وغياب قيادة جماعية ائتلافية وطنية استئثار عرفات بالقرار السياسى وخضوعه للسيطرة الصهيونية

إن رؤية العدو لما يسمى بالسلام كأداة لتحقيق التفوق والأمن الصهيونيين، قد انعكس على العلاقة مع سلطة عرفات، من خلال تحويل هذه السلطة إلى أداة قمعية وأمنية فى يد الصهاينة، تتولى المهمات القذرة فى التصدى للمناضلين، وتعمل على تقويض الأُطُر الكفاحية والنضالية العاملة ضد الاحتلال الصهيونى، فالاتفاق الذى وقّعته السلطة (اتفاق أوسلو)، والمناهض لإرادة الجماهير، استدعى غضبهم ورفضهم لذلك الاتفاق، وكان على سلطة عرفات أن تتولى هنا ضرب المناضلين، لصالح اتفاقها مع العدو الصهيونى، والعمل على خدمة أمن الاحتلال ومستوطنيه،

مما اقتضى بالضرورة اصطدامًا بين إرادة السلطة التابعة وإرادة الجماهير وأطُرها الفاعلة نحو تحقيق هدفها فى دحر الغزوة الصهيونية(١٥).

إن طبيعة مهمة سلطة عرفات كما يوضحها لنا أستاذ للعلوم السياسية فى جامعة بيرزيت «أن الأمن الإسرائيلى أصبح بموجب اتفاق أوسلو مهمة فلسطينية، وتنفيذًا لهذه المهمة وقع على كاهل السلطة الفلسطينية، ليس فقط إثبات القدرة الفعلية على حماية الأمن الإسرائيلى، وإنما ضرورة اجتياز الامتحان المستمر فى إبراز صدق النوايا الفلسطينية فى هذا المجال، وباختصار أصبحت السلطة الفلسطينية بالمنظور الإسرائيلى (الشرطى) الموظف لدى إسرائيل لاستكمال (السلام)، وأصبحت المعادلة سهلة، وواضحة: كلما استطاع الفلسطينيون تأمين الأمن الإسرائيلى - ولهذا التأمين طلبات ومتطلبات لا نهائية - كلما نظرت إسرائيل بعين العطف إلى استكمال المفاوضات معهم، ولا يهم، بالطبع، ضمن هذه المعادلة كل ما ترتكبه دولة العدو من انتهاكات حتى لنصوص أوسلو نفسها، كما يضيف د. على الجرباوى أن التأخير فى تطبيق بنود الاتفاق، والتوسع فى عملية الاستيطان، واستمرار مصادرة الأراضى والقمع والتنكيل، كلها إجراءات ما زالت إسرائيل تعتبرها اعتيادية.. ومع مرور الوقت أخذ الضغط الأمنى يتصاعد، وأصبح جليًا أن الحكومة الإسرائيلية لكونها الأقوى تبتز هذه السلطة، التى أضحى من واجبها، فى المنظور الإسرائيلى، ليس فقط ضمان الأمن فى منطقة الحكم الذاتى فحسب، وإنما فى طول إسرائيل وعرضها، وفى أصقاع العالم كله»(١٦).

فمن الطبيعى إذًا أن تحمل السلطات الصهيونية، دومًا، السلطة

الفلسطينية المسئولية عن أية أعمال أو تحركات معادية لها، وتقوم السلطة لإثبات قدراتها ونواياها الصادقة بتنفيذ المطلوب منها صهيونيًا.

فالأداء الذى تعتمده القيادة المذكورة - على حد قول المفاوض الفلسطينى السابق يزيد صايغ - يعبر عن نمط الارتجال، والاحتكار فى إدارة كافة الأمور (السياسية، والتنظيمية، والحكومية، والعسكرية، والأمنية، والمالية، والتجارية، والاقتصادية) من خلال تسلط الزعيم الأعلى واستئثاره بكل مقاليد القيادة والحكم(١٧).

رغم أن مقالات إدوارد سعيد قد ركزت دومًا على الأداء، وإمكانية الحصول على اتفاق أفضل من شروط «غزة - أريحا»، وعلى أن المفاوضات لم تعتمد على أهل الاختصاص، فقد عبر إدوارد سعيد عن خيبة الأمل بإمكانية تحسين شروط الاتفاق الموقع، وتوصل إلى قناعة بأن القيادة عنيدة، وغير قابلة للإصلاح، معتبرًا أن الأولوية المطلقة بالنسبة للمعارضة يجب أن تكون العمل على برنامج يجبر قيادة منظمة التحرير الفلسطينية على الرحيل(١٨).

إن التوجه السياسى الذى بدأ منذ فترة مبكرة جدًا، وخاصة إثر تبنى شعار إقامة السلطة الوطنية عام (١٩٧٤)، وما تلا ذلك من تراجعات وتنازلات مبدئية، قد مكن هذه القيادة من توصيل المهمات والأعمال على المقاس الذى يخدم مصالحها الأنانية المباشرة، ولا يهمها البعد القومى الفلسطينى، ويوضح كتاب «طريق أوسلو» لمحمود عباس (أبو مازن) بأن همَّ القيادة الفلسطينية كان التركيز على الاعتراف الصهيونى بها، وكأن هذا الاعتراف هو القضية الأساسية(١٩).

إن ما جرى بكل وضوح يوم مجزرة ١٨/ ١١/ ١٩٩٤ (مجزرة مسجد فلسطين فى غزة) وما تلاه من ممارسات قمعية لسلطة عرفات، أكثر من أن يعتبر مجرد محاولة إثبات وجود وقمع للمعارضة، بل يعنى أنه تم توظيف سلطة الحكم الذاتى فى قمع الشعب الفلسطينى المناضل ضد الاحتلال الصهيونى، لذا فإن أية مواقف لا ترتكز على ضرورة إقامة أوسع جبهة وطنية فلسطينية، تعمل على إسقاط «اتفاق أوسلو» ورموزه السياسية، تظل مواقف قاصرة عن تحديد طبيعة الخلل الرئيس.

وتلاحظ الكاتبة البريطانية هيلينا كوبان: «أن عرفات اتخذ قرارات رئيسة فى الأيام التى تلت الجمعة السوداء، بينت أنه لم يبذل أى جهد لانتشال نفسه من الحفرة التى كان قد رمى نفسه فيها ذلك اليوم، وكانت إيذانًا بأن سلوكه تدهور إلى درك جديد، فقد جسدت هذه القرارات الأسلوب غير الناضج والمفرط فى الانحياز، الذى تصرف به عقب أعمال القتل التى اقترفت فى حق أبناء شعبه، ويتعهد بتحقيق كامل الإجراءات الانضباطية المناسبة ضد المنفذين، لجأ إلى تصريحات سخيفة لتوضيح ما حدث، وكان قراره المريع الثانى تنظيم عرض كبير للقوة المسلحة فى محاولة لا طائل منها للبرهنة على ماذا؟ سلطته؟(٢٠).

حتى اللحظات التى بدت فيها السلطة ممتنعة، ظاهريًا، عن لعب دور الأداة القمعية التابعة (كما حدث أثناء هبة أيلول/ سبتمبر ١٩٩٦)، فإنها فى الواقع ظلت وفيَّة لدورها، فشرطة السلطة أقامت طوقًا لحماية قوات العدو فى مقام يوسف فى نابلس، وشكلت حاجزًا بين قوات العدو وجماهير الشعب فى رام الله وغزة وغيرها من المدن الفلسطينية، كما تظهر سياسة

النهج الاستسلامى، الذى تتبعه السلطة جليلة فى الموافقة على الطلبات التى قدمها رئيس وزراء العدو السابق بنيامين نتنياهو، عشية اتفاق تنظيم احتلال الخليل (١٩٩٧)، والتى نصت أساسًا على:

١ – الإلغاء الكامل، وليس الجزئى للميثاق الوطنى الفلسطينى.

٢ – استمرار مكافحة «الإرهاب».

٣ – مصادرة الأسلحة فى المناطق.

٤ – تسليم المشبوهين، حسب قائمة قدمتها إسرائيل للسلطة (تشمل القائمة عناصر الشرطة التى أطلقت النار على القوات الإسرائيلية، فى هبة أيلول/ سبتمبر ١٩٩٦م)(٢١).

القيادة الجماعية الائتلافية باتت ضرورة ملحة

قضية فلسطين قضية وطنية، وقومية، ودولية فى آن، وعليه فإن الشعب الفلسطينى بحاجة يومية للوحدة الوطنية العريضة بين جميع الفصائل والقوى، على اختلاف الطيف الأيديولوجى، والسياسى، والاجتماعى، والطبقى، والوطنى، واليسارى، والقومى، والإسلامى، والليبرالى على قاعدة برنامج قواسم مشتركة، يلبى مرحلة التحرر الوطنى بالجمع بين كل وسائل النضال، والبحث عن حلول سياسية، تستند للقرارات الوطنية المشتركة، قرارات القمم العربية، والشرعية الدولية، والقيادة الائتلافية الميدانية هى التى تحمى وتطور الانتفاضة الجديدة من خطط التصفية العسكرية الدموية الإسرائيلية، وخطط التصفية السياسية والأمنية الدولية – الإقليمية منذ تشرين أول/ أكتوبر ٢٠٠٠، والإسرائيلية منذ اندلاع الانتفاضة

حتى يوم الناس هذا، فضلاً عن حروب الحصار والتجويع لشعب الانتفاضة(٢٢).

لذا اصطدمت هذه العملية فى الائتلافات الوطنية العريضة، دائمًا، بعوامل بنيوية مأزومة فى الحركة الوطنية الفلسطينية، تتمظهر، وتطفو على السطح بألوان وشعارات مختلفة، بفعل قانون التطور المتفاوت الأيدولوجى، والسياسى فى صفوفها، وما ينتج عنه من تعارضات وتناقضات درجة الوعى والنضج فى حلها، وفق طبيعة الصراع، خاصة عند مفترقات الطرق التى تحدد مصائر الشعب والوطن، وبفعل قانون التداخل الفلسطينى - العربى بإيجابياته وسلبياته، لذلك كثيرًا ما انفرط عقد الوحدة الوطنية الفلسطينية، ثم استؤنف النضال من أجل إعادة بنائها على قواعد مشتركة، وإخضاع كل التعارضات فى الصف الفلسطينى لصالح التناقض الرئيس مع العدو فى مرحلة التحرر الوطنى، ومواصلة الصراع اليومى لحل التعارضات والتناقضات الأساسية بين القوى الائتلافية بالاحتكام إلى الشعب، وتحت رقابته، وصولاً لحل قضايا الاختلاف بخط جماعية القرار الوطنى على قاعدة الحوار والقواسم المشتركة(٢٣).

لعل من أهم الردود على التصعيد الشارونى تشكيل غرفة عمليات موحدة فى قطاع غزة (٦/ ٤/ ٢٠٠٢)، استظل تحتها كل من «كتائب شهداء الأقصى»، و«كتائب عز الدين القسام»، و«كتائب أبو على مصطفى»، و«كتائب المقاومة الوطنية»، و«سرايا القدس»، وهى الأذرع المسلحة لكل من «فتح»، «حماس»، «الشعبية»، «الديموقراطية»، «الجهاد» على التوالى، صحيح أن الكتائب الخمسة قد شنت هجمات مشتركة كثيرة، ثنائية، وثلاثية، ورباعية،

لكن العلاقة بين الأذرع الخمسة لم ترتق فى أى وقت إلى مستوى الاتحاد، ربما بسبب الخلافات الهامشية بين القيادات السياسية للفصائل الخمسة، لقد ظلت الوحدة الوطنية أحد أهم الغائبين عن الساحة الفلسطينية، منذ أكثر من عقد، واشتد غيابها منذ توقيع «اتفاق أوسلو»، قبل زهاء تسع سنوات، لكن أساس هذه الوحدة توفر مع اندلاع «انتفاضة الأقصى والاستقلال»، وإن نجح البعض فى إعاقة تحقيق هذه الوحدة المرتجاة، التى لا تزال مطلبًا ملحًا على مستوى الفصائل الثلاثة عشر، على أن تمتد من الأذرع الخمسة إلى الفصائل، حتى لا تظل الوحدة الوطنية وقفًا على المجال العسكرى، إذ يمكن للمجال السياسى أن يعطله، أو فى الحد الأدنى يشاغب عليه، كما أن الوحدة الوطنية من شأنها توفير قيادة جماعية طال غيابها مؤهلة لبلورة استراتيجية للمقاومة طويلة النفس، وبذا تتوافر شروط النصر، خاصة إذا ما انتقل التعاطف العربى إلى مشاركة عربية فى التصدى لعدو الأمة الأمريكى الصهيونى(٢٤).

لذا فإن القوى الديموقراطية مدعوة لمواصلة نضالها من أجل إعادة بناء الائتلاف الوطنى الشامل على قاعدة نبذ خيار أوسلو، وإعادة صوغ برنامج الإجماع الوطنى، والالتزام به من أجل إعادة بناء مؤسسات المنظمة على أسس ديموقراطية، وجبهوية، ائتلافية، أما الاتجاه الرئيسى والحاسم نحو تحقيق هذا الهدف فيتمثل فى تعبئة وتنظيم الحركة الجماهيرية، وتصعيد ضغطها على المؤسسة الرسمية لمنظمة التحرير بهدف انتشالها من التفسخ البيروقراطى لتضمن دقة تعبيرها عن التكوين السياسى الحقيقى للشعب الفلسطينى، وتوزع تجمعاته فى الوطن والشتات، إن الدعوة إلى انتخابات ديموقراطية عامة وشاملة للفلسطينيين فى الشتات وفى الوطن لاختيار

مجلس وطني هو حل مقترح من أجل ضمان حل جذرى لمعضلة إعادة البناء الديموقراطى. ولكن فى غياب الإمكانية الفورية لتحقيق هذا المطلب، فإن تنظيم قطاعات الشعب على أسس نضالية، وديموقراطية، وتصعيد ضغطها من تصحيح ودمقرطة مؤسسات المنظمة لهو السبيل للتقدم على طريق إنجاز هذه المهمة(٢٥).

(❖) عشرون من الشخصيات الفلسطينية البارزة التى اتهمت الرئيس عرفات فى بيان أصدروه باسم بيان العشرين بالتستر على الفساد داخل دوائر السلطة الفلسطينية.

ooo

الهوامش

(١) يوسف القرضاوى، «القدس»، القاهرة، العدد (٤٠)، نيسان/ أبريل ٢٠٠٢، ص ٩٨.

(٢) محمد حسنين هيكل، «من قلب الأمة إلى قلب الأزمة»، فضائية «دريم»، القاهرة، ٥/ ٤/ ٢٠٠٢، بتوقيت الثامنة م.

(٣) «نيويورك تايمز»، ٣/ ٢/ ٢٠٠٢م.

(٤) «يديعوت احرونوت»، و«معاريف»، ٨/ ٢/ ٢٠٠٢م.

(٥) محمد أمين المصرى، «شارون يحول فلسطين إلى سجن كبير» **الأهرام العربى**، القاهرة، العدد (٢٥٣)، ٢٦/ ١/ ٢٠٠٢، ص ٢١.

(٦) أبو حجله، وخله، «اتفاقية أوسلو: المسيرة المتعثرة فى منعطفها الجديد» (موضوعات وأفكار للنقاش)، **الأوائل للنشر والتوزيع**، دمشق، **شركة التقدم العربى للصحافة والطباعة والنشر**، بيروت، ٢٠٠١، ص ٧٩.

(٧) **المصدر نفسه**، ص ٨٠.

(٨) عبد القادر ياسين، «لهذا تم اعتقال سعدات»، **الأهرام العربى**، القاهرة، العدد (٢٥٣)، ٢٦/ ١/ ٢٠٠٢، ص ٣٣.

(٩) **المصدر نفسه**، ص ٣٣.

(١٠) المصرى، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢١.

(١١) **المصدر نفسه**، الصفحة نفسها.

(١٢) شبكة الإنترنت، **موقع الـ بى بى سى الإخبارى**، ١٧/ ١/ ٢٠٠٢م.

(١٣) **الحياة**، لندن، ١٦/ ٤/ ٢٠٠٢م.

(١٤) فضائية «أبو ظبى»، ٢٣/ ٤/ ٢٠٠٢م.

(١٥) أبو خالد العملة، «أوسلو محطة لتهويد فلسطين.. خطوة للسيطرة على المنطقة»، **دار الكنوز العربية**، بيروت، ١٩٩٧، ص ٥٩.

(١٦) **المصدر نفسه**، ص ٦٠.

(١٧) **المصدر نفسه**، ص ٦١.

(١٨) **المصدر نفسه**، ص ٦٣.

(١٩) **المصدر نفسه**، ص ٦٣ - ٦٥.

(٢٠) **المصدر نفسه**، ص ٦٤.

(٢١) **المصدر نفسه**، ص ٦٥.

(٢٢) الباقوري، وعبد القادر ياسين، ونايف حواتمة - الانتفاضة/ الصراع العربي - الإسرائيلي إلى أين؟، **الدار الوطنية الجديدة**، دمشق، دار الفرات، بيروت، ٢٠٠١، ص ٧٧ - ٧٨.

(٢٣) **المصدر نفسه**، ص ٧٩.

(٢٤) عبد القادر ياسين، المطلب الأول، **الأسبوع**، القاهرة، العدد (٣٦٦)، ٨/ ٤/ ٢٠٠٢م.

(٢٥) أبو حجله، وخله، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٢٥ - ١٢٦.

ooo

الفصل الثامن

الأضداد العربية

د. نهال خضر البرعي

ظل حكام العرب طوال عام ونصف كاملين، منذ اندلاع «انتفاضة الأقصى والاستقلال» فى ٢٠٠٠/٩/٢٨ الطرف الوحيد فى الصراع الذى ينادى بالسلام خيارًا استراتيجيًا!

ورغم ردود إسرائيل الموجعة فإن الحكام ظلوا صامدين على موقفهم، مخلصين له، حتى انعقاد القمة العربية الأخيرة فى بيروت فى ٢٠٠٢/٣/٢٨ بعد أن كانت إسرائيل قد توجت أفعالها بقتل مزيد من الكوادر والقيادات الفلسطينية، ومنع الرئيس الفلسطينى ياسر عرفات من مغادرة البلاد للمشاركة فى القمة العربية.

فى يوم ٢٠٠٢/٣/٢٩ أقر المؤتمر فى قمة بيروت مبادرة ولى العهد السعودى الأمير عبد الله بن عبد العزيز للسلام والتسوية، وشهد المؤتمر تقاربًا عراقيًا سعوديًا، لم يكن متوقعًا للغرب، جاء رد رئيس الوزراء الإسرائيلى «إرييل شارون» على الحمائم التى أطلقها القادة العرب باتجاهه عمليًا، فاقتحم أراضى السلطة الفلسطينية، ومعها مقر الرئيس الفلسطينى ياسر عرفات، وقام الجيش الإسرائيلى بقتل أفراد من الشرطة الفلسطينية، وحراسة عرفات، وحاصروه مع بعض معاونيه فى مكتبه، وعمد الإسرائيليون إلى القتل والتمثيل بالقيادات الفلسطينية، وبأبناء الشعب الفلسطينى، وهدم البيوت على ساكنيها، ولم تسلم المنازل المأهولة، والأماكن الأثرية، أو الكنائس.

وشرع شارون يطبق مخططه الجهنمى دون أن يلتفت للمسلمين من حكام العرب، بل أخذ يصفعهم مستظلاً برعاية الولايات المتحدة الأمريكية وارفة الظلال، فعلى أى صورة تمثلت الأصداء العربية طوال الشهر الأول من اجتياح ٣/٢٩ الماضى؟

مصـــــر

إثر اجتـيـاح رام الله أرسل الرئيس حسنى مبـارك خطابًا عـاجـلاً إلى الرئيس الأمـريكى جـورج دبليـو بوش، طلب فـيـه تدخل واشنطن، وتدخل الرئيس بوش شـخـصـيًـا لوضع حـد لما يحـدث، وما يتـعـرض له الرئيس الفلسطينى، تجنبًا لتدهور الأوضاع فى المنطقة.

أعلنت مصر يوم ٢٠٠٢/٤/٣ وقف كل الاتصالات مع إسـرائيل، باستثناء الدبلوماسية منها «لأنها تخدم القضية الفلسطينية» حسب تصريح وزير الإعلام المصرى صفوت الشريف، جاء هذا الإعلان بعد ضغوط شعبية كبيرة، وتظاهرات يومية تطالب بقطع العلاقات مع إسرائيل، وطرد سفيرها، وفى تصريح يعكس حذر مصر من التورط فى أى مجابهة عسكرية، صرح د. مصطفى الفقى - رئيس لجنة العلاقات الخارجية فى البرلمان المصرى - فى اليوم نفسه بأن صدور قرار بطرد السفير الإسرائيلى «كان سيفتح جبهة على مـصـر، فى ظل ظروف ملتـهـبـة»، وأضـاف: «إننا نتـعـامل مع شـخص «شارون» الذى لا تقف تصرفاته عند حد، وردود الفعل لديه كانت دائمًا فى اتجـاهات تصـعـيـدية، ويمكن أن يرد على القـرار بأن يوعـز إلى جـيـشـه بالتحرش بالنقاط المصرية فى مدينة رفح مثلاً، وأن شارون لديه استعداد لهدم المعبد فوق الجميع».

شهدت القاهرة فى ٢٠٠٢/٤/٦ اجتماع وزراء الخارجية العرب، الذى كان من المفروض عقده فى يوم ٢٠٠٢/٤/٣، لكنه تأخر للاختلاف على تسمية المؤتمر، دعم الوزراء العرب خلال المؤتمر الرئيس الفلسطينى ياسر عرفات، وجاء فى البيان الصادر عن الاجتماع(❖):

(١) تحية من المجلس لانتفاضة الشعب الفلسطينى الشجاعة، ورفض المجلس أية محاولات للخلط بين المقاومة والإرهاب.

(٢) تجديد المجلس ثقته بالرئيس عرفات، ووقوفه معه، باعتباره مناضلاً فى سبيل استعادة الحقوق الوطنية للشعب الفلسطينى، ويعارض المجلس بكل قوة كل المحاولات والمناورات التى تستهدف المساس بالرئيس الفلسطينى.

(٣) تأكيد المجلس بعد اطلاعه على خطاب بوش على أهمية تنفيذ ما أعلنه من ضرورة إنهاء الاحتلال العسكرى الإسرائيلى للأراضى الفلسطينية، تطبيقًا لقرارات مجلس الأمن فى هذا الصدد، وإقامة الدولة الفلسطينية.

(٤) طرح الأمر على مجلس الأمن لاستصدار القرار اللازم، بموجب الفصل السابع من ميثاق الأمم المتحدة؛ لحمل إسرائيل على التنفيذ الفورى والكامل لتلك القرارات، ووقف عدوانها المتصاعد على الشعب الفلسطينى.

(٥) المطالبة بحماية المدنيين الأبرياء العزل كافة، وعدم تعريضهم لمخاطر الصراع العسكرى، والتطبيق الكامل لاتفاقية جنيف الرابعة المتعلقة بحماية المدنيين فى النزاعات المسلحة.

(٦) بتفنيد ما جاء فى البيان الختامى الصادر عن قمة بيروت، والقاضى بالتوقف عن إقامة أى علاقات مع إسرائيل فى ضوء انتكاسة عملية السلام، وتفعيل نشاط مكتب المقاطعة العربية لإسرائيل حتى تستجيب لتنفيذ قرارات الشرعية الدولية، ومرجعية مؤتمر مدريد للسلام.

(٧) التأكيد على أن المعاملة المنحازة التى تحظى بها إسرائيل من طرف بعض الدول، وخصوصًا الولايات المتحدة الأمريكية، جعلها تشعر وتتصرف، وكأنها دولة فوق القانون الدولى، وقرارات الأمم المتحدة؛ لذلك فإن المجلس يدعو هذه الدول إلى مراعاة ضرورة احترام الشرعية الدولية، وتطبيقها، وأن تعى أهمية المحافظة على مصالحها فى المنطقة العربية، وكما يرفض المجلس اعتبار ما تقوم به إسرائيل من ممارسات وعدوان، وكأنه فى إطار سياسة «الدفاع عن النفس» أو أن المقاومة «إرهاب» ويقرر دعم المقاومة الفلسطينية فى الأراضى المحتلة.

(٨) تأكيد التضامن التام مع سوريا ولبنان، ورفض التهديدات الإسرائيلية ضدهما، واعتبار أى عدوان عليهما، وعلى الشعب الفلسطينى، عدوانًا على الدول العربية جمعاء.

(٩) الإسراع فى تقديم الدعم المالى الذى قررته قمة بيروت لدعم صمود الشعب الفلسطينى، وتعزيز مقاومته ودعوة الشعوب العربية، عبر وسائل الإعلام المختلفة للتبرع لدعم الشعب الفلسطينى.

(١٠) التوجه إلى الفاتيكان ورؤساء الهيئات الدينية المسيحية والإسلامية بالشكر، على مواقفهم الداعمة للقضية الفلسطينية، ودعوتهم للتحرك لوقف ممارسات إسرائيل وانتهاكاتها للمقدسات الإسلامية والمسيحية.

(١١) وضع خطة التحرك العربية التى تم إقرارها من قبل المجلس موضع التنفيذ الفورى.

(١٢) إبقاء المجلس فى حالة انعقاد دائم لمتابعة التطورات والمستجدات.

كما عقد فى القاهرة أيضًا فى ٢٠٠٢/٤/٦ الاتحاد البرلمانى العربى اجتماعًا طارئًا، انتقد خلاله الدعم الأمريكى للعدوان الإسرائيلى، وطالب بإغلاق جميع المكاتب الإسرائيلية فى الدول العربية، وشدد رئيس الاتحاد د.فتحى سرور على ضرورة تكثيف الجهود العربية، حتى يحمل مجلس الأمن إسرائيل على تنفيذ قراراته، أو يتخذ ضدها التدابير المشار إليها فى الفصل السابع من ميثاق الأمم المتحدة لاستمرارها فى انتهاك حقوق الإنسان.

فى ٢٠٠٢/٤/٧ شدد مجلس الوزراء المصرى على الالتزام بتنفيذ قرار وقف جميع الاتصالات مع الحكومة الإسرائيلية، فيما عدا ما يخص القضية الفلسطينية، والبدء فورًا بتكليف الوزارات المعنية، بإعداد وتسليم شحنات مواد الإغاثة والإعاشة والإيواء، وتوفير المواد الضرورية من أغذية، وأدوية، ومستلزمات طبية، والتنسيق مع الصليب الأحمر لدفع الأطباء، والممرضين لعلاج الجرحى فى فلسطين، طبقًا لتوجيهات الرئيس مبارك.

رفض وزير الخارجية أحمد ماهر فى ٢٠٠٢/٤/٧ عقب لقائه مع كل من وزير الخارجية الأردنى مروان المعشر، ووزير الخارجية الأمريكى كولن باول أن تدين أى من الدول العربية المقاومة الفلسطينية للاحتلال الإسرائيلى، وكان بوش قد وجه دعوة إلى كل من مصر، والأردن، والسعودية؛ لإدانة العمليات الاستشهادية، بوصفها «إرهابًا» ووصف منفذيها «بالقتلة».

كما رفض اقتراحًا بعقد مؤتمر إقليمى للسلام، لا يشارك فيه كل من الرئيس الفلسطينى، وسوريا، ولبنان، وروسيا، والاتحاد الأوروبى إلا بعد انسحاب إسرائيل من الأراضى الفلسطينية، ومن ثم مشاركة الدول العربية ذات الشأن، والتى شاركت فى عملية مدريد، وهى سوريا، ولبنان، كما أصر

على أن تكون هناك مشاركة دولية فاعلة من الاتحاد الأوروبى والأمم المتحدة وروسيا.

جدير بالذكر أن الرئيس مبارك رفض مقابلة وزير الخارجية الأمريكى لدى زيارته القاهرة عائدًا من إسرائيل احتجاجًا على ممارسة باول الخداع، وتحيز الإدارة الأمريكية لإسرائيل.

ورفض مبارك عقد قمة عربية لدرس تفاقم الأوضاع فى الأراضى الفلسطينية؛ إذ تساءل عن المستجدات لعقد قمة ثانية، ولم يمض على قمة بيروت سوى فترة قصيرة، كما رفض أيضًا قطع العلاقات مع إسرائيل، وسحب مبادرة السلام العربية الآن، وحذر من أن معنى ذلك «إعطاء الفرصة لإسرائيل لتحل نفسها من أى التزام أو ارتباط، وتطلق يدها من دون رادع، وتحرر رقبتها من السلام، ويعطيها فرصة العمر للإفلات من حصار الرأى العام العالمى»، وشدد على أن قرار قطع العلاقات الدبلوماسية مع إسرائيل «قرار سيادى وليس قرار قمم».

على الصعيد الشعبى، توالت مظاهرات الغضب والاحتجاج فى الشارع المصرى منذ اليوم الأول بشكل يومى، وتلخصت أهم مطالب الجماهير فى:

(١) طرد السفير الإسرائيلى.

(٢) مقاطعة البضائع الأمريكية.

(٣) محاكمة شارون.

(٤) فتح باب «الجهاد» أمام الشباب المتطوعين.

وتواصلت حملة التبرعات لدعم الشعب الفلسطينى، من خلال جهات عدة، منها: جامعة القاهرة، الجامعة الأمريكية، اللجنة الشعبية لدعم

الانتفاضة، ومن خلال التنسيق مع الهلال الأحمر المصرى.

احتجاجًا على ممارسات إسرائيل انسحب الوزراء العرب من الجلسة خلال إلقاء وزير خارجية إسرائيل شمعون بيريز كلمته فى مؤتمر فالنسيا بأسبانيا يوم ٢٠٠٢/٤/٢٢.

العـــراق

حض العراق الدول العربية والإسلامية على استخدام النفط العربى «سلاحًا فى المعركة» ضد أمريكا وإسرائيل جاء ذلك فى ٢٠٠٢/٤/١ إثر مطالبة إيران باستخدام ذات السلاح، كما دعا العراق على لسان مندوبه فى الجامعة العربية محسن خليل فى اجتماع طارئ عقد فى ٢٠٠٢/٤/٢ إلى إغلاق سفارات الكيان الصهيونى فى العواصم العربية، وإلغاء أى شكل من أشكال العلاقة، والتنسيق معه، وعودة المقاطعة العربية ضده.

وأضاف بأن المشروع الذى تقدم به إلى الجامعة العربية، يشير إلى الانسحاب مما يسمى التحالف الدولى للإرهاب، حتى تقر الولايات المتحدة بأن ما يقوم به الكيان الصهيونى من حرب إبادة ضد الشعب الفلسطينى هو إرهاب.

كما ضم المشروع «استخدام المقاطعة الاقتصادية مع الولايات المتحدة، بما فى ذلك منع وصول النفط إليها، حتى تنهى تحالفها مع الكيان الصهيونى، وتجبره على الانسحاب من الأراضى المحتلة».

أعلن العـراق عن وقف صـادراته النفطيـة فى ٢٠٠٢/٤/٨، ودعـا البلدان العربيـة والإسـلاميـة إلى دعم معـركتـه مع واشنطن، اشتـرطت إيران وليبيـا حصول إجماع عربى لوقف إمدادات النفط، فيما عارضت السعودية، وقطر، والجزائر، وسبق للكويت أن أعلنت رفضها لهذا الاقتراح منذ أسبوع مضى.

يذكر بأن قـرار العراق هذا جاء بعد أقل من ١٢ سـاعة على انتهاء القـمة الأمـريكيـة - البـريطانيـة فى تكسـاس، التى أظهـرت وجـود تفـاهم بين لندن وواشنطن على اسـتـراتيجـية من ثلاثة محـاور: ضـرب العـراق، وبناء تحـالف دولى، وإقامة نظام عراقى بديل.

ويرى المحللون السـيـاسـيـون بأن أحد الأهـداف الاسـتـراتيـجـيـة للرئيس العـراقى صدام حـسين عبـر حظر النـفط غيـر رفضـه لانتهـاكات إسـرائيل، ودعم أمريكا لها قد يكون تعريض الاقتصادين الأمريكى والغربى إلى صدمة نفطية تطيح بآمـالهمـا فى الانتعـاش، وعندئذ فإن هـامش المناورة أمـام بوش لحشد الحلفاء ومكافأتهم سيكون محدودًا للغاية.

فى ٢٠٠٢/٤/٢٢ حـدد صـدام حـسـين خطة من ست نقـاط لاسـتـخـدام النفط سـلاحًا ضد أمريكا وإسرائيل شملت:

(١) تخـفـيض الدول العـربيـة المنتجـة للنفط الإنتـاج بنسـبـة ٥٠٪ بصـورة فردية، وأن تحرم الولايات المتحدة وإسرائيل من النصف الباقى المصدَّر، وأن تضع الدول العربية قيدًا على أى دولة أو شراكة يصدر إليها النفط، بمنعها من إعـادة تصديره إلى أمريكا، إلى أن «تتحقق مطالب الأمـة، وحقوق شعب فلسطين من غيـر مسـاومـة، أو تسـويف»، «وأن يكون موقـف العرب جمـاعيًا، ومن يشذ منهم يعتبر متخليًا عن واجبه إزاء أمته، وأمنها القومى».

(٢) تعـامل الدول التى تقف مـوقـفًـا مـتـفـهـمًـا أو مـؤيدًا للحق العـربى بإعطائهـا حصة من النفط المصدر تناسب موقفها، وتقلص الحصة وفقًا لما تسـجله مـواقـفـهـا تجـاه العـرب من تدن، وأن يعطى اهتـمـام خـاص للدول الأعضاء فى مجلس الأمن، خصوصًا الدول دائمة العضوية.

(٣) دعوة الدول الإسـلاميـة المنتجة للنفط للقيام بالخطوات ذاتها التى يقوم بها العرب.

(٤) عمل الدول النفطية العربية الأعضاء فى منظمة «أوبك» مع الدول الإسـلاميـة الأعـضـاء فى المنظمة لاسـتصـدار قـرار من «أوبك» يتـضـامن مع الإجراءات المقترحة.

(٥) متابعة وزراء الخارجية والنفط فى الدول النفطية تنفيذ الخطة، وأن تكون القمة العربية قادرة على تلبية الحاجة إلى عقد اجتماعات سريعة، كلما دعت الحاجة، وفقًا لتقدير عدد من الملوك والرؤساء تسميهم القمة نيابة عنها.

(٦) تهيئة العرب لمواجهة أى رد فعل أو عدوان متضامنين كحالة واحدة.

وفيما أكد الرئيس العراقى صدام حسين استعداد العراق لاستخدام أى سلاح يعيد الحقوق، ويكون أكثر قدرة فى التأثير، ويتضمن ذلك الجيوش، أمر بتخصيص ٢٥ ألف دولار لكل أسرة هدم منزلها فى جنين، وتواصلت المظاهرات فى العراق المنددة بالاعتداءات الإسرائيلية الوحشية على الشعب الفلسطينى، وتم تدشين شارع فى بغداد باسم الرئيس الفلسطينى ياسر عرفات فى ٢٠٠٢/٤/٤.

لبنـــان

أجرى الرئيس اللبنانى إميل لحود الذى يتولى رئاسة القمة العربية عدة اتصــالات مع كل من عــرفـات، ودول أوروبيــة لبـحث تدهور الأوضــاع فى المنطقــة، وذلك فى اليــوم الأول للاجـتـيـاح الإســرائيلى لمناطق السلطة الفلسطينية، فيما هاجم «حزب الله» ستة مواقع إسرائيلية فى منطقة مزارع شبعا المحتلة بالرشـاشـات والصـواريخ، وأعلن «تحـقـيق إصـابات مـبـاشـرة»، ومحذرًا إسـرائيل من المضى فى تصعيدها ضد الفلسطينيين، الذى ستكون له تبعات خطرة جدًا على العدو الصهيونى.

وحذر وزير الدفاع الإسـرائيلى بنيامين بن إليعازر لبنان وسوريا مؤكدًا بأن إسرائيل ستدافع عن نفسها.

تجدد التصعيد العسكرى على جبهة مزارع شبعا فى ٢٠٠٢/٤/٨، حيث قصف «حزب الله» عصرًا مواقع الجيش الإسـرائيلى، ووقعت إصابات بعد اندلاع حريق فى أحدها، وردت المدفعية الإسرائيلية بقصف منطقة المزارع، و١٢ قرية فى المناطق المحررة بالمدفعية الأرضية والغارات الجوية.

أعلن الجيش الإسـرائيلى عن استدعاء جنود من الاحتياط لنشرهم على الحدود مع لبنان، واعتبـر رئيس أركان الجيش الإسـرائيلى شاؤول موفاز أن حزب الله تجاوز الخطوط الحمراء.

وحين تمكنت القـوات الإسـرائيليـة المهـاجـمـة مـن تضـيـيق الخنـاق على المقاتلين فى مخيم جنين فى ٢٠٠٢/٤/٩ بادر الأمين العام لحزب الله السيد حسن نصـر الله إلى عـرض اسـتـبـدال هؤلاء المقـاتلين بضـابط المخـابرات

الإسرائيلى الذى كانت قوات حزب الله قد اعتقلته فى الأسابيع الأولى من اندلاع الانتفاضة.

أعلن السفير الأسبانى فى بيروت ميجيل انجيل كاربيدو، الذى ترأس بلاده الاتحاد الأوروبى، أنه نقل إلى لبنان «تنبيهًا وديًا» وجددت الحكومة اللبنانية التزامها ضبط النفس، وأكدت على لسان وزير خارجيتها محمود حمود أنه «ليس فى نية لبنان فتح جبهة جديدة» إلى ذلك، أعلن الأمين العام لحزب الله السيد حسن نصر الله عن استمرار العمليات فى منطقة مزارع شبعا اللبنانية، وحذر من أنه إذا قام شارون بعملية تهجير جماعية للفلسطينيين تسقط عندها كل الحسابات والاعتبارات، ولن يتردد فى القيام بأى شىء، ونحتفظ بالسلاح لتلك اللحظة.

قصف حزب الله مواقع إسرائيلية داخل مزارع شبعا فى ٢٠٠٢/٤/١٧، وطلب لحود فى اتصالات أجراها مع سفراء لبنان فى الدول الكبرى والكرسى الرسولى، وأسبانيا، بصفتها الرئيسة الحالية للمجموعة الأوروبية إبلاغ الحكومات المعتمدين لديها بالتطورات فى الأراضى المحتلة للضغط على إسرائيل من أجل وقف عدوانها على كنيسة المهد.

قاطعت لبنان المؤتمر الأوروبى المتوسطى الذى عقد فى فالنسيا الأسبانية بتاريخ ٢٠٠٢/٤/٢٢ بعد رفض اقتراح تقدمت به سوريا، لتعليق مشاركة إسرائيل بسبب انتهاكها القانون الدولى والمواثيق الإنسانية، وتواصلت المظاهرات والاعتصامات فى لبنان احتجاجًا على المذابح الإسرائيلية فى الأراضى المحتلة.

رفضت إسرائيل اقتراحًا تقدم به «حزب الله» فى ٢٠٠٢/٤/٢٨ يقضى

بمبادلة أسرى إسرائيليين لديه، مقابل الإفراج عن الفلسطينيين المحاصرين فى كنيسة المهد فى بيت لحم، ومقر الرئيس الفلسطينى؛ حيث عرض التفاوض من خلال أى وسيط ممكن للتوصل إلى إطلاق سراح الفلسطينيين الأربعة المتهمين بقتل وزير السياحة الصهيونى رحبعام زئيفى، والمحاصرين فى رام الله، وقال ناطق باسم وزارة الدفاع الإسرائيلية إن اقتراح حزب الله ليس جديدًا، واصفًا إياه بـ «مناورة دعائية نرفضها» واعتبر أن الاقتراح يعكس نية حزب الله التدخل فى النزاع.

ســــــوريـا

أعادت سورية نشر قواتها فى الأراضى اللبنانية فى ٢٠٠٢/٤/٤ تحسبًا لأى احتمالات يمكن أن تطرحها المواجهات فى الأراضى المحتلة، وحرصًا منها على تبريد الجو السياسى، تجنبًا لأى ضغوط محتملة يمكن أن تمارس عليها عبر لبنان.

ونفت مصادر مطلعة أن تكون سوريا استدعت قوات الاحتياط فى الجيش، فقد أكدت سوريا رفضها «تصعيد الأوضاع» فى الشرق الأوسط، مشيرة إلى أن شارون يسعى إلى استفزاز الدول العربية من خلال استمرار عدوانه الوحشى على الشعب الفلسطينى.

من جهة أخرى قاطعت سوريا مؤتمر فالنسيا بأسبانيا، فى ٢٠٠٢/٤/٢٢، احتجاجًا على ممارسات إسرائيل فى الأراضى المحتلة، واستمرت المظاهرات فى سوريا منذ اليوم الأول للاجتياح منددة بالعدوان الإسرائيلى.

الأردن

خرجت مظاهرات غاضبة فى مخيم الوحدات فى العاصمة عمان، فى اليوم الأول للاجتياح، دعت هذه المظاهرات إلى الجهاد، ومواجهة الهجمة الصهيونية الأمريكية، فى اليوم التالى استدعى وزير الخارجية الأردنى مروان المعشر السفير الإسرائيلى فى عمان دافيد دادون، وأعرب له عن غضب الحكومة الشديد، وإدانتها المطلقة للتصرفات الإسرائيلية غير المسؤولة، خلال الأيام الأخيرة، موضحًا بأنه ليس من المعقول، ولا توجد ذريعة تبرر محاصرة الرئيس الفلسطينى، وقطع المياه والكهرباء عن مقره، وحذر المعشر إسرائيل قائلاً: إن الحكومة الأردنية ستتخذ إجراءات محددة، فى حال عدم استجابة إسرائيل لهذا الطلب، والمعروف أن عمان لم ترسل سفيرها المعين لدى تل أبيب عبد الله الكردى، لتسلم منصبه، منذ تعيينه فى أكتوبر/ تشرين الأول ٢٠٠٠، كما استدعى المعشر سفراء الدول الخمس دائمة العضوية فى مجلس الأمن الدولى، ونقل إليهم طلب الحكومة الرسمى فى أن تكون هناك قوات أمن دولة من الأمم المتحدة للفصل بين الجانبين.

غادر المعشر إلى واشنطن فى ٢٠٠٢/٤/٤ ناقلاً تحذيرًا إلى الإدارة الأمريكية من استمرار دعمها، وتغطيتها للعمليات العسكرية فى الأراضى الفلسطينية، ومن انعكاس ذلك على المنطقة، وصرَّح للصحافة بأنه إن تجاهلت واشنطن المواقف الأردنية، فإنها ستتخذ «مواقف متشددة» ولم يستبعد المعشِّر مغادرة السفير الإسرائيلى عمان.

وبالرغم من هذه اللهجة المتشددة المحذرة، فإن الحكومة الأردنية حذرت المعارضة الأردنية من إثارة شغب قبل وصول كولن باول إلى المنطقة، وفى

تصـريح جـديد للحكومـة الأردنيـة رفض رئيس الوزراء الأردنى على أبو الراغب فى ٢٠٠٢/٤/١١، فكرة طرد السفير الإسرائيلى من عمان، موضحًا بأن «الأردن عازم على توظيف علاقاته الدبلوماسية مع إسرائيل لمساعدة الأشقاء الفلسطينيين سياسيًا، واقتصاديًا، وماديًا باعتبار الأردن النافذة الوحيدة لإيصال المساعدات الأردنية والعربية».

أعلن الأردن أنه أرسل طائرتين محملتين بالأدوية والأغذية والأدوات الطبية إلى مقر الرئيس ياسر عرفات فى رام الله، ويشكل الأردن النافذة الأساسية لإيصال المساعدات الإنسانية للأراضى الفلسطينية منذ بدء الهجوم الإسرائيلى على الأراضى الفلسطينية فى ٢٠٠٢/٣/٢٩، كما وصلت إلى عمان يوم ٢٠٠٢/٤/١٦ قافلة من السيارات آتية من دمشق تحمل مساعدات من سوريا، وتتضمن مواد غذائية ومستلزمات طبية مختلفة، وكانت قد وصلت عمان يوم ٢٠٠٢/٤/١٤ طائرة تونسية تحمل أغذية وأدوية إلى الشعب الفلسطينى.

شدد المعشر على أولوية الانسحاب، ومشاركة عرفات فى مؤتمر دولى، جاء ذلك بعد زيارته للرئيس الفلسطينى، فى مقره المحاصر فى رام الله فى ٢٠٠٢/٤/١٨، التقى العاهل الأردنى صباح ٢٠٠٢/٤/٢٢ برئيس وزراء بريطانيا تونى بلير، بهدف بلورة موقف دولى حازم للضغط على إسرائيل لسحب قواتها من الأراضى الفلسطينية المحتلة، وإنهاء الاحتلال الإسرائيلى، وتفعيل دور بريطانيا والدور الأوروبى فى القضية الفلسطينية، وكان العاهل الأردنى قد التقى بولى العهد السعودى الأمير عبد الله بن عبد العزيز فى الدار البيضاء بعدما أنهى محادثاته مع الرئيس المصرى حسنى مبارك فى

٢٠٠٢/٤/٢١.

عملت الأردن على «ضبط» الشارع الأردنى، فقد كانت قد أحبطت مسيرة الزحف المقدس فى ٢٠٠٢/٤/١٢ لإغلاق السفارة الإسرائيلية، واعتقلت السلطات الأردنية فى ٢٠٠٢/٤/٢٣ ستة نشطاء ينتمون إلى «حزب التحرير الإسلامى» المحظور بعدما وزعوا مذكرة تدعو الأردن إلى إرسال قوات عسكرية لنجدة الفلسطينيين.

كما ذكرت صحيفة «الحياة فى عددها الصادر فى ٢٠٠٢/٤/٢٦ أن السلطات الأردنية أوقفت إلى أجل غير محدود حملة إعلانية ضخمة، كان مقررًا أن تطلقها ٥٠ وكالة دعاية وإعلان فى الأردن بهدف زيادة الوعى العربى والعالمى بمعاناة الشعب الفلسطينى تحت الحصار، وأوضح أحد المنظمين أن «جهة مسؤولة» اتصلت باللجنة المشرفة على تنفيذ الحملة لإبلاغها بضرورة وقف الحملة؛ لأن اللجنة لم تحصل على أذونات كافية.

السعودية

فى يوم ٢٠٠٢/٤/١ ندد مجلس الوزراء السعودى بالعدوان الإسرائيلى والاعتداءات على مقر عرفات، وكان ولى العهد السعودى الأمير عبد الله ابن عبد العزيز قد أكد بأن واشنطن وعدته بضمان سلامة الرئيس الفلسطينى.

وتجاهل المؤتمر الطارئ الذى عقدته «منظمة المؤتمر الإسلامى» فى كوالامبور فى ٢٠٠٢/٤/٢ اقتراح بغداد استخدام سلاح النفط، وذكر وزير الخارجية السعودى الأمير سعود الفيصل، بأن العرب بأمس الحاجة إلى

نفطهم لأغـراض التنمـيـة، وأنهم إذا أرادوا تعـزيز أنفـسـهم أمـام الهـجـمـة الإسرائيلية فلا خيار أمامهم سـوى الاستمرار فى استغلال نفطهم، ولا يمكن دعم الانتفاضة بغير النفط.

صـرح الأمير بندر بن سلطان سفيـر السـعودية لدى الولايات المتحدة فى ٢٠٠٢/٤/٣ أن السـعـودية «لا تؤيد الفلسـطينيـين الـذين يقـومـون بتـفـجـيـر أنفسهم فى هجمات على مدنيين إسرائيليين، لكن من الصعب منع محبطين مستـعـذين للمـوت»، وأضـاف: «إننى أدين الهـجـوم علـى مـدنيين إسـرائيليين والأبرياء، لكننى أؤيد مقاومة الاحتلال العسكرى المفروض على ثلاثة ملايين فلسطينى يتعرضون لعقاب جماعى».

ونبه إلى أن الهجوم الإسـرائيلى الكاسح على المدن الفلسطينيـة سيعرض للخطر مـا تحـقق من دعم قدمته الدول الإسـلامـيـة للحـرب الأمـريكيـة على الإرهاب بعد هجمات ٢٠٠٢/٩/١١ .

قال وزير النفط السعودى فى ٢٠٠٢/٤/٩ «نحن ملتزمون سـوقًا مستقرة، وسـعـرًا عـادلاً، وإمـدادات مسـتـقـرة، وذات اعـتمـادية» ورفض النعيـمـى ربط تطورات الشرق الأوسط باحتمال حصول تغييرات مفاجئة فى أسعار النفط بعد قرار العراق وقف تصدير نفطه احتجاجًا على الاعتداءات الإسرائيلية قائلاً: «الموقفان غير مرتبطين، يظل الأول سياسيًا، والآخر اقتصاديًا».

صـرح ولى العهد السـعودى فى إشـارة إلـى مـحـادثاته مع وزير الخـارجيـة الأمـريكى فى ٢٠٠٢/٤/٦ إننا تحدثنا مع وزير الخـارجيـة الأمـريكى، دعـوناه إلى أن تبـادر الولايات المتـحـدة بالدعـوة إلى انسـحـاب إسـرائيل الفـورى من الأراضى الفلسطينيـة المحتلة مـراعـاة لصـدقـيـتـهـا فـى العـالمين العـربى

والإسلامى، وحفاظًا على مصالحها فى المنطقة.

حدد وزير الخارجية السعودى الأمير سعود الفيصل ست نقاط من أجل الخروج من الأوضاع الحالية فى الشرق الأوسط، وهى: الانسحاب الفورى للقوات الإسرائيلية من المناطق الفلسطينية، رفع الحصار على عرفات، تأمين حماية دولية للشعب الفلسطينى بحسب توصيات الأمين العام للأمم المتحدة كوفى أنان، معاودة تأهيل السلطة الفلسطينية، استكمال خطة تينيت وتوصيات ميتشل، استنادًا إلى مفاوضات مقبلة على مبدأ الأرض مقابل السلام، واستبعد استخدام سلاح النفط، الأمر الذى أكده وزير النفط السعودى على النعيمى فى ٢٠٠٢/٤/٢٢ قائلاً: «إن السعودية وغيرها من الدول المنتجة للنفط فى «أوبك» ستعوض أى نقص يطرأ فى السوق النفطية».

التقى ولى العهد السعودى العاهل الأردنى فى الدار البيضاء بتاريخ ٢٠٠٢/٤/٢٢، ونقلت الأنباء السعودية تأكيدها على ضرورة انسحاب القوات المعتدية من أراضى السلطة الفلسطينية، ووقف سفك دماء الشعب الفلسطينى».

وفى لقائه بالرئيس الأمريكى جورج دبليو بوش فى ٢٠٠٢/٤/٢٥ حرص ولى العهد الأمير عبد الله على دحض ادعاء شارون أن إسرائيل تخوض الحرب على الإرهاب مثل أمريكا.

ذكرت صحيفة «الحياة» فى ٢٠٠٢/٤/٢٦ أن مسؤولاً أمريكيًا لم يذكر اسمه، قال: «إن الولايات المتحدة تدعم، وستحاول إيجاد وسائل لمساعدة السعودية على الانضمام إلى منظمة التجارة الدولية»، وأوضح المسؤول أن

الطرف الأمريكى أراد البحث فى ما قام به السعوديون للمساعدة فى وقف تمويل الإرهابيين، وزاد أن المباحثات ستتطرق إلى «المرحلة المقبلة من الحرب على الإرهاب»، وموضوع العراق.

وأكد بوش بأن أمريكا ستوفر للسعوديين مساعدة تقنية لمساعدتهم فى شق الطريق إلى دخول منظمة التجارة الدولية، فيما تعهدت السعودية علنًا بأنها «لن تستخدم النفط سلاحًا».

وبعد يوم من لقائه بولى العهد السعودى عاد بوش للحديث عن الانسحاب الإسرائيلى، وكان ولى عهد السعودية قد قدم للبيت الأبيض ثمانى مقترحات لحل الأزمة، وتشمل: الانسحاب الإسرائيلى الكامل من الأراضى التى أعادت إسرائيل احتلالها، وإنهاء الحصار العسكرى لرام الله، ومقر الرئيس عرفات، والذى تجاوز ٤ أسابيع، وإيفاد قوات متعددة الجنسية «الأمر الذى لم يلق قبولاً» حيث استبعده رامسفيلد، وإعادة بناء المناطق الفلسطينية المدمرة، ونبذ العنف، والبدء فورًا بالمحادثات السياسية، إنهاء المستوطنات، تنفيذ القرار ٢٤٢ الذى طالب بانسحاب إسرائيل من الأراضى التى احتلتها عام ١٩٦٧.

هذا ومدد ولى العهد السعودى زيارته للولايات المتحدة إلى يوم ٢٠٠٢/٤/٢٩، كى يعود إلى المنطقة بحصيلة فك الحصار على عرفات، بعدما نقل إلى بوش موافقة فلسطينية على صيغة تعالج قضية المطلوبين «الفلسطينيين الذين تطالب إسرائيل بتسليمهم، وتتضمن قيام مراقبين حياديين بمراقبة محاكمة الأشخاص المشتبه فى تورطهم فى أعمال «إرهابية»، وأعلن البيت الأبيض أنه رحب بقرار إسرائيل قبول إشراف دولى

على ستة مطلوبين فى مقر عرفات، وشددت السعودية على عدم الاكتفاء بفك الحصار، وإنما خروج إسرائيل من الأماكن التى أعادت احتلالها، وإنما الإصرار على الإسراع فى عملية ضم القرارات الدولية والمبادرة السعودية فى جهد مشترك نحو التسوية».

من ناحية أخرى دعا مفتى السعودية إلى نصرة الفلسطينيين، بكل الطرق الممكنة، حيث قال إن الإسرائيليين طغاة، ومن يساعدهم ظلمة وحاقدون، وبلغت حملة التبرعات النقدية خلال الحملة التى نظمها تليفزيون وإذاعة المملكة العربية السعودية ما يزيد عن ٤١٠ ملايين ريال سعودى، إضافة إلى التبرعات العينية حسب ما نشر فى الحياة (٢٠٠٢/٤/١٥).

المغــرب

زار وفد من الطائفة اليهودية السفارة الفلسطينية فى الرباط يوم ٢٠٠٢/٤/٤ حيث أعرب عن «ذهول الطائفة اليهودية فى المغرب إزاء العزل المفروض على رئيس السلطة الفلسطينية» بحسب بيان لمجلس الطائفة، وطالب بوضع حد للوضع غير المقبول السائد، وذلك عبر تطبيق قرارات الأمم المتحدة.

وقد شهدت العاصمة المغربية الرباط فى ٢٠٠٢/٤/٧ واحدة من أكبر التظاهرات الجماهيرية المؤيدة للشعب الفلسطينى، شارك فيها نحو مليون متظاهر، وحشدت جميع الأحزاب السياسية المغربية أنصارها إلى جانب نقلها المتظاهرين إلى العاصمة من أنحاء المغرب.

فى استعجال واضح للإدارة الأمريكية كى تضغط على إسرائيل لوقف

اعتداءاتها، قال الملك محمد السادس لوزير الخارجية الأمريكى كولن باول الذى زار المغـــرب فى ٢٠٠٢/٤/٨ «كنت آمل أن تبـــدأ زيارتك الراهنة من القدس» وجرت محادثات بشأن آخر التطورات فى الأراضى المحتلة، وقد تمنى الملك محمد السادس من باول أن يجتمع مع الرئيس الفلسطينى ياسر عرفات الذى يمثل الشرعية الفلسطينية، استمرارًا لدعم المغرب لأشقائه فى فلسطين، أعلن مصدر مغربى رسمى فى يوم ٢٠٠٢/٤/١٦ أنه تم إرسال طائرة محملة بكميات كبيرة من الأدوية لمساعدة الفلسطينيين، جاء ذلك بأمر من العاهل المغربى الملك محمد السادس - رئيس لجنة القدس التابعة لمنظمة المؤتمر الإسلامى. فى ٢٠٠٢/٤/٢٢ التقى الملك محمد السادس بالعاهل الأردنى الملك عبد الله فى الرباط؛ حيث جرت محادثات بشأن انتهاكات إسرائيل المستمرة وهجماتها.

خلال محادثات الملك محمد السادس مع الرئيس بوش فى البيت الأبيض فى ٢٠٠٢/٤/٢٣ وافق العاهل المغربى على مؤتمر السلام المقترح فى حال المشاركة الكاملة للوفد الفلسطينى الذى يقوده عرفات.

وقال وزير الخارجية المغربى السيد محمد بن عيسى أن هذا التوجه يجب أن يتبلور فى اجتماع على مستوى وزراء الخارجية، وفى حالة النجاح تحصل الدعوة إلى عقد قمة، ورأت مصادر ديبلوماسية فى موقف المغرب، الذى يعتبر داعمًا أساسيًا لمبادرة السلام العربية، نوعًا من المرونة قد تكون لها علاقة بضمانات أمريكية حصل عليها العاهل المغربى لجهة تحريك مفاوضات السلام.

ليبيــــــا

قاد العقيد معمر القذافى - قائد الثورة الليبية - تظاهرة حاشدة فى ٢٠٠٢/٤/١ شارك فيها عشرات الآلاف من المتظاهرين تضامنًا مع الشعب الفلسطينى ورئيسه عرفات، وقال القذافى مخاطبًا حكام العرب: «أتحدى العرب أن يفتحوا حدودهم للمتطوعين الليبيين للتوجه إلى القدس، وللتضامن مع أبو عمار (....) لماذا ينفقون الملايين على جيوشهم إذا لم تدافع عن المرأة والطفل العربيين؟! ودعا إلى «تسريح هذه الجيوش، وبيع الدبابات والصواريخ كخردة» كما طالب الحكام العرب بالخروج إلى الشوارع وقيادة التظاهرات، ليعلنوا ولو بشكل فردى تنصلهم من مبادرة قمة بيروت».

كما أعلنت المؤتمرات الشعبية الليبية، وقوفها الكامل واللامحدود مع الشعب الفلسطينى الصامد والشجاع، وقد حمل الزعيم القذافى، على الدول العربية، وشكك فى صدقية قراراتها فى شأن قطع علاقاتها مع إسرائيل، معتبرًا أن مكاتب رعاية المصالح والسفارات الإسرائيلية لن تحمى العرب من «قطار الموت الإسرائيلى».

وذكر أن «مكاتب رعاية المصالح التجارية والسفارات الإسرائيلية فى الدول العربية لن تحميهم من قدوم قطار الموت الإسرائيلى» كما وصف اجتماع وزراء الخارجية العرب فى القاهرة بأنه «ميت وسخيف».

وقد أرسلت ليبيا مساعدات إلى الفلسطينيين عبر الجسر الجوى الذى أقامته الجماهيرية الليبية إلى الأردن، ورفضت إسرائيل إدخالها بحسب ما جاء فى الحياة (٢٠٠٢/٤/١٥).

اليمــــــن

خـرجـت مظاهـرات فـى صنعـاء منـذ اليـوم الأول للاجـتـيـاح الإسـرائيلى لمناطق السلطة الفلسطينيـة، وطالبت هذه المظاهـرات بقطع العـلاقـات مع إسرائيل، وإعلان الجهاد.

وكـان للرئيس اليمنى على عـبـد الله صـالح وسـيلة فـريدة من نوعـهـا فـى الإعراب عن احتجاجه، فاعتكف مقاطعًا الاتصالات واللقاءات والمقابلات مع القـادة والحكومات العـربية ذات الطابع الرسمى احتجـاجًا على عـجـز العـرب عن مـواجهة العـدوان الإسـرائيلى، اسـتمر هـذا الاحـتجـاج خمسـة أيام بدأها فى ٢٠٠٢/٤/١ وقـالت مـصـادر يمنيـة مـقـربة إن هـذا الاحـتجـاج مـقـصـود به دول عربية بعينها بحسب ما جاء فى صحيفة الحياة (٢٠٠٢/٤/٢).

وذكـرت صـحـيـفـة «الثورة» اليمنية فـى ٢٠٠٢/٤/١١ أن اللجنة العليا لدعم الانتـفـاضـة الفلسطينيـة حـولت ٣,٨ مليون دولار إلـى صندوق الانتـفـاضـة، وأوضحت أن هذا المبلغ جمع من تبرعات المواطنين، وأنه سيتم التبرع بأجر يوم كـامل من مـرتبـات جـمـيع مـوظفـى الدولة، والقطاع الخـاص لتحـويله لمصلحة الانتفاضة.

ويرفض يهـود اليـمن المجـازر الإرهـابيـة التـى ينفـذهـا جـيش الاحـتـلال الإسـرائيلى، بقـيادة إرييل شـارون، وذكـر فـايز الجـراوى - مـدرس للتوراة فـى مـدينة ريدة «مـحـافظة عـمـران» - فـى تحـقيق نشـرته صـحـيفـة «الثورة» فـى ٢٠٠٢/٤/٢٧ أن شـارون بسلوكـه هـذا يؤكـد بعـده عن الـدين اليـهـودى، مـا يحدث فـى فلسطين لا يقبله ديننا، وترفضـه جميع الديانات السـمـاوية، كما

طالب يهود يمنيون بفتح باب الجهاد لمقاتلة شارون الإرهابى بحسب ما جاء فى الصحيفة.

البحريـــــن

دعت البحرين على لسان وزير الدفاع - نائب القائد العام - الفريق الركن خليفة بن محمد آل خليفة فى ٢٠٠٢/٤/٢ الدول العربية التى ترتبط بعلاقات مع إسرائيل إلى قطعها احتجاجًا على الاعتداءات، وانتقد الوزير الدول الأعضاء فى مجلس الأمن، ودعاها إلى أن تقف بقوة ووضوح إلى جانب العدل والشرعية الدولية.

قامت مظاهرات حاشدة فى المنامة فى ٢٠٠٢/٤/٥ رشق خلالها المتظاهرون السفارة الأمريكية بالزجاجات الحارقة، كما حاولوا اقتحامها، وجاء ذلك فى رد فعل على تصرف السفير الأمريكى رونالد نيومان الذى أثار استياء منظمى مؤتمر نموذخ الأمم المتحدة الذى ينظم فى البحرين سنويًا لطلاب المدارس؛ حيث طلب من المشاركين فى المؤتمر الوقوف دقيقة صمت حدادًا على أرواح القتلى الإسرائيليين.

ذكرت الصحف البحرينية فى ٢٠٠٢/٤/٦ أن المؤتمر القومى العربى الثانى عشر طالب فى ختام أعماله فى المنامة بمد الانتفاضة بالدعم السياسى والعسكرى والمادى، وإلغاء معاهدات السلام، ودعا المؤتمر إلى وقف كل أشكال التطبيع الاقتصادى، والتجارى، والسياحى، والدبلوماسى، والثقافى مع إسرائيل، ووقف التعاون الأمنى مع الدولة العبرية، وأكد المؤتمر فى إعلان المنامة ضرورة إلغاء معاهدة كامب ديفيد، واتفاقيتى وادى عربة،

وأوسلو وتوابعهمـا، وإسقـاط الأحكام والالتـزامات الناجـمة عنها، وإقـفـال المثليات الإسرائيلية فى البلاد العربية فى إسرائيل.

كما طالب المؤتمر باتخاذ خطوات سياسية، ودبيلوماسية فى مواجهة الولايات المتحدة احتجاجًا على الانحياز الأمريكى السافر لإسرائيل، وحصار العراق، والتهديد بالعدوان عليه، واقترح المشاركون الامتناع عن زيارة المسؤولين العرب واشنطن، واستدعاء السفراء العرب من واشنطن، وربط إعادتهم بتغيير سياساتها.

ونشرت صحيفة الحياة فى ٢٠٠٢/٤/٢٥ أن بحرينيين يضربون عن الطعام احتجاجًا على الجرائم الإسرائيلية، وطالبوا بطرد السفير الأمريكى، ورفعوا لافتات كتب عليها «الأساطيل الأمريكية قواعد متقدمة للصهاينة» والجدير بالذكر أن البحرين هى المقر الرئيس للأسطول الأميركى الخامس.

فى تونس أعلن مجلس الوزراء التونسى إدانته للعدوان الإسرائيلى على الشعب الفلسطينى، وقيادته الشرعية، وتم تنظيم حملة وطنية للتبرع بالدم، وفتح حساب لجمع التبرعات، وشهدت العاصمة فى ٢٠٠٢/٤/٥ تظاهرات حاشدة تضامنًا مع الشعب الفلسطينى.

ونشرت صحيفة الحياة فى ٢٠٠٢/٤/٧ أن مجلس وزراء الداخلية العرب أعرب - من تونس حيث مقره - عن استنكاره محاولات تركيع الشرطة الفلسطينية التى تقف ببسالة فى وجه المعتدين الطغاة، وحض المجتمع الدولى على الإسراع إلى نصرة الشعب الفلسطينى، وتقديم جميع أشكال الدعم والمساندة للشرطة الفلسطينية.

فى الجزائر أعلنت الرابطة الجزائرية لحقوق الإنسان برئاسة بوجمعة

غشير – حسب ما نشر فى الحياة فى ٢٠٠٢/٤/٥ – أن جمعًا من مناضليها يعتزم الالتحاق بدعاة السلام المحيطين بالرئيس عرفات المحاصر فى رام الله، وأوضحت الرابطة فى بيان لها أن المساعى تبذل مع الجمعية الفلسطينية لحقوق الإنسان والبيئة فى القدس من أجل القيام بالترتيبات اللازمة، وكانت وزارة الداخلية الجزائرية قد رفضت إعطاء ترخيص للتظاهرات الشعبية التضامنية مع الشعب الفلسطينى، وتعتقد بعض الأوساط السياسية أن السبب هو تردى الأوضاع الأمنية، وعودة الجماعات الإسلامية إلى تنفيذ تهديداتها بوضع القنابل فى الأماكن العمومية وسط العاصمة الجزائرية، والدليل على ذلك إرسال قسم كبير من قوات مكافحة الشغب إلى منطقة القبائل لمواجهة الاضطرابات هناك، وترى بعض القوى السياسية مثل: جبهة القوى الاشتراكية أن حظر المسيرات الشعبية يعود بالأساس إلى خوف الحكم من غضب الشارع، خصوصًا مع تردى الوضع الاجتماعى والاقتصادى، غير أن هناك من يعتقد أن التعامل «الحذر» للرئيس الجزائرى عبد العزيز بوتفليقه مع تطورات القضية الفلسطينية عائد إلى الفتور بينه وبين عرفات، وكان بوتفليقه قد انتقد عرفات فى أواخر عام ألفين متهمًا إياه بعدم قول الحقيقة، فيما يتعلق بالمفاوضات مع رئيس الوزراء الإسرائيلى السابق إيهود باراك فى كامب ديفيد. فى ٢٠٠٢/٤/٢١ طالب الرئيس الجزائرى عبد العزيز بوتفليقه بقوة دولية لحماية الشعب الفلسطينى.

وفى قطر ذكر وزير الطاقة والصناعة القطرى عبد الله العطية فى ٢٠٠٢/٤/٨ أن أوبك ستتدخل إذا حدث نقص فى إمدادات النفط، لإعادة التوزان بين العرض والطلب، ولكن إذا كان هذا «التوازن» غير متوافر حاليًا،

فلن نذهب إلى أى زيادة تحت تأثير السعر السياسى، وتابع «إن أوبك منظمة دوليـة، وليـست عـربيـة، ولا عـلاقـة لهـا بما يحـصل من أمـور فى الشـرق الأوسط»، ورأى «أن العـرب إذا اسـتخـدمـوا سـلاح النفط فإن ذلك سيـرتد عليهم سلبًا، وسيعاقب هذا الأمر دولاً صديقة، ونامية، ويؤدى إلى ارتفاع الأسعار ارتفاعًا كبيرًا فى فترة قصيرة، ملحقًا ضررًا كبيرًا بدول نامية صديقة».

أما فى الكويت فقد طالب ٧٠٠٠ شخص بطرد السفير الإسرائيلى من الأردن، ومصر، وتم جمع تبرعات لصالح الانتفاضة كما جاء فى صحيفة الحياة ٢٠٠٢/٤/٩، وتبرع أمير الكويت فى ٢٠٠٢/٤/١٦ بـ ٢,٢ مليون دولار لصالح الانتفاضة.

فى الإمارات بدأت حملة تبرعات بدأها الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان بإعلانه كفالة ٥٠٠٠ يتيم، ووصلت التبرعات إلى ٣١ مليون دولار، كما توالت مظاهرات الاحتجاج على ممارسات إسرائيل، وتأييدًا للشعب الفلسطينى، ودعت أبو ظبى لمحاكمة شارون، وقطع العلاقات مع إسرائيل.

ونشرت الحياة فى ٢٠٠٢/٤/١٠ أن ولى عهد دبى، وزير الدفاع الإماراتى الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم دعا مجلس الأمن إلى تطبيق الفصل السابع من ميثاق الأمم المتحدة ضد إسرائيل؛ حيث صرح أن مجلس الأمن لجأ إلى الفصل السابع ضد العراق، حين احتل الكويت، وضد أندونيسيا لحماية شعب تيمور الشرقية، وضد يوغوسلافيا لحماية شعوب البوسنة وكوسوفو، وتساءل لماذا لا يستخدم الفصل السابع ضد إسرائيل، التى ترتكب المجازر بحق الفلسطينيين، وترفض تنفيذ قرارات الشرعية الدولية؟

يذكر أن الفصل السابع من ميثاق الأمم المتحدة باتخاذ إجراءات رادعة من بينها اللجوء إلى القوة لتطبيق قراراته، وأضاف الشيخ محمد بن راشد: «لا أحد فى العالم يصدق أن أمريكا عاجزة على إلزام إسرائيل بالانسحاب».

أكد اتحاد غرف مجلس التعاون الخليجى باسم رجال الأعمال والقطاعات التجارية والاقتصادية فى بيان أصدره فى ٢٠٠٢/٤/١٣ مساندته الكفاح الفلسطينى، مؤكدًا استنكاره الشديد لما يجرى فى الأراضى المحتلة فى ٢٠٠٢/٤/٣٠، يزور الرئيس المصرى حسنى مبارك دولة الإمارات العربية لعقد قمة مع رئيس الدولة الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، تتناول آخر التطورات فى المنطقة، ونتائج زيارة ولى العهد السعودى الأمير عبد الله ابن عبد العزيز للولايات المتحدة الأمريكية، وجهوده فى إنهاء حصار مقر الرئيس الفلسطينى ياسر عرفات.

فى موريتانيا دعا الحزب الجمهورى الديموقراطى الحاكم فى ٢٠٠٢/٤/٢ إسرائيل إلى الوقف الفورى لعمليات الاجتياح والحصار، وأعمال العنف كافة، والعودة إلى عملية السلام كخيار استراتيجى لا محيد عنه.

أما السودان فكان لها موقف مغاير، فقد دعا الرئيس السودانى عمر حسن البشير الأمة العربية لوقف محادثات السلام مع إسرائيل، والاستعداد عسكريًا لمعركة فاصلة مع اليهود، وأمر بفتح معسكرات التدريب السودانية، وتوجه كل من نال تدريبًا عسكريًا إليها، وأشاد بالرئيس الفلسطينى ياسر عرفات، وشعبه وقال: «نحن فى السودان معكم فى خندق واحد» وخرجت مسيرة حاشدة، فى ٢٠٠٢/٤/٨ قدر عدد المتظاهرين فيها بمليون شخص، دعمًا للشعب الفلسطينى، واحتجاجًا على ممارسات إسرائيل وانتهاكاتها الصارخة.

وهكذا طوال شهر كامل مارس فيه رئيس الوزراء الإسرائيلى إرييل شارون أبشع الجرائم والتعذيب، والحصار بحق شعبنا الفلسطينى، واستخدم خلالها أنواع الأسلحة المختلفة، لم يتجاوز رد فعل الحكومات العربية أكثر من التنديد بهذه الممارسات، وإعلان التضامن مع الشعب الفلسطينى، ومناشدة دول العالم التدخل، وإجراء اتصالات مع كافة دول العالم يكرر فيها نفس الحديث، وفى أحسن الأحوال إرسال دعم مالى لمساعدة من تضرر، ولكن لم يتم التدخل لإيقاف ما يحدث وما سيحدث باستثناء «حزب الله» الذى اتخذ موقفًا واضحًا، والعراق باستخدامه سلاح النفط، ولم تحرك الدول العربية ساكنًا حين ناشد وزير الإعلام الفلسطينى ياسر عبد ربه الدول التى أبقت على علاقاتها بإسرائيل التدخل لوقف تقدم الجيش الإسرائيلى، وذلك قبيل اجتياح مخيم جنين بساعات فقط.

عدا عن أزمات عربية - عربية ظهرت فى وقت يجب أن تتجه فيه الأنظار إلى الأراضى المحتلة، وإن تم استيعابها بسرعة.

وبعد ﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها﴾ فيما لم تجنح إسرائيل يومًا، نجنح نحن دومًا، ولا يزال حكام العرب هم الطرف الوحيد فى الصراع الذى يرى السلام خيارًا استراتيجيًا، رغم لغة السلاح والدماء التى لا يعرف شارون غيرها!

○○○

الفصل التاسع

الأصداء الخارجية

م. ريدة خضر البرعي

تباينت ردود الفعل الدولية بعد اجتياح إسرائيل فى (٢٩/ ٣/ ٢٠٠٢) أراضى السلطة الفلسطينية، أساسًا بالتوازى مع مصالح كل دولة وخريطة تحالفاتها.

الموقف الأوروبى

أتاح الاجتياح الإسرائيلى لأراضى السلطة الفلسطينية فرصة للاتحاد الأوروبى للعب دور أكثر إيجابية فى منطقة الشرق الأوسط، لم يحسن استخدامها.

أدانت دول الاتحاد الأوروبى العمليات العسكرية الإسرائيلية، ودعت إلى انسحاب الجيش الإسرائيلى، والتطبيق الفورى لقرار مجلس الأمن الدولى فى ١/ ٤/ ٢٠٠٢م.

أعلن ليونيل جوسبان عن رغبة فرنسا فى أن يتم تطبيق القرار الدولى رقم ١٤٠٢، الذى يطالب بانسحاب القوات الإسرائيلية من رام الله، وأكد رئيس الوزراء الفرنسى بأن وزارة الخارجية الفرنسية أبلغت سفير إسرائيل فى فرنسا بهذا الموقف.

وأصدر المرشح الشيوعى فى انتخابات الرئاسة الفرنسية، روبيرهو، بيانًا أكد فيه أنه «لم يعد متحملاً أن يبقى العالم، وبشكل خاص فرنسا وأوروبا، ينظر بلا أى رد فعل على هذا التصعيد المرعب للمجازر فى الشرق الأوسط».

وفى مدريد، شدد وزير الخارجية الأسبانى، جوزيب بيكيه، الذى ترأس

بلاده الدورة الحـاليـة للاتحـاد الأوروبى الدعـوة إلى انسـحـاب القـوات الإسرائيلية من الأراضى الفلسطينية.

واعترف مسئولون أوروبيون بأن اتحادهم منقسم على نفسه، وعاجز عن اتخاذ أى مبادرة، واعتبر وزير الدولة البريطانى لشؤون الشرق الأوسط وأفريقيا، بن برادشو، بأن ما تقوم به إسرائيل خطأ كبير، تمامًا كالخطأ الذى ارتكبته عندما منعت الرئيس ياسر عرفات من حضور مؤتمر القمة العربى، وأقر بحصول تغيير فى الرأى العام الأوروبى والبريطانى تجاه الفلسطينيين، وقال: إن الرأى العام كان قبل سنوات يبدى تعاطفًا مع الإسرائيليين، أما الآن فهو يشعر بالتعاطف مع الفلسطينيين، وحقهم فى إقامة دولتهم.

وعلى المستوى الشعبى اجتاحت التظاهرات المتضامنة مع الفلسطينيين الشارع الأوروبى، بالرغم من قوة الجاليات اليهودية فيها، ووصلت أعداد المتظاهرين أرقامًا غير متوقعة، ففى فرنسا وصل العدد ٢٠٠٠٠ متظاهر، وفى بلجيكا وصل إلى ٦٠٠٠٠، واستمرت التظاهرات فى كل من إيطاليا والنمسا وألمانيا أيضًا، بالرغم من أنها أكثر الدول الأوروبية المؤيدة لإسرائيل بسبب ماضيها النازى.

واستبعد رئيس المفوضية الأوروبية، رومانو برودى، اتخاذ عقوبات اقتصادية وتعليق الشراكة مع إسرائيل، بعد أن رفضت إسرائيل فى ٣/ ٤/ ٢٠٠٢ دعوة وجهها رئيس المفوضية الأوروبية إلى عقد مؤتمر دولى بشأن الشرق الأوسط، تشارك فيه الولايات المتحدة، والاتحاد الأوروبى، والأمم

المتحدة، والدول العربية «المعتدلة»، وروسيا.

ففى الوقت الذى رحب فيه الفلسطينيون بالدعوة رفض مسئولون إسرائيليون قائلين بأن هذا المؤتمر لا يمكن عقده قبل أن نتوصل إلى وقف فعلى لإطلاق النار يحترمه الفلسطينيون.

وعكس (استبعاد رئيس المفوضية اتخاذ أى عقوبات بشأن إسرائيل)، ضعف الموقف الأوروبى، فى الوقت الذى توقع البعض بأنها قادرة على ممارسة الضغط على حكومة شارون، وحملها على الانسحاب، إلا أن أوروبا لا تزال عاجزة عن أى مبادرة مستقلة، طالما لم تكن حركتها الدبلوماسية منسقة مع الولايات المتحدة، والأوروبيون يؤكدون بأن أى موقف يتم اتخاذه من جانبهم لن يكون مجديًا، إذا لم تعترف بهم إسرائيل فى موقع الشريك فى «عملية السلام». والحكومات الأوروبية تعانى من ضغوط الجاليات اليهودية ذات التأثير الكبير فى معظم الدول الأوروبية، والتى تعمل على إجهاض أى تحرك إيجابى لمصلحة القضية الفلسطينية، وخاصة فى فرنسا وألمانيا.

وفى محاولة من الاتحاد الأوروبى لكسر عزلة الرئيس ياسر عرفات، وتطبيق قرار مجلس الأمن الدولى ١٤٠٢، صدر قرار الاتحاد الأوروبى (٣/ ٤/ ٢٠٠٢)، إيفاد مفوض السياسة الخارجية للاتحاد الأوروبى، خافيير سولانا، ورئيس المجلس الوزارى الأوروبى، جوزييه بيكيه، ولكنها شعرت بخيبة الأمل بعد أن منعت حكومة إسرائيل الوفد الأوروبى من مقابلة عرفات فى (٤/ ٤/ ٢٠٠٢).

وردًا على موقف إسرائيل بمنع الوفد الأوروبى من مقابلة عرفات رأى وزير الخارجية البلجيكى، لوبى ميشيل، أن الاتحاد الأوروبى قد يعيد النظر فى العلاقات مع إسرائيل، وأردف ميشيل بأن هذه إهانة، وأنه يجب أن لا ندع الأمر يمر بسهولة، وأن من بين الخيارات المتاحة أمام الأوروبيين إعادة النظر فى معاهدة لها مع إسرائيل، تتيح لها التمتع بشروط تفضيلية مع دول الاتحاد الأوروبى(١).

أما رئيس المفوضية الأوروبية، رومانو برودى، فصرح بأنه من غير المقبول أن ترفض إسرائيل عقد لقاء بين موفدين أوروبيين وعرفات، وأن يحصل، فى المقابل، الوسيط الأمريكى على الموافقة، مؤكدًا بأن الوقت قد حان بجميع الأطراف كى يقبلوا، كليًا، دور الوساطة، الذى يمكن ويجب أن تلعبه أوروبا.

وانتقدت الحكومة البريطانية قرار العراق (٨/ ٤/ ٢٠٠٢)، بوقف صادراته للنفط لمدة شهر، وأفاد ناطق باسم الخارجية البريطانية أن بغداد يستغل معاناة الفلسطينيين من أجل تحقيق أهدافه السياسية.

وطرحت بريطانيا مشروع قرار لمجلس الأمن يتيح الحرية الكاملة للمنظمات الإنسانية بالوصول إلى السكان المدنيين، ودعا الأمين العام للأمم المتحدة إلى تشكيل لجنة تحقيق فى الأحداث الأخيرة فى المخيم، ويكرر الطلب لتنفيذ القرارين (١٤٠٢ - ١٤٠٣)، وجاء المشروع البريطانى محاولة لإحباط مشروع القرار العربى الذى يطالب إسرائيل بالتنفيذ الفورى للقرارين(٢).

ودعا الوزراء الأوروبيون إلى كشف الحقيقة، وتوفير المعطيات الثابتة حول ما حدث فى مخيم جنين(٣).

وتفادى الاتحاد الأوروبى المواجهة مع إسرائيل عند زيارة باول للمنطقة، وتراجع الاتحاد عن أخذ أى إجراءات بشأن إسرائيل، لكى لا يقوض الجهود الأمريكية، بعد أن كان مسئول الشؤون السياسية والأمنية فى الاتحاد الأوروبى خافيير سولانا قد دعا الاتحاد الأوروبى إلى وقف إمدادات الأسلحة إلى إسرائيل، وممارسة ضغوط أكبر لتوقف عدوانها الوحشى على الشعب الفلسطينى الأعزل، وفرض عقوبات تجارية عليها، وتعليق اتفاق الشراكة الذى يتيح لها معاملة تجارية تفضيلية.

وصرح المفوض الأوروبى للشؤون الخارجية كريسى باتن (٢١/ ٤/ ٢٠٠٢) بأن الحملة العسكرية جعلت من مكافحة الإرهاب رهينة لدى إسرائيل، وأن المأساة الحقيقية وراء ذلك تكمن فى أن الحكومة الإسرائيلية أخذت مكافحة الإرهاب التى أطلقتها الولايات المتحدة وحلفاؤها مبررًا لحملاتها، اتهم باتن الجيش الإسرائيلى بأنه يدمر، بشكل منتظم، البنى التحتية للسلطة الفلسطينية، خصوصًا وزارتى التربية والمال والسجل العقارى، وقال المفوض الأوروبى: «إن هذا لا علاقة له بمكافحة العمليات الانتحارية، هناك هدف سياسى لإسرائيل هو تدمير ما هو موجود من مقومات دولة وحكومة فلسطينية، تكاد تكون قابلة للحياة، لم تعد هناك حكومة ولا سلطة فلسطينية، وأكد رئيس الوزراء البريطانى، تونى بلير، بأن التدخل الإسرائيلى خلق فجوة بين العالمين العربى والغربى، بعد أن كانت لبنان

وسوريا قد قاطعتا اجتماعًا لوزراء خارجية الاتحاد الأوروبى ودول حوض المتوسط.

لم يكن الاتحاد الأوروبى مستعدًا، بعد، للتأثير بقوة فى مجريات الأحداث فى الشرق الأوسط، وعند محاولته للمشاركة فى حل النزاع بين إسرائيل والفلسطينيين اصطدم بالرفض الإسرائيلى لمشاركته، وفيما اعتبرت بعض دول الاتحاد الأوروبى ذلك إهانة للاتحاد، وطالبت بضرورة معاقبته، إلا أنها تراجعت، بعد أن أدان عرفات العملية الاستشهادية، التى تمت فى ١٠/ ٤/ ٢٠٠٢م.

فلم يجد الاتحاد الأوروبى الدعم الكافى من الدول العربية فى أسلوب تعامله مع الصراع العربى - الإسرائيلى، وسعيه إلى وقف الاحتلال الإسرائيلى فى الوقت الذى ظل فيه الموقف العربى دون الحد الأدنى، ولم يلوِّح بأوراق الضغط العديدة التى يملكها.

وفى الوقت الذى كانت فيه حكومة شارون تقوم بتجنيد اللوبى اليهودى فى ألمانيا والولايات المتحدة لممارسة ضغط على ألمانيا، حيث قررت الحكومة الألمانية وقف تصدير قطع غيار دبابات ميركافا إلى إسرائيل بسبب «نهج العنف القاسى» الذى مارسته فى المناطق الفلسطينية، دعت ألمانيا وبريطانيا فى ٢٩/ ٤/ ٢٠٠٢، إسرائيل إلى استقبال فريق الأمم المتحدة لتقصى الحقائق فى مخيم جنين.

وأصدر الاتحاد الأوروبى بيانًا غاضبًا فى ٣٠/ ٤/ ٢٠٠٢ عاتب فيه بقوة الولايات المتحدة على انفرادها بتسيير أمور العالم، وطالبها بموقف متوازن

وحل عادل للصراع فى الشرق الأوسط.

الموقـف الأمريكـى

التزمت الولايات المتحدة الأمريكية الصمت طيلة الأيام الأولى للاجتياح الإسرائيلى للأراضى الفلسطينية، وكان أول رد فعل لها هو خطاب الرئيس الأمريكى، جورج دبليو بوش، فى ٤/ ٤/ ٢٠٠٢، حسم به موقف إدارته من النزاع، حيث حمَّل فى خطابه الرئيس الفلسطينى ياسر عرفات مسئولية فشله فى تنفيذ تعهداته بالسيطرة على «الأعمال الإرهابية»، وأشار إلى أن الوضع الذى يجد فيه عرفات نفسه الآن هو من صنعه، وأعرب بوش عن تفهمه لحاجة إسرائيل للدفاع عن نفسها أمام الإرهاب، وطالب إسرائيل بالانسحاب من المدن التى أعادت احتلالها، مشيرًا إلى أنه تحدث كصديق ملتزم لإسرائيل، ومن مصدر القلق عليها، مما أكد بأن الاجتياح لم يكن بضوء أخضر من واشنطن فحسب، بل بقرار منها.

وقررت الإدارة الأمريكية التى اقتنعت بأن إسرائيل هى الحليف الاستراتيجى فى المنطقة، وجعلت منها شريكة لها فى مكافحة ما تسميه «الإرهاب الفلسطينى»، أن ترسل باول فى زيارة للمنطقة، هدفها «وقف إطلاق النار».

ورفضت إسرائيل دعوة الرئيس جورج دبليو بوش سحب قواتها من المدن الفلسطينية فى الضفة الغربية، وأكد رئيس حكومتها بأن الهجوم الذى يحمل اسم «الجدار الواقى» سيستمر، حتى يتحقق الهدف منه، ورأت

صحيفتا «واشنطن بوست»، و«نيويورك تايمز» الأمريكيتان فى تعاطى شارون مع الطلب الأمريكى بالانسحاب، بعد أن تكررت دعوات الانسحاب على ألسنة وزير خارجيته كولن باول، وكونداليزا رايس إهانة شخصية للرئيس، وتحقيرًا لهيبة دولة عظمى، ربطت نفوذها وسياستها بمصير دولة إسرائيل(٤).

بدأ الوزير الأمريكى باول زيارته إلى الشرق الأوسط من المغرب، حيث التقى فى ٨/ ٤/ ٢٠٠٢، الملك محمد السادس، الذى رحب به قائلاً: «كنت آمل أن تبدأ زيارتك الراهنة من القدس»، لكن باول أعلن لدى مغادرته المغرب فى ٨/ ٤/ ٢٠٠٢ لاجتماعه مع ولى العهد السعودى الأمير عبد الله بن عبد العزيز، أنه غير قلق إزاء عدم بدء جولته من القدس. وقال: «أعلم أن من يراقبون ما أفعل يتفهمون أنه من المهم أن أهيئ لرحلتى بالتشاور مع القادة العرب»، وجدد الرئيس الأمريكى جورج دبليو بوش فى ٨/ ٤/ ٢٠٠٢ دعوته للانسحاب الفورى من أراضى السلطة، قائلاً: «أنا أعنى ما أقول»، ولكنه أضاف بأنه يعنى ما يقوله أيضًا «بدعوته العالم العربى إلى إدانة الإرهاب»، والتقى الموفد الأمريكى، أنتونى زينى، ٨/ ٤/ ٢٠٠٢ مع شارون، فى تمهيد منه لزيارة باول.

كانت المحطة الثانية لباول هى القاهرة، حيث أعلن فى لقاء صحافى مع وزير الخارجية المصرى أحمد ماهر فى ٩/ ٤/ ٢٠٠٢ بأن الإدارة الأمريكية تعترف بأن عرفات هو الممثل الرسمى للسلطة الفلسطينية، والرئيس المنتخب من الشعب الفلسطينى، وأعلن أنه سيتم السماح بوجود قوات

أمريكية بعد التوصل إلى قرار بوقف النار بين الفلسطينيين والإسرائيليين.

واتجه باول بعد انتهاء جولته، فى كل من القاهرة والمغرب، وفى اجتماع رباعى ١٠/ ٤/ ٢٠٠٢ ضم باول ووزيرى الخارجية الأسبانى والروسى، والأمين العام للأمم المتحدة، بالإضافة إلى مفوض السياسة الخارجية فى الاتحاد الأوروبى، تم إصدار بيان مدريد الذى دعا إسرائيل إلى سحب قواتها، فورًا، من المدن الفلسطينية، ومقر الرئيس عرفات، ودعا عرفات إلى وقف ما أسمته بالعمليات الإرهابية على الإسرائيليين والفلسطينيين، وأعلن رئيس الوزراء البريطانى تونى بلير عن استعداده مع شركاء أوروبيين لمساعدة السلطة الفلسطينية فى إعادة البنى التحتية فى الضفة الغربية وغزة، والعمل معها فى إعادة تشكيل بنيتها الإدارية، وردت إسرائيل، فورًا، على بيان مدريد برفض الانسحاب من الأراضى الفلسطينية.

ووصل أخيرًا باول إلى إسرائيل فى ١١/ ٤/ ٢٠٠٢، بعد أن أخذ يحوم حول منطقة النزاع، مدعيًا بأنه مهد لزيارته، فى الوقت الذى كان فيه باول، فى المغرب فى ٨/ ٤/ ٢٠٠٢، أعلن رئيس الحكومة الإسرائيلية شارون، أمام البرلمان الإسرائيلى، قراره بعدم سحب قواته، مع انتهاء العملية المسماة (الجدار الواقى)، وإنما إلى ما وصفه بـ «مناطق أمنية عازلة» ستقام فى عمق الأراضى الفلسطينية، ورفض شارون الانسحاب من الأراضى الفلسطينية، كما جاء فى «بيان مدريد».

وبالرغم من أن الهدف الرئيسى لزيارة باول، وقف إطلاق النار كما أعلن الرئيس الأمريكى بوش ووزير خارجيته باول، إلا أنه صرح بعد لقائه مع

شـارون بـأنه لم يتلق ردًا منه عن مـدة الهـجـوم على الأراضى الفلسطينيـة، متبنيًا بذلك موقف الحكومة الإسرائيلية، وفاجأ هذا الموقف وزير الخارجية المصرى، أحمد ماهر، الذى كان فى زيارة لعرفات حاملاً وعودًا من الإدارة الأمريكية بالعمل على سحب القوات الإسرائيلية فورًا.

وكانت عملية استشهادية بالقرب من حيفا، سقط فيها عدد من الجرحى والقتلى الإسرائيليين نفذتها فتاة فلسطينية (عندليب) فى ١٠/ ٤/ ٢٠٠٢، قد استغلها الرئيس الأمريكى ليؤكد ضرورة أن يوقف الفلسطينيون العنف، وجعل باول من إدانة عرفات لهذه العملية شرطًا لمقابلته.

والتقى عرفات - باول، فى ١٤/ ٤/ ٢٠٠٢، بعد أن لبى الطلب الأمريكى بإدانة العملية، ورفضت إسرائيل بيان الإدانة، واستمر جيشها فى التوغل فى قضاء جنين، ونابلس. ووصف باول لقاءه بعرفات بأنه «بنَّاء ومفيد»، فى الوقت الذى تساءل فيه الجانب الفلسطينى، عما إذا كانت الولايات المتحدة تنوى فعلاً الضغط على الجانب الإسرائيلى للانسحاب، حيث إنه لم يعط جدولاً زمنيًا للانسحاب، وفاجأ باول الجميع برغبته فى زيارة سوريا ولبنان.

وأسهمت زيارة باول لبيروت ودمشق ١٢/ ٤/ ٢٠٠٢ فى ترسيخ التوتر الإقليمى، بدلاً من أن يخففه، خصوصًا فكرة (مؤتمر السلام) التى طرحها إرييل شارون، وأيدتها الإدارة الأمريكية، وبدت كأنها محاولة لإبعاد الأنظار عن المطالبة الدولية بانسحاب فورى لقوات الاحتلال من المناطق الفلسطينية، وطلب الرئيس بشار الأسد من واشنطن أن تكون لها رؤية واضحة للسلام، وأن تعمل بما يمليه عليها دورها فى هذا الشأن، وأن تلتزم

عمليًا، بالقرارات التى وافق عليها المجتمع الدولى.

بعد عودة باول للقدس لينهى فيها جولته، نعى باول بنفسه مهمته الفاشلة فى مؤتمر صحافى فى القدس، معلنًا استحالة التوصل إلى وقف للنار فى ظل استمرار العمليات العسكرية الإسرائيلية، وحاول التغطية على فشله بالإشارة إلى الوعود التى تلقاها من شارون، بشأن جدول زمنى للانسحاب سينتهى فى غضون أيام أو أسبوع، وأعربت مصادر فلسطينية عن استغرابها للطريقة التى قاد بها باول مهمته فهو بدأها بقدرة محدودة على الضغط، ولم يحرز أى تقدم.

وجدد الرئيس جورج دبليو بوش دعوة إسرائيل إلى الانسحاب من دون أن يحدد موعدًا أو جدولاً زمنيًا لذلك، وطرحت الولايات المتحدة فى مجلس الأمن قرارًا حظى بالإجماع على تشكيل لجنة لتقصى الحقائق فى مخيم جنين، وأكدت واشنطن أنها صاغته بالتشاور مع إسرائيل، وأن إسرائيل عبَّرت عن الاستعداد للتعاون معه(٥).

وفى محاولة لإسرائيل للتغيير من (لجنة تقصى الحقائق) نصح باول إسرائيل بأن فى مصلحتها قبول الفريق الدولى لتبديد الإشاعات حول مجازر جنين مشددًا على أنه لا يرى، حتى الآن، أى دليل على وقوع مجازر، أو وجود مقابر جماعية فى المخيم(٦).

وفى زيارة لولى العهد السعودى الأمير عبد الله بن عبد العزيز إلى الولايات المتحدة فى ٢٥/ ٤/ ٢٠٠٢، دعا الرئيس بوش إسرائيل إلى إكمال انسحابها من المناطق الفلسطينية التى احتلتها بهذا التصريح بعد انقطاع

استمر أسبوعين عاد بوش للحديث عن الانسحاب الإسرائيلى من الأراضى الفلسطينية.

وأعلنت وزارة الخـارجيـة فى ٢٦/ ٤/ ٢٠٠٢ أن واشنطن تستضيف الخميس ٢/ ٥/ ٢٠٠٢ اجتماعًا يضم إضافة إليها الاتحاد الأوروبى، والأمم المتحدة، وروسيا للبحث فى أزمة الشرق الأوسط، وكان الاجتماع السابق لهذه المجموعة قد عقد فى ١٠/ ٤/ ٢٠٠٢ فى مدريد، وسيمهد هذا الاجتماع لعودة باول إلى المنطقة.

أثمرت جهود ولى العهد السعودى، عبد الله بن عبد العزيز، مع الإدارة الأمريكية ضغوطًا مارسها الرئيس بوش على رئيس الوزراء الإسرائيلى، أدت إلى موافقة إسرائيلية على اقتراح أمريكى، يقضى بتوفير حراسة أمريكية وبريطانية لستة مطلوبين فلسطينيين، حاكمتهم السلطة الفلسطينية، مقابل فك الحصار عن الرئيس عرفات، وأعلن البيت الأبيض أن الحكومة الإسرائيلية وافقت على منح عرفات حرية التنقل، وعلى سحب قواتها من رام الله، إلا أن ناطقًا عسكريًا أعلن بأنه لن يرفع الحصار عن عرفات، إلا بعد أن يصبح قتلة وزير السياحة السابق رحبعام زئيفى فى السجن، تحت حراسة بريطانية - أمريكية(٧).

الموقف الأمريكى، والذى كشف فى هذا الاجتياح فى ٢٩/ ٣/ ٢٠٠٢ انحيازه الكامل لإسرائيل، وتأييده العلنى لما يفعله شارون جعل من إسرائيل شريكًا للولايات المتحدة فى حربها ضد الإرهاب، واعتبر جرائم شارون جزءًا من ثأره لهجمات ١١ من أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١، حتى إن أمريكا أظهرت نفسها كمدافع عن إسرائيل، بمظاهرة نظمتها ردًا على التظاهرات فى

الدول الأوروبية، التى تؤيد الشعب الفلسطينى، هذه التظاهرة الحاشدة دعمتها الإدارة الأمريكية بواسطة مساعد وزير الدفاع، بول ولفوفيتز، وتناوب على الكلام فيها زعماء الكونجرس، ورئيس الوزراء الإسرائيلى السابق، بنيامين نتنياهو، وممثل الجاليات اليهودية، ولفوفيتز، الذى تحدث باسم الرئيس بوش، أكد تضامنه مع المتظاهرين(٨).

أما الصحف الأمريكية، فغابت عنها صور القتلى المدنيين من الفلسطينيين، واكتفى الإعلام المرئى بالتركيز على دمار منازل الفلسطينيين، وأوضاعهم الإنسانية، وتجهيل هوية مرتكبى هذه الجرائم، وتجاهل أسباب هذه الأوضاع.

الموقف الروسى

حكم الموقف الروسى، إلى حد كبير، العلاقات مع الولايات المتحدة، فروسيا تتفادى المواجهة مع الولايات المتحدة، لذا تحاشت الإدانة الصريحة للعمليات الإسرائيلية، بل إن الرئيس الروسى، فلاديمير بوتن، أعرب عن تعاطفه مع «ضحايا الإرهاب من مواطنى إسرائيل»، وأشار إلى أن الرد على الإرهاب يجب أن يكون متناسبًا مع الخطر، ورغم التزام روسيا بالحياد التام، ورفضها تحميل إسرائيل أى مسئولية، إلا أن روسيا شعرت بالاستياء الشديد لتجاهل رئيس الوزراء الإسرائيلى، إرييل شارون، عن دور روسى فى المؤتمر الذى اقترح عقده برعاية أمريكية، وشعرت موسكو بالمرارة؛ لأن الأمريكيين رفضوا تنظيم لقاء رباعى لمبعوث الولايات المتحدة، وروسيا،

والاتحـاد الأوروبى، والأمم المتـحـدة، من أجل إجـراء اتصـالات مع شـارون، وعـرفات، والتقى ممثلو هذه الأطراف مع وزير الخارجية شيمون بيريز فحسب، وأشار سيرجى كارغانوف أن الفلسطينيين والإسرائيليين عاجزون عن إنهاء النزاع، وشدد على أن الأمريكيين لم يتمكنوا من السيطرة على الوضع، وأن طريقة معالجتهم له وضعت علامات استفهام حول قدرتهم على إدارة العلاقات الدولية بمفردهم(٨).

لم يتمكن الرئيس الروسى من تجاهل موجة الغضب التى عمت بلاده بسبب احتلال القوات الإسرائيلية مبانى تملكها الكنسية الأرثوذكسية الروسية فى بيت لحم، وأشار بوتين أن على الطرفين الامتناع عن إلحاق الأذى بالقيم الحضارية والروحية، وطالب البطريك إليكس الثانى - راعى الكنيسة الأرثوذكسية الروسية - بانسحاب إسرائيل من ممتلكات كنيسته فى بيت لحم، وقال: «إن القوات الإسرائيلية تجرنا، فى صورة غير مباشرة، إلى النزاع فى الشرق الأوسط».

ووجه إليكس الثانى رسالة إلى الرئيس الإسرائيلى، موشى كاتساف، ورئيس الحكومة، إرييل شارون، أعرب فيها عن الاحتجاج الشديد على احتلال القوات الإسرائيلية، واستخدام إحدى المبانى لإقامة موقع عسكرى، وطالب إسرائيل بالانسحاب، والامتناع عن استخدام أراضى ومبانى المؤسسات الدينية لأغراض عسكرية.

وانتقدت موسكو قرار بغداد بوقف تصدير النفط، واعتبرت أنه قرار خاطئ، ومؤشر إلى أن بغداد تبقى على سياسة الانعزال، وأقر بأن بغداد

تضع نفسها فى مواجهة الأسرة الدولية(٩).

أما الصحف ومحطات الإذاعة والتليفزيون الروسية فقد تبنت الموقف الإسرائيلى، ونددت بموجة العداء للسامية التى تجتاح أوروبا بعد الاجتياح الإسرائيلى للأراضى الفلسطينية، وتصور حرب شارون كأنها حرب ضد الإرهاب، بل إنها تجاوزت ذلك إلى التعريض المباشر على المجازر (حتى تصفية آخر إرهابى)، كما قال كبير حاخامات روسيا بيرل لازار(١٠).

موقف الصين

اكتفت الصين بإدانة الحصار، الذى تفرضه القوات الإسرائيلية ضد عرفات والهجمات الوحشية ضد الفلسطينيين، وعبَّر الناطق باسم وزارة الخارجية الصينى بأن بلاده ترغب فى أن تغادر إسرائيل الأراضى الفلسطينية، وأن تنهى عملياتها العسكرية، وبعد هذا صمتت الحكومة الصينية، تمامًا، عن الكلام، وغاب حضورها فى مجلس الأمن الدولى.

الهوامش

(١) الحياة (لندن) ٨/ ٤/ ٢٠٠٢م.

(٢) الحياة (لندن) ٢٠/ ٤/ ٢٠٠٢م.

(٣) الحياة (لندن) ١٦/ ٤/ ٢٠٠٢م.

(٤) الحياة (لندن) ١٣/ ٤/ ٢٠٠٢م.

(٥) الحياة (لندن) ٢١/ ٤/ ٢٠٠٢م.

(٦) الحياة (لندن) ٢٥/ ٤/ ٢٠٠٢م.

(٧) الحياة (لندن) ٢٩/ ٤/ ٢٠٠٢م.

(٨) الحياة (لندن) ١٦/ ٤/ ٢٠٠٢م.

(٩) الحياة (لندن) ٩/ ٤/ ٢٠٠٢م.

(١٠) الحياة (لندن) ٣٠/ ٤/ ٢٠٠٢م.

الفصل العاشر

في المحافل الدولية

م. معالى أحمد عصمت

لم ترتبط قضية تحرر وطنى بالأمم المتحدة ارتباط فلسطين بها؛ فبعد زهاء سنتين من قيام هذا المحفل الدولى شرع فى إصدار قرار بتقسيم فلسطين، ومن يومها والارتباط حميم بين هذا المحفل الدولى والقضية الفلسطينية، إلى أن كانت ملحمة مخيم جنين ومجزرتها موضوعنا فى هذه الدراسة.

قبل الاجتياح الإسرائيلى فى، ٢٠٠٢/٣/٢٩، لمدن الضفة الغربية ومخيماتها وقراها، أصدر مجلس الأمن الدولى قراره رقم ١٣٩٧، والذى تبناه فى ساعة متأخرة من ليل الإثنين ٢٠٠٢/٣/١٢، يعترف بحتمية الدولة الفلسطينية، ويشيد بمبادرة ولى العهد السعودى، الأمير عبد الله بن عبد العزيز، وتطبيق «توصيات ميتشل»، و«خطة تينيت».

وأكد القرار على «رؤية تتوخى منطقة تعيش فيها دولتان، إسرائيل وفلسطين، جنبًا إلى جنب، ضمن حدود آمنة معترف بها»(١).

وأعرب مجلس الأمن الدولى عن «تأييده جهود الأمين العام للأمم المتحدة والجهات الأخرى الرامية إلى مساعدة الطرفين على وقف العنف، واستئناف عملية السلام. وقد حاز القرار على موافقة ١٤ عضوًا، وامتنعت سوريا عن التصويت، آخذة على هذا القرار أنه «ضعيف وغير متوازن»؛ لأنه يساوى بين الضحية والجلاد، كما أنه لم يعالج قضية الاحتلال(٢).

فى المقابل اتخذ تبنى مجلس الأمن الدولى قرارًا يؤكد «رؤية» قيام دولة فلسطين بعدًا «تاريخيًا» من وجهة النظر الفلسطينية والعربية؛ إذ قال

مندوب جامعة الدول العربية لدى الأمم المتحدة السفير حسين حسونة إن «اعتماد مجلس الأمن القرار الأمريكي، على الرغم من جوانب ضعفه، وعدم استجابته للمطالب العربية، يعتبر تطورًا تاريخيًا في تناوله لقضية فلسطين، يجب أن نشجعه ونبني عليه»(٣) ولفت مندوب فلسطين، الدكتور ناصر القدوة، إلى أن «الولايات المتحدة قدمت للمرة الأولى قرارًا حول الوضع الفلسطيني في مجلس الأمن» وهذا يعني قبولها بدور الأمم المتحدة في إقامة دولة فلسطينية(٤).

بالفعل انضمت الولايات المتحدة إلى أعضاء آخرين في مجلس الأمن الدولي، في وقت مبكر من صباح يوم السبت، ٢٠٠٢/٣/٣٠، لاتخاذ قرار «يدعو» القوات الإسرائيلية إلى الانسحاب من المدن الفلسطينية، بما في ذلك رام الله، و«يطالب» الطرفين الفلسطيني والإسرائيلي بالالتزام فورًا باحترام وقف إطلاق النار(٥).

أكد مجلس الأمن الدولي، في قراره رقم ١٤٠٢، الصادر بتاريخ ٢٠٠٢/٣/٣٠، فعلى القرار ٢٤٢، الصادر بتاريخ ١٩٦٧/١١/٢٢، و٣٣٨ الصادر في ١٩٧٣/١٠/٢٢، والقرار ١٣٩٧ الصادر في ٢٠٠٢/٣/١٢، وعلى مبادئ مؤتمر مدريد، وأعرب المجلس عن «قلقه العميق من التدهور الجديد في الوضع» ودعا الأطراف إلى التعاون الكامل مع الموفد الأمريكي إلى فلسطين الجنرال الأمريكي «أنتوني زيني»(٦).

اتخذ مجلس الأمن قراره بموافقة ١٤ عضوًا من دون معارضة أي عضو، في حين لم تحضر سوريا الاجتماع احتجاجًا، وتركت مقعدها شاغرًا؛ حيث

انتقد سفير سوريا لدى الأمم المتحدة ميخائيل وهبة القرار لإدانته «الهجمات الانتحارية فى إسرائيل» كذا بسبب تضمن القرار «إعادة التأكيد على القرار ١٣٩٧» والإشارة إلى ضرورة تنفيذ خطة تينيت، وتقرير ميتشل(٧).

بعد اجتياحات إسرائيلية أخرى عديدة، جدد الأمين العام للأمم المتحدة كوفى عنان، انتقاده لإسرائيل، مؤكدًا أن حكومتها تسير فى الاتجاه المعاكس لما يقضى به القراران ١٣٩٧، و١٤٠٢، مما يؤدى إلى مزيد من التصعيد، وأشار، عنان، إلى أن القرار ١٤٠٢ يوفر العناصر اللازمة لبدء تخفيف حدة الأزمة بين إسرائيل والفلسطينيين، كما يوفر القرار ١٣٩٧ الإطار لتسوية دائمة(٨).

من جانبه تبنى مجلس الأمن الدولى القرار رقم ١٤٠٣ بالإجماع ليل الخميس ٢٠٠٢/٤/٤، وطالب مجلس الأمن بتنفيذ قراره رقم ١٤٠٢ «من دون إبطاء» ورحب بإيفاد وزير الخارجية الأمريكى، كولن باول، إلى المنطقة، وبالجهود التى تبذلها الجهات الأخرى من أجل «إحلال سلام شامل وعادل، ودائم فى الشرق الأوسط»(٩)، وسجلت سوريا موقفًا رسميًا مغايرًا من القرار ١٣٩٧ الذى امتنعت عن التصويت عليه، والقرار ١٤٠٢، والذى رفضت المشاركة فى التصويت عليه(١٠).

فى يوم الإثنين، ٢٠٠٢/٤/٨ طالب الأمين العام للأمم المتحدة، كوفى عنان، إسرائيل بسحب قواتها على الفور من الأراضى الفلسطينية تماشيًا مع قرارات مجلس الأمن الدولى، وتجاوبًا مع نداء الولايات المتحدة فى هذا

الخصوص، وكان مجلس الأمن - الذى انعقد فى اليوم نفسه للمرة السادسة فى خلال عشرة أيام؛ لبحث الأوضاع فى الشرق الأوسط بناء على طلب المجموعة العربية - قد دعا فى بيان إلى الانسحاب من المناطق الفلسطينية(١١)، وقال البيان الذى تلاه الرئيس الحالى لمجلس الأمن السفير الروسى «سيرجى لافروف»: إن أعضاء المجلس قلقون بشكل جاد من التدهور للوضع على الأرض، وانتهاكات القانون الدولى فى الأراضى الفلسطينية بما فى ذلك السكان المدنيين، وتهديد وتدمير السلطة الفلسطينية، وأشار «لافروف» إلى قلق المجلس من فشل تطبيق قرارات مجلس الأمن ١٣٩٧، ١٤٠٢، ١٤٠٣ التى تدعو إلى الوقف الفورى لكل أعمال العنف، بما فى ذلك أعمال الإرهاب والاستفزاز!

لكن لا حياة لمن تنادى، فبالطبع لم تستجب إسرائيل لهذا النداء أيضًا، فما كان من مجلس الأمن إلا أنه رجع وأكد ليلة الأربعاء، ٢٠٠٢/٤/١٠ دعمه «بيان مدريد»(❖)، ولكن هناك مصادر تؤكد أنه بناء على طلب من الولايات المتحدة ألغيت من إعلان مجلس الأمن فقرة تشير إلى «القلق الكبير حيال الأزمة الإنسانية المتفاقمة فى الأراضى المحتلة»، كما ألغى نداء يطلب من إسرائيل «الالتزام بالقانون الإنسانى الدولى»(١٢).

من جهة أخرى دانت لجنة حقوق الإنسان التابعة للأمم المتحدة فى ٢٠٠٢/٤/١٥، بغالبية كبيرة «المجازر الواسعة» التى ترتكبها القوات الإسرائيلية ضد الشعب الفلسطينى، وصوتت ٤٠ دولة مع القرار الذى قدمته باكستان، والصين، وكوبا، والدول العربية، فى حين صوتت خمس دول

ضده من بينها ألمانيا، وبريطانيا، وكندا، وامتنعت سبع دول أخرى عن التصويت من بينها إيطاليا(١٣).

وعبرت لجنة حقوق الإنسان - فى هذا القرار - عن قلقها الشديد، خصوصًا إزاء المجازر الواسعة التى ترتكبها سلطات الاحتلال الإسرائيلى بحق الشعب الفلسطينى، كما تضمنت صيغة القرار النهائية تشديدًا على شرعية كفاح الشعوب ضد الاحتلال الأجنبى، بينما حذفت التكملة التى كانت تقول: «عبر كل الوسائل التى بمتناولها، ومن ضمنها الكفاح المسلح، واستخدم تعبير «المجازر الواسعة» بدلاً من «إرهاب الدولة» كما استبدلت كلمة «الشهداء» بكلمة «القتلى»(١٤).

لكن إذا كان مجلس الأمن بالصلاحيات الممنوحة له لم يستطع فرض أى قرارات على إسرائيل، أو توقع أى عقوبات عليها، فهل سيفعل هذا القرار الصادر عن لجنة حقوق الإنسان ما لم يفعله مجلس الأمن؟

وهل كانت أمريكا سوف تسمح بمرور هذا القرار دون استخدام «الفيتو» لو كان للجنة حقوق الإنسان صلاحيات أكبر؟

دعت «منظمة العفو الدولية» فى ٢٠٠٢/٤/١٦ مجلس الأمن الدولى إلى فتح تحقيق فى انتهاك حقوق الإنسان فى مخيم جنين للاجئين، وجاء فى بيان المنظمة «بموجب مبادئ القانون الدولى» وعندما يسقط قتلى فى ظروف مثيرة للجدل ينبغى أن يحدث تحقيق غير منحاز بتعاون الطرفين، وأضاف البيان «إننا نطالب بنشر خبراء دوليين والسماح لهم بالدخول إلى

جنين مع تكليفهم إجراء تحقيق سريع ومستقل ومعمق، وإعلان استنتاجاتهم على الملأ»(١٥).

من ناحيته اقترح «عنان» على مجلس الأمن «فى ٢٠٠٢/٤/١٨» تبنى قرار بموجب الفصل السابع من ميثاق المنظمة الدولية، وتشكيل قوة متعددة الجنسية، يشارك فيها تحالف دولى، وطالب الأسرة الدولية «بلعب دور فعال»، وأوضح عنان الارتباط الوثيق بين إنشاء القوة المتعددة الجنسية، والعمل السياسى لتسوية سلمية شاملة، على أساس دولتين: فلسطين وإسرائيل، وطالب حكومة إسرائيل بأن تكف عن منع وصول الوكالات الإنسانية إلى المخيم، والامتثال للقانون الدولى(١٦).

فى اليوم نفسه، نظر المجلس فى طلب عربى لعقد جلسة فورية للتصويت على مشروع قرار يطالب بالتحقيق فى ما حدث فى مخيم جنين.

وقد رحب الوزير الفلسطينى، صائب عريقات، باسم السلطة الفلسطينية بدعوة «عنان» حول توفير قوات حماية دولية، واعتبر، عريقات، بأنها تمثل الطريق الصحيح لبدء التعامل مع العدوان الإسرائيلى، وتوفير الحماية الدولية للشعب الفلسطينى إزاء الجرائم، والعدوان الإسرائيلى(١٧).

فى المقابل رفض الناطق باسم الحكومة الإسرائيلية، وافى بارنر، دعوة عنان قائلاً: إن مثل هذه القوة ستكون «غير مناسبة» فى الوضع الحالى، وأردف «نحن لا نريد قوة متعددة الجنسيات، وأعتقد أن الولايات المتحدة لا تريدها هى الأخرى»(١٨).

لكن هل غيرت الولايات المتحدة رأيها، فجأة، فتقدمت إلى مجلس الأمن بمشروع قرار «فى ٢٠/٤/٢٠٠٢» تطلب فيه تشكيل لجنة تقصى حقائق فى مخيم جنين؟

الإجابة طبعًا بلا، فقد أوضح المندوب الأمريكى فى مجلس الأمن «جان نجروبونتى» «رحبنا بمبادرة الأمين العام بالتشاور مع السلطات الإسرائيلية التى عبرت عن الاستعداد للتعاون معه» بشرط «خفض مستوى اللجنة من لجنة تحقيق إلى لجنة تقصى حقائق، ومن تعيين مجلس الأمن لأعضائها إلى تعيين شخصى من الأمين العام للأمم المتحدة(١٩).

وقد تبنى مجلس الأمن بالإجماع القرار الذى طرحته الولايات المتحدة للتصويت يوم السبت «٢٠/٤/٢٠٠٢» وحمل الرقم ١٤٠٥.

أكد القرار ١٤٠٥ على ضرورة تشكيل بعثة لتقصى الحقائق، كما رحب بمبادرة الأمين العام «كوفى عنان» الداعية إلى جمع معلومات دقيقة عما حدث فى مخيم جنين عن طريق اللجنة «وطلب المجلس من عنان أن يبقى مجلس الأمن على علم بذلك».

وأعرب المجلس عن قلقه للحالة الإنسانية الرهيبة للمدنيين الفلسطينيين، ولاسيما أن التقارير الواردة تفيد بوقوع عدد غير معروف من القتلى، فضلاً عن الدمار.

ودعا إلى رفع القيود المفروضة، ولاسيما فى جنين، على عمليات المنظمات الإنسانية، وأكد المجلس على «ضرورة أن تضمن كل الأطراف

المعنية سلامة المدنيين، واحترام قواعد القانون الدولى»(٢٠).

بالرغم من أن القرار لا يرقى لمشروع القرار، الذى تقدمت به الدول العربية، والذى طالب بتشكيل لجنة تحقيق دولية، إلا أن الجانب العربى والفلسطينى اعتبره «خطوة مهمة»؛ لأنه ينطوى على آلية واضحة ترتبط بما حدث؛ حيث ارتكبت جرائم حرب، ووقعت مجازر فظيعة.

وقد عبر مندوب فلسطين ناصر القدوة عن التقدير للأمين العام على المبادرة، ولمجلس الأمن الدولى على اهتمامه بالوضع الإنسانى، ودعمه القرار ١٤٠٥.

وأوضح المندوب العربى الوحيد فى مجلس الأمن الدولى السفير السورى ميخائيل وهبة، أن المعنى القانونى لفريق تقصى الحقائق له ميزة فائقة الأهمية؛ حيث إن «الخطوات العقابية» ستترتب على نتائج التحقيق، ولم يستبعد أى إجراء، بما فى ذلك «السعى لفرض عقوبات على إسرائيل»(٢١).

فى الوقت الذى وصف فيه الجانب العربى مبادرة عنان بأنها «مهمة، وشجاعة» بدأ كبار المسؤولين فى إسرائيل هجومهم على مبعوث الأمم المتحدة، تيرى رود لارسن؛ بسبب وصفه ما رأته عيناه فى مخيم جنين بأنه «فظاعات تفوق كل تصور» وأبلغ رئيس الحكومة إرييل شارون أن الفريق الذى كلفه مجلس الأمن لتقصى الحقائق فى المخيم «لن يضم أعضاء ليسوا مقبولين لدينا»(٢٢).

وأوضحت صحيفة هآرتس اليومية الإسرائيلية بأن إسرائيل أبلغت

الولايات المتحدة معارضتها إشراك لارسن، أو مفوضة الأمم المتحدة، روبنسون، أو المدير العام لوكالة الأمم المتحدة لغوث اللاجئين، بيتر هنسن، فى الفريق الذى سيشكله، كوفى عنان، نظرًا لانتقاداتهم الشديدة لإسرائيل(٢٣).

الواضح من هذا كله أن هذه اللجنة لا تخرج عن كونها أكذوبة، رعتها أمريكا، وتبناها الأمين العام للأمم المتحدة، لامتصاص حالة الغضب العربى والدولى، التى تفجرت فى أعقاب كشف دموية ووحشية الجرائم الإسرائيلية فى جنين.

وأمام بشاعة الأحداث اضطرت الإدارة الأمريكية للتراجع عن استخدام «الفيتو» وقبلت بتشكيل لجنة لتقصى الحقائق فى محاولة لتجاوز القضية الدولية من ناحية، وتفويت الفرصة على الأمم المتحدة، والمجموعة العربية فى الأمم المتحدة، ولجان حقوق الإنسان الدولية للمطالبة بمحاكمة قادة إسرائيل، بالإضافة إلى الوقت الذى سيستغرقه عمل هذه اللجنة، والذى سيمتد إلى أشهر طويلة، وبالتالى يمكن فى هذا الوقت تنشيط جهود السلام من جديد لعودة المفاوضات الفلسطينية - الإسرائيلية.

يكاد المريب يقول خذونى؛ حيث إنه بالرغم من أن لجنة تقصى الحقائق هذه ولدت ميتة، وبدون صلاحيات، ولن تستطيع فرض أى شروط، أو مطالب على إسرائيل، فإن إسرائيل بدأت تتجه نحو صدام مع الأمم المتحدة، بعدما طلبت إسرائيل رسميًا تأجيل قدوم لجنة الأمم المتحدة لتقصى الحقائق فى مخيم جنين، إلى ما بعد يوم السبت، ٢٠٠٢/٤/٢٧،

والذى حددته الأمم المتحدة، فى خطوة تؤكد سعى إسرائيل بكل الوسائل إلى منع هذه اللجنة من الوصول إلى جنين قبل أن تخفى إسرائيل معالم جريمتها تمامًا.

فضلاً عن أن مندوب إسرائيل لدى الأمم المتحدة «يهودا لانكرى» قد أكد - عقب اجتماع مع عنان - أن التفويض الممنوح للبعثة يجب أن يشمل ليس العمليات العسكرية الأخيرة فحسب، بل أيضًا ما أسماه الشبكة الإرهابية، التى ترعرعت فى مخيم جنين، مؤكدًا ضرورة أن يكون فريق تقصى الحقائق «متوازنًا بشكل أكبر، وأن يضم خبراء فى مكافحة الإرهاب»(٢٤).

فى المقابل ذكر بيان صادر عن مكتب عنان أنه ربما يجرى زيادة عدد أعضاء الفريق إذا اقتضت الضرورة فى حين أعلن المتحدث باسم عنان «فريد إيكهارت» أن التأجيل سيكون مناسبًا لإجراء مشاورات، لكنه توقع وصول البعثة إلى المنطقة يوم السبت ٢٠٠٢/٤/٢٧(٢٥).

من جانبها ذكرت صحيفة «هآرتس» أن هناك سببين رئيسين دفعا رئيس الوزراء الإسرائيلى إرييل شارون إلى التراجع عن موافقته السابقة على التعاون مع اللجنة، أولهما: أنه لم تتم بعد صياغة الخطاب الخاص باختيار أعضائها، بالإضافة إلى تلقى إسرائيل معلومات تفيد بأن مهمة اللجنة ستتجاوز نطاق التفويض الممنوح لها من جانب مجلس الأمن، فيما يتعلق السبب الثانى بتشكيل الفريق الذى وصفته مصادر إسرائيلية بأنه «ليس فى مصلحة إسرائيل» علاوة على اعتراض إسرائيل على ضم الرئيس السابق للجنة الدولية للصليب الأحمر «كورنيليو سوماروجا» التى تتهمه بمعاداة

السامية(٢٦).

بالطبع قـرر عنان فى ٢٠٠٢/٤/٢٥ بعـد مـشـاورات مكثـفـة مع مـجلس الأمن تأجيل وصول لجنة تقصى الحقائق، حتى تصدر إسـرائيل بيانًا بشأن قبولها التعاون مع اللجنة(٢٧)!

فى اليـوم نفسـه، أشـار وزير المنظمـات الأهليـة فى السلطة الفلسطينيـة حسن عصفور إلى أن موقف حكومة إسرائيل من قرار مجلس الأمن، ولجنة تقـصى الحـقـائق يكشف تمامًا عن طبـيـعـة جـرائم الحـرب التى ارتكبـتـهـا إسـرائيل فى جنين ومـخـيـمـهـا، ومـخـتلف المدن، والقـرى، والمخـيـمـات الفلسطينيـة، وأضـاف: إن الحـقـيـقـة السـاطعـة التى تكشف حـقـيـقـة الموقف الرسـمى الإسـرائيلى هى ذلك الرعب الذى أخذ فى التـزايد داخل أوسـاط قيادة جيش إسرائيل من الملاحقة، ولذلك تسعى إلى الحصول على ضمـان بعدم الملاحقة لمرتكبى جرائمها(٢٨).

أعلنت الحكومة الإسرائيلية يوم الأحد ٢٠٠٢/٤/٢٨ طلبها تأجيل وصول اللجنة الدولية لتقصى الحقـائق للمرة الثالثة، وكان وزير خارجية إسـرائيل شيمون بيريز قد حدد أربعة مطالب حتى تقبل إسرائيل دخول اللجنة، أولهم التأكد من أن مهـمـة اللجنة تقصى الحقـائق، وليس التحـقـيق، فيـمـا يتعلق المطلب الثانى بحق إسرائيل فى اختيار العسكريين الذين سيدلون بشهادتهم، بينما الثالث خاص بضم عدد أكبر من الخبـراء العسكريين للفريق الدولى، ويهتم الأخير بالتأكيد على قيام الفريق الدولى بتقديم حقائق حول ما أسماه «الإرهاب الفلسطينى»(٢٩).

كالعادة، وافق مجلس الأمن، مساء اليوم نفسه، على مهلة ثالثة مدتها ٢٤ ساعة، من أجل تسوية الخلاف فى شأن اللجنة، وسط تأكيدات دبلوماسية على أن المجلس وافق، أيضًا، على طلب عنان بإرسال اللجنة حتى بدون موافقة إسرائيل بعدما أرسل عنان رسالة خطية إلى الطرفين الفلسطينى والإسرائيلى تشمل ستة عناصر هما(٣٠):

– توضيح بأن الأفراد الثلاثة الإسرائيليين فى اللجنة هم: الرئيس الفنلندى السابق، مارتى اتيسارى، والرئيس السابق للجنة الصليب الأحمر، كورنيليو سوماروجا، (والذى اعترضت إسرائيل عليه من قبل)، ومفوضة الأمم المتحدة السابقة لشئون اللاجئين سادكر أوجاتا، يدعمهم الفريق الثلاثى من المستشارين العسكريين والسياسيين والقانونيين.

– مرجعية المهام هى القرار ١٤٠٥ لمجلس الأمن، أى استقصاء المعلومات الدقيقة عما حدث فى مخيم جنين عبر لجنة تقصى الحقائق.

– قيام اللجنة بتفحص الصعد العسكرية، والأمنية، والإنسانية من الأحداث الأخيرة، وأى عناصر أخرى ذات صلة.

– حق الطرفين الفلسطينى والإسرائيلى فى توفير الوقائع والمعلومات للفريق، والتى يعتبرانها ذات علاقة بالأحداث فى مخيم جنين.

– حرية دخول اللجنة إلى أى مكان، وإجراء مقابلات مع من تراه ضروريًا يتعارض هذا العنصر مع المطلب الثانى من المطالب الأربعة التى حددها وزير الخارجية الإسرائيلى شيمون بيريز حتى تقبل إسرائيل دخول اللجنة إلى جنين.

- حق الطرفين بالتقدم بملاحظتهما على التقرير قبل ٤٨ ساعة من تسليمه إلى مجلس الأمن!

فى الوقت نفسه كانت مصادر إسرائيلية قد ذكرت أن الرئيس الأمريكى جورج بوش قد قدم - خلال مكالمة هاتفية مع رئيس الوزراء الإسرائيلى إرييل شارون - ضمانات تشمل تحييد عمل لجنة تقصى الحقائق، بحيث لا تسمح لها بتقديم توصيات، أو تقويم الوضع فى جنين، وتضمن حصانة المسؤولين الإسرائيليين حتى آخر جندى شارك فى هجوم جنين، إزاء اتخاذ قرارات قانونية دولية ضدهم، فى المقابل نفى مسؤول أمريكى ما تردد عن تلك الصفقة قائلاً: «إننا نقف وراء إيفاد اللجنة»(٣١).

قررت الحكومة الإسرائيلية يوم الثلاثاء ٢٠٠٢/٤/٣٠، عدم التعاون مع لجنة تقصى الحقائق متعللة بأن عنان قد أخل بالالتزامات التى قطعها لإسرائيل، بالإعلان أن أعضاء اللجنة سيحظون بصلاحيات واسعة تشمل النواحى الإنسانية والأمنية.

وفى الوقت الذى صرح فيه وزير الدفاع الإسرائيلى «بنيامين بن اليعازر»» أنه على إسرائيل أن تحاول تحسين شروط عمل لجنة جنين قبل مجيئها إلى البلاد، وإلا فإن نتائجها ستكون معروفة مسبقًا ضدنا، أعرب شيمون بيريز عن تخوفه من قيام مجلس الأمن الدولى باتخاذ قرارات ضد إسرائيل ردًا على قرارها بتعطيل عمل اللجنة(٣٢).

لكن بالطبع، لم يكن تخوف بيريز فى محله، فبالرغم من الإعلان عن

موافقة مجلس الأمن على طلب عنان بإرسال اللجنة حتى بدون موافقة إسرائيل، وبالرغم من أن لدى مجلس الأمن صلاحيات تسمح له بتوقيع عقوبات على إسرائيل لرفضها دخول اللجنة إلى جنين، فإن الموقف قد تغير الآن بعدما أبلغ عنان مجلس الأمن، عبر وكيله للشئون السياسية «كيرين برندرجاست» أنه ميال نحو تسريح فريق تقصى الحقائق؛ حيث إنه لا يرى جدوى من قيام الفريق بالتحقيق من جنيف(٣٣)، وقد كان إذ حل عنان اللجنة، وكأنها لم تكن وأفلت الجانى بجريمته.

فى السياق نفسه أشار المندوب الأمريكى لدى الأمم المتحدة نجروبونتى إلى أن خيارين وضعا أمام مجلس الأمن هما: خيار تسريح الفريق، وخيار العمل من جنيف، إلى حين استكمال العمل على مرجعية، وقال: إن القرار النهائى لم يتخذ بعد، وعندما يتخذ الأمين العام قراره النهائى سنحترمه!

كما أشار نجروبونتى إلى مشاورات المجموعة العربية لاتخاذ موقف عربى فى شأن الخطوة التالية، وقال: «لننتظر ونرى هل سيكون هناك مشروع قرار عربى»(٣٤).

وبعد، فإن الأمم المتحدة التى تعلن أن مهمتها الأساسية هى الدفاع عن الدول الأعضاء، والوقوف إلى جانب الحق، لم تستطع أن تفعل شيئًا أمام الصلف الإسرائيلى، فمن يرد الحق إلى أصحابه؟ ومن ينقذ الأمم المتحدة من ضعفها؟

○○○

هوامش

(١) **الحياة**، (لندن) ٢٠٠٢/٣/١٤.

(٢) **الحياة**، (لندن) ٢٠٠٢/٣/١٤.

(٣) **الحياة**، (لندن) ٢٠٠٢/٣/١٤.

(٤) **الحياة**، (لندن) ٢٠٠٢/٣/١٥.

(٥) **الحياة**، (لندن) ٢٠٠٢/٣/٣١.

(٦) راجع نص القرار ١٤٠٢ فى **الحياة**، (لندن) ٢٠٠٢/٣/٣١.

(٧) **الحياة**، (لندن) ٢٠٠٢/٣/٣١.

(٨) **الحياة**، (لندن) ٢٠٠٢/٤/٤.

(٩) راجع نص القرار فى **الحياة**، (لندن) ٢٠٠٢/٤/٦.

(١٠) **الحياة**، (لندن) ٢٠٠٢/٤/٦.

(١١) **الحياة**، (لندن) ٢٠٠٢/٤/٩.

(١٢) **الحياة**، (لندن) ٢٠٠٢/٤/١٢.

(١٣) **الحياة**، (لندن) ٢٠٠٢/٤/١٦.

(١٤) **الحياة**، (لندن) ٢٠٠٢/٤/١٦.

(◆) مؤتمر مدريد: عقد فى ٢٠٠٢/٤/١٠ فى العاصمة الإسبانية مدريد، بين ممثلى كل من: الولايات المتحدة الأمريكية، والاتحاد الأوروبى، وروسيا، والأمم المتحدة لبحث الوضع فى الأراضى الفلسطينية المحتلة، وقد دعا البيان الختامى للمؤتمر إلى «التحرك باتجاه حل سياسى للنزاع استنادًا لقرارات الأمم المتحدة»، كما أكد البيان على «إدانة العنف والإرهاب»، وأعرب عن الاستياء البالغ لفقد أرواح أبرياء من الفلسطينيين والإسرائيليين!

(١٥) **الحياة**، (لندن) ٢٠٠٢/٤/١٧.

(١٦) **الحياة**، (لندن) ٢٠٠٢/٤/١٩.

(١٧) **الحياة**، (لندن) ٢٠٠٢/٤/١٩.

(١٨) **الحياة**، (لندن) ٢٠٠٢/٤/١٩.

(١٩) **الحياة**، (لندن) ٢٠٠٢/٤/٢١.

(٢٠) راجع نص القرار ١٤٠٥ فى **الحياة**، (لندن) ٢٠٠٢/٤/٢١.

(٢١) **الحياة**، (لندن) ٢٠٠٢/٤/٢١.

(٢٢) **الحياة**، (لندن) ٢٠٠٢/٤/٢٢.

(٢٣) **الحياة**، (لندن) ٢٠٠٢/٤/٢٢.

(٢٤) **الأهرام**، (القاهرة) ٢٠٠٢/٤/٢٥.

(٢٥) **الأهرام**، (القاهرة) ٢٠٠٢/٤/٢٥.

(٢٦) **الأهرام**، (القاهرة) ٢٠٠٢/٤/٢٦.

(٢٧) **الأخبار**، (القاهرة) ٢٠٠٢/٤/٢٧.

(٢٨) **الحياة**، (لندن) ٢٠٠٢/٤/٢٨.

(٢٩) **الحياة**، (لندن) ٢٠٠٢/٤/٣٠.

(٣٠) **الحياة**، (لندن) ٢٠٠٢/٤/٣٠.

(٣١) **الحياة**، (لندن) ٢٠٠٢/٤/٣٠.

(٣٢) **الحياة**، (لندن) ٢٠٠٢/٥/١.

(٣٣) **الحياة**، (لندن) ٢٠٠٢/٥/١.

(٣٤) **الحياة**، (لندن) ٢٠٠٢/٥/١.

الفصل الحادى عشر

بورسعيد الفلسطينية تتحدى

عبد العال الباقورى

إنه فصل آخر لا أكثر من «نكبة» لم تزل مستمرة، ومشهد آخر من مشاهد العجز العربى فى الهيكل والبنية، وفى الصميم، وفيه تتكرر وتتعدد مجازر أخرى، هى بعض حقيقة الصهيونية، لمن أراد أن يرى الأمور على حقيقتها، ويدمى القلوب، ويخزى الأنفس، ويجرح الكرامة، إنه مجسَّم بالصوت والصورة، وهو يتحدانا ليل نهار، وبألف ألف قذيفة، ودانة، ورصاصة، ودبابة، ومجنزرة، وطائرة، وجندى؛ ليثبت لنا من جديد كم فشلنا، ويبدو الفشل أكبر، والعجز أخطر إن لم نتساءل: أليس لدينا نحن العرب، أيضًا، سلاح وجيوش ومقاتلون؟ هل هى للاستعراضات فقط، أو لمواجهة المظاهرات؟ أو «لزوم استكمال ديكور الدولة»؟، خاصة وأن لدينا اثنتين وعشرين دولة، وربما أخطأت فى الحساب، وسأخطىء أكثر لو حاولت أن أعرض وأستعرض أرقام ما لدينا من سلاح وعتاد ورجال.

ومع ذلك يحاول الفلاسفة، فلاسفة الأنظمة العاجزة، والحكومات القاصرة، و«مبرراتية» كل حكم، و«مبخراتية» كل حاكم أن يدافعوا عن عجزهم وعجزنا، وكان خيرًا لهم ولنا لو التزموا الصمت، فأين هى حمرة الخجل، حين يقول قائل: إن الدعوة أو مطالبة مصر بقطع العلاقات الدبلوماسية مع إسرائيل هى «المعادل الموضوعى» هكذا، لإغلاق مضيق العقبة؟ وليته وقف باستراتيجيته الفكرية، أو بفكره الاستراتيجى عند هذا المدى، بل أضاف: «وما دامت إسرائيل والولايات المتحدة تتحملان المسئولية عما جرى ويجرى، فإن أحدًا لا يتحمل المسئولية فى النكبة الراهنة، ولا فى النكبات السابقة من الجماهير، وأهل الرأى، والإذاعات، وما فى حكمها من وسائل الإعلام».

(الدكتور عبد المنعم سعيد «نعم .. ماذا سيقول التاريخ عنا؟» الأهرام ٢٠٠٢/٤/٨).

إنه منطق مقلوب، يشبه بالضبط ما قاله، من أيام، الرئيس الأمريكى جورج بوش من أن ياسر عرفات مسئول عما هو فيه من حصار، وبالضبط عند صاحب هذه الكلمات نحن العرب مسئولون عن «جر شكل» أمريكا وإسرائيل، كى تلحقا بنا الهزائم.

ولو كنا عاقلين ومؤدبين، ومشينا بجانب الحائط، وغسلنا يدينا قبل الأكل وبعده، ولم نغلق مضيق العقبة، وبالتالى لم نقاوم الاحتلال الإسرائيلى، لما لحق بنا ما يحدث لنا من ضرب، وقصف، وهزيمة نستحقها، وهى فعلاً نستحقها بسبب عجزنا عجزًا هيكليًا، وليس بسبب أننا نجر شكل أمريكا وإسرائيل .. فقط.

لقد قلت وأقول، وكتبت وأكتب أن أحدًا لا يريد حربًا، وبالمثل فإن أحدًا لا يرضى برد الفعل العربى الرسمى الساكن، والعاجز والكسيح، إلا أهل الأنظمة، و«مبرراتية» الأنظمة، وأستطيع أن أتوقع أنه إذا استمر العدوان الإسرائيلى المدعوم أمريكيًا وبريطانيًا لأسبوع آخر من اليوم، فقد لا يتردد صاحب القرار العربى أكثر من هذا فى الإقدام على قطع العلاقات، وطرد السفير الإسرائيلى، وعندئذ ماذا سيقول الذين يحسبون كل كلمة مقاومة صيحة حرب، ويعتبرون أنفسهم الوحيدين دون خلق الله المسئولين عن التنمية، ومصالح الناس، وعدم جر بلادنا إلى حرب، أو إلى تحرش ينتظره شاون كى يزحف ويستولى هنا وهناك؟ وهذا منطق يدينهم، ويدين الذين يظنون أنهم باسمهم يتحدثون لو كانوا يتدبرون.

هل نقول: «ما علينا؟» فى ظل العدوان الثلاثى على مصر فى ١٩٥٦، كان هناك من يزينون الدعوة إلى الاستسلام، ويبررون ذلك بالحكمة والتعقل، وفى مواجهة ذلك وقف عبد الناصر والشعب معه يقول: «سنقاوم .. سنقاوم»، وكانت هذه الكلمة هى المدخل الأساس لانتزاع نصر سياسى كبير من رماد هزيمة عسكرية، كان يمكن ألا تكون كبيرة، لولا أنها تمت فى ظل تواطؤ ثلاثى وعدوان ثلاثى: بريطانى - فرنسى - إسرائيلى، وهو العدوان الذى تكسر على صخرة شعبية صلدة، هى بور سعيد، وهذا هو الوجه الآخر فيما جرى ويجرى، وهو الوجه الأكثر عمقًا، وأصالة، والأبقى، الوجه الذى يتحدى العجز، والعجزة، و«المبرراتية».

ومن يتعمق قليلاً فى مشاهد الموقف يرى أن بور سعيد حكايتها اتعادت، صحيح أنها «تتعاد» فى ظروف عربية، وإقليمية، ودولية متبدلة ومتغيرة عن ظروف الخمسينيات من القرن الماضى، ولكنها - فى الغالب - لن تؤدى إلى تغيير كبير فى النتائج، سواء فى المدى القريب، أو المدى البعيد.

وبور سعيد - فى هذه المرة - فلسطينية، فلسطينية، فلسطينية، وهذه الكلمة «فلسطين» كان مطلوبًا ولا يزال محوها، و«شطبها»، والقضاء عليها من الأرض، وحتى من القاموس ومفردات اللغة، وحين ظنوا أنهم اقتربوا من هذا، أو كادوا، انتفضت فتية عفية، ورفعت علمًا كبيرًا، وعاليًا، وطويلاً، وعريضًا اسمه «مخيم جنين»، أو «مخيم فلسطين»، أو بور سعيد القرن الحادى والعشرين، والتى أكدت من جديد، وببطولة وفدائية وبسالة أن المجد للمخيم، ذلك المخيم الذى حاولوا أن يحشروا فلسطين فيه، فكسر القمقم؛ ليخرج منه «عبق على الأيام منه مخلّد، عبق الشهيد على الشهيد

دليل، ذلك الشهيد الذى أطلق صرخته المدوية التى صاغها أبو سلمى، من قبل، بقوله:

إنى أخ للثائرين ووالد — للناشئين وللحياة رسولُ

أنا فى ديار العرب شارة مجدهم — أنا رمز وحدتهم أنا المجهول

آن إذن لفلسطين المخيم - المعسكر أن تتحدث، أن تقدم عطاءها، وفخرها، وشهداءها، وقد فعلت، فوقف مخيم جنين ولمدة تسعة أيام، وقفة مجيدة، لن ينساها التاريخ، بل سيذكرها، ويرصد أحداثها، ويسجل نتائجها، إنها معركة حتى الرصاصة الأخيرة، فى برميل كبير من البارود، حسب وصف العدو نفسه على صفحات صحفه لأزقة المخيم، التى اشتعلت نورًا ونارًا، وأشعلت فى تسعة أيام، فقط، فى جيش الغزو مواد ناسفة تزن تسعة أطنان، واعترف العدو بضراوة المعركة، وبالقتال من بيت إلى بيت، إنها بور سعيد الجديدة، والمعركة فيهما تكاد تتشابه وقائع، وأحداثًا، وبطولة، وفداء من جانب، وتواطؤًا، وتآمرًا من جانب آخر، والتواطؤ هنا، أيضًا، ثلاثى. فى الماضى كان بريطانيًا - فرنسيًا - إسرائيليًا، واليوم هو أمريكى - بريطانى - إسرائيلى، الأول كان، فى البداية، سريًا، ثم انكشف، والثانى جرى ويجرى على المكشوف، وبضوء أخضر مفتوح.

وهذا هو ما يفعله الرئيس الأمريكى بوش الابن، أو جورج بوش الصغير، سواء فى تصريحاته العلنية التى أمطرنا بها منذ يوم الخميس (٤/٤)، أو فى لقاءاته، واجتماعاته، وتحركاته، التى أكدت أنه أعطى ضوءًا أخضر لإسرائيل لأن تقوم بما قامت به، وما تستمر فى القيام به؛ حيث نظر إلى

ذلك على أنه «دفاع عن النفس» فى تبرير لا يجوز بأية حال من جانب رئيس القوة الأعظم فى عصرنا، مهما كانت ثقافته ومعرفته بشؤون السياسة الدولية، ومهما تكن موالاته وصداقته الحميمة لإسرائيل، حسب الوصف الذى تداوله هو وحليفه الصغير تونى بلير، الذى أثبت بدوره أن لبلاده دورًا فيما حدث ويحدث، وهو الدور الشبيه بما لعبته فى عدوان ١٩٥٦، حينما قال دالاس: «لابد من إيجاد وسيلة لإرغام عبد الناصر على إعادة ما استولى عليه» يقصد قناة السويس التى كان عبد الناصر قد أعلن تأميمها فى ٢٦ يوليو ١٩٥٦، وفى مذكراته أبدى أنتونى إيدن - رئيس وزراء بريطانيا، وقتئذ - ارتياحه لموقف وزير الخارجية الأمريكى، وقال: إنه لا ينسى ألفاظه، حين قال يجب إرغام عبد الناصر على أن يلفظ القناة، ويقول إيدن إنه أبلغ دالاس بكل التفصيلات عن الاستعدادات العسكرية التى كانت أجريت لغزو مصر، وأن دالاس أبدى تفهمه لذلك.

وكان للاستعدادات العسكرية أثرها الطيب فى نفسه، فقد كانت أمريكا تريد تحقيق أهداف «العدوان الإسرائيلى» بوسائل أخرى، فلما وقع العدوان، وبعلمها، كما ذكر إيدن، قامت بإعلان معارضتها له، وذلك لأسباب كثيرة ليس هنا مجال الخوض فيها، وقد كان على رأسها سعيها إلى وراثة المصالح البريطانية والفرنسية فى المنطقة، وهو السعى الذى تقوم أدلة تاريخية على أنه بدأ يظهر، حتى قبل أن تنشب الحرب العالمية الثانية، وتعمق خلال سنواتها وتبلور، وتحدد فيما تلاها، وبالذات بعد الجولة العربية - الصهيونية الأولى فى ١٩٤٨، وهى جولة كان لبعض العسكريين الأمريكيين دور فيها، وهو ما ظهر أيضًا وبوسائل مختلفة فى عدوانى ١٩٥٦، و١٩٦٧،

بل وفى حرب ١٩٧٣ التى أنقذت فيها أمريكا إسرائيل من هزيمة كبيرة كادت تحيق بها، وتأتى مواقف أمريكا اليوم فى دعم وتأييد الغزو الإسرائيلى لأراضى فلسطين، والمذابح المنصوبة ضد أبناء الشعب الفلسطينى لتؤكد حاجتنا نحن العرب إلى ضرورة وأهمية معرفة حقيقة الدور الأمريكى فى اعتداءات إسرائيل منذ ١٩٤٨ وإلى اليوم.

وهنا يستطيع المرء أن يقول: ما أشبه الليلة بالبارحة؛ إذ تبدو تحركات وسياسات أمريكا اليوم، وكأنها لم تفارق كثيرًا «المشروع ألفا» الذى طرحته فى ١٩٥٥ للقيام بمساع أمريكية - بريطانية مشتركة لدى الدول العربية وإسرائيل لتسوية «المسائل المتعلقة بينهما» وكان جوهر الخطة هو «عقد اتفاقية الولايات المتحدة وبريطانيا (ويحتمل فرنسا وتركيا) وبين إسرائيل، ثم اتفاقية منفصلة مع كل دولة مجاورة مع إسرائيل، تتضمن الحدود المتفق عليها.

وفى دراسته العميقة عن «تطور واتجاهات السياسة الخارجية الأمريكية نحو مصر» يقول الدكتور رضا شحاته، وهو سكرتير سابق للمعلومات للرئيس حسنى مبارك، يقول عن هذه الخطة: «اتفق على أن التسوية سوف تتطلب معونة اقتصادية إضافية ضخمة من الولايات المتحدة، وقد قسمت هذه المشروعات إلى نوعين: النوع الأول تبلغ قيمته ٤٦٨ مليون دولار، تنفذ فى ظل استمرار الموقف الحالى بين العرب وإسرائيل، وتدور حول توطين اللاجئين فى سيناء وسوريا، ومشروع لتنمية وادى الأردن، ومساعدات اقتصادية منتظمة لإسرائيل، أما المشروعات من النوع الثانى، فتتضمن تقديم معونات مرتبطة ومطلوبة للتسوية بين العرب وإسرائيل، فتقدم

لإسرائيل بمفردها ٢٠٠ مليون دولار، ويقدم لمصر، والأردن، وسوريا، ولبنان ١٤٥ مليون دولار، كما أن تقديم المعونة لإسرائيل والدول العربية المجاورة ٢٥٠ مليون دولار مشروط بتحقيق التسوية».

وتستوقفنا ملاحظة مهمة يرصدها الدكتور «رضا شحاته»، وهى أنه فى النوع الثانى من المشروعات كان تقديم المساعدات العسكرية لمصر بشكل خاص مرتبطًا بتحقيق التسوية مع إسرائيل.

إذن كان التوجه الصريح للإدارة الأمريكية نحو مصر، كما يضيف الكاتب نفسه هو أن تقديم مساعداتها العسكرية لمصر - ضمن الدول العربية الأخرى - أصبح مرتبطًا، ارتباطًا وثيقًا، بتسوية النزاع بينها وبين إسرائيل من منطلق ربط المساعدات الثنائية لدول المنطقة بالتسوية الإقليمية، بهدف تحقيق الأمن الإقليمى فى مواجهة الخطر الشيوعى من الداخل والخارج.

ما أشبه الليلة بالبارحة، على الرغم من زوال «الخطر الشيوعى»»، واختفاء «البعبع السوفييتى»، وقد ظلت أهداف وسياسة أمريكا هى هى، حتى بعد وقوع «العدوان الثلاثى»، الذى تلاه «مشروع إيزنهاور» لملء الفراغ فى المنطقة، وتلت ذلك تطورات عديدة وجذرية قادت، فيما بعد، إلى الوحدة المصرية - السورية، ثم إلى سقوطها، أو إسقاطها، بعد ٣ سنوات من قيامها، وكان ذلك هو الطلقة الأولى فى زحف الدبابات الإسرائيلية على سيناء والجولان وبقية فلسطين، فى ١٩٦٧، وهو ما نزال نعيش آثاره وتداعياته إلى اليوم من عدوان إسرائيلى، بتواطؤ صريح من أمريكا وبريطانيا، وهو تواطؤ لن تخفيه كلمة هنا، أو تصريح هناك، ويكفى أن نستشهد بما كتبه الصحفى الإسرائيلى «عقيفا إليدار» فى «هآرتس» يوم ٤/٩: «لقد سبق لإرئيل شارون

أن شهد هذا الفيلم عدة مرات فى السنة الماضية، تينيت وزينى جاءا وراحا، وشىء لم يتغير، وباول، أيضًا، أتى وراح، وبعثت إسرائيل على عادتها، ومرة أخرى سنسمع من واشنطن النغمة المتكررة: بذلنا كل ما فى وسعنا، ولكننا لا نستطيع أن نرغب فى السلام أكثر مما يرغب فيه الطرفان أصحاب الصلة المباشرة بالنزاع».

وهنا تأتى وتبقى وقفة مخيم جنين، فإن مواجهته الجسور لأكبر قوة عسكرية فى الشرق الأوسط ستفرض بصمتها على المراحل المقبلة من الصراع، وهى بصمة أكدت وستؤكد: الوداع الوداع للتسوية على النهج الذى بدأ على يدى الرئيس السادات وإلى اليوم، إن الأمور ستتخذ مسارًا صامدًا؛ إذ تحول إلى برميل بارود كبير: السيارات المفخخة، والشاحنات، والبيوت، والشرفات، وأعمدة الكهرباء، وحتى الأشجار، وأغطية فتحات المجارى لم تخل من المتفجرات، مما جعل الغزاة الإسرائيليين يصرخون: هذا شىء لا يصدق، إنهم فتية من جميع الاتجاهات، عاهدوا الله والشعب: النصر أو الشهادة، والمجد لهم فى إصرارهم على القتال حتى الرصاصة الأخيرة.

آيات من سفر جنين

«مدد ياجنين مدد»! وجنين سِفر لن يحمله حمار، ولن يقرأه، كتاب كبير مفتوح، منه بشارات النصر تفوح، والتوراة أسفار، وكل سفر له بداية ونهاية، ونهايات الأسفار - مثل الأسئلة - دائمًا مفتوحة: تومى إلى طرق ومسالك، منها طريق الندامة، وطريق السلامة، وفيها مسالك ليست مسدودة، وممالك ليست مهزومة، وهى بالحزم والعزم منصورة، منصورة.

بسملة ووضوء، قبل قراءة الصفحة الأولى من سِفر جنين، فلا صلاة بلا وضوء، ولا بداية أو بركة دون بسملة، ولا نصر بلا تضحيات، ولا تضحيات بلا تصميم، والتصميم يعنى الإرادة، والإرادة أن يقول العبد - متكلاً على الرب - للشىء: كن فيكون، ولهذه السورة مدخل، هو باب الصلابة والشهادة، والشهداء قادمون قادمون، وعلى الأبواب واقفون، زرافات ومواكب، يتدافعون بالمناكب: فقد أذن لهم بالقتال، بعد أن ظُلموا، والله على نصرهم قدير.

هذه بعض الآيات فى سِفر جنين: المدينة، المخيم، كعبة الصمود، بورسعيد القرن الحادى والعشرين، التى جمعت فى سورة واحدة آيات النصر فى ديان بيان فو، وفى لينينجراد، وفى هانوى، وفى القصبة والجزائر، حقًا اختلفت ظروف عالمنا ما بين سنوات الحرب الباردة، ومنتصف القرن العشرين، والعقد الأول من القرن الجديد، عقد العولمة والهيمنة والأمركة التى يكاد يبدو أن ليس لقرارها مانع، هذا صحيح، ولكن ليس بإطلاق ذلك أن ظروفًا موضوعية ستفرض - مهما طال المدى - أن تتشابه النتائج، أو تتقارب، إن سِفر جنين المفتوح لم تقرأ كل صفحاته بعد، وهو لم يفصح - علم الله - عن كل نتائجه وأسراره وخفاياه بعد، وإلا كيف يكون «جنينًا»؟ ذلك أن أصل الكلمة وجذرها أى «جنّ» يعنى استتر، وجنَّ الليل أظلم، وجنَّ الظلام اشتد، وأجنَّ الشىء ستره، وأجنَّ الميت كفَّنه، والخلاصة هنا تركيزًا وإيجازًا أن «الجنين» هو المستور، وهو الولد مادام فى الرحم، أو فى البطن، وفى الطب: هو ثمرة الحمل فى الرحم إلى نهاية الأسبوع الثامن، والجنين

فى علم النبات، هو الأول فى الحبة، وقلب له ظهر المجنة: عاداه.

هذا بعض ما جاء فى «سِفر جنين» مسطورًا مكتوبًا فى «مختار الصحاح»، وفى «الوجيز»، و«الوسيط»، أما ابن منظور فى «اللسان» لسان العرب بالطبع، فيقول: جنَّ عليه الليل، أى ستره، وبه سُمّى الجن لاستتارهم، واختفائهم عن الأبصار، ومنه سُمى الجنين لاستتاره فى بطن أمه، وجنَّ الليل، وجنوه، وجنانه: شدة ظلمته وادلهامه، وقيل اختلاط ظلامه؛ لأن ذلك كله ساتر.

يكفى هذا، يكفى من القلادة ما يحيط بالعنق، ويكفى «جنين»، أنه «جنين» أى مستتر فى مرحلة الحمل، أما الوضع والولادة، وبالقطع من طبائع الأمور، والبدايات تدل على النهايات، وليست هذه أول مرة تتعرض فيها «جنين» للخطر، وفى «الموسوعة الفلسطينية» نقرأ من سِفر جنين آيات أخرى، كانت جنين تتعرض، أحيانًا، للتدمير والخراب أثناء الغزو، وتذكر الموسوعة فيما تذكر أنه:

● تعرضت جنين للنهب والحريق أثناء الحملة الفرنسية على فلسطين (فى أواخر القرن الثامن عشر) انتقامًا من أهلها، الذين حاربوا الفرنسيين بجانب الجيش العثمانى فى «مرج ابن عامر».

● حينما بدأت حرب ١٩٤٨، هاجم الصهيونيون قرى جنين فى «مرج ابن عامر»، واحتلوا كثيرًا منها، ثم قاموا بتطويق جنين فى ١٩٤٨/٦/٣، واستولوا على معظم أحياء المدينة، وأخذوا يقصفون مركز تجمع المجاهدين

قصفًا شديدًا، ولكن وصول النجدات العراقية والفلسطينية كبَّد الصهيونيين خسائر كبيرة، فاندحروا خائبين، وتمكن المجاهدون من استرداد عدة قرى شمال جنين قبل وقف إطلاق النار.

● والفضل ما شهدت به الأعداء، وفى الرواية الرسمية الإسرائيلية عن جولة ١٩٤٨، شهادات واعترافات بالصلابة العسكرية فى جنين، فقد استعصت على الاحتلال. تقول شهادة العدو إنه احتل المدينة بأسرها، فى ٨ يونيو - أى والله يونيو - ولكن ١٩٤٨، ولكن ماذا حدث فى ذلك العام، وفى تلك الليلة؟.

«بحلول الظلام، كانت المدينة بأسرها محتلة، باستثناء مبنى الشرطة، الذى تحصن فيه العراقيون، لكن فى هذه الأثناء تأزم وضع القوات الموجودة على المرتفعات، وفى الساعة ١١ ليلاً تلقت هيئة الأركان العامة تقويمًا للوضع من قائد الجبهة: (الوضع فى جنين لم يحسم بعد، تدور معارك عنيفة على المرتفعات وفى المدينة، وتتواصل النجدات إلى العدو، سيكون من المستحيل الاحتفاظ بجنين وتدًا وحيدًا فى المثلث، كل قوة العدو هناك ستوجه ضدنا، إذا كان فى نيتكم أن تهاجموا طولكرم بسرعة، قصد احتلالها، فيجب بحسب رأيى الاحتفاظ بجنين، وليحدث ما يحدث، لكن إذا لم تكن هناك نية لمهاجمة المثلث فى موضع آخر، ففى الإمكان، وينبغى ترك جنين قبل أن نتكبد خسائر أخرى، أخطرونا على الفور بردكم). وبعد ثلاثة أرباع الساعة تقريبًا أرسل الرد: (إذا لم يكن فى الإمكان الاحتفاظ بجنين

فانسحبوا بنظام، لا نستطيع أن نحتل طولكرم، وسنضايقها فقط الليلة، فكّر، قرّر، نفّذ، وأخطرنى).

وفى منتصف الليل أرسل قائد الجبهة إخطارًا بقراره: «قررت الانسحاب من المدينة والمرتفعات، عند طلوع الفجر، والاختباء فى سلسلة هضاب، على بعد كيلو متر ونصف الكيلو متر شمالى المدينة، ننظم أنفسنا للدفاع عن عرانة، والجلمه، ومعسكر الجيش فى المقيبلة، وقريتى المقيبلة، وزرعين، وقبل الانسحاب سننزل، قدر الإمكان، خرابًا فى المدينة».

مرة أخرى نقرأ معًا اعتراف جيش العدو: «قبل الانسحاب سننزل – قدر الإمكان – خرابًا فى المدينة» أليست هذه آية أخرى من سفر جنين؟ إنها آية التخريب الصهيونى الإسرائيلى الشارونى، ومن بن جوريون إلى شارون.

إنه اعتراف، والاعتراف، عند القانونيين، سيد الأدلة، خاصة وأنه صادر دون ضغط أو إكراه، بل صادر عن «قائد عسكرى» فى موضع المباهاة والفخر والانتقام.

هذه صفحة أخرى من وفى سفر جنين، صفحة جديرة بأن تظل شاخصة ماثلة، قائمة أمام عيوننا وعيون العالم كله، الذى يجب أن يرى ويشاهد، ويلمس الجريمة الصهيونية الجديدة فى مخيم الصمود، بحيث يظل كل شىء على حاله من دمار، وخراب، وهدم، أى من تدمير، وتخريب، وتهديم ارتكبه، عامدًا متعمدًا، الجيش «الإنسانى» الذى يفاخر ببطولته، التى ظهرت حقيقتها، وتكسرت غطرستها فى مخيم الصمود، جنين، الذى

يجب ألا يعاد بناؤه، وألا يبنى فيه بيت تم تدميره، يجب أن يظل المخيم كما تركه التتار الجدد، تتار عصر العولمة، والصهيونية والأمركة، والقوة العظمى الوحيدة، وشهادة قائدها بأن «شارون» رجل سلام، يا سلام! هذا السلام يجب أن يظل حجرًا فوق حجر، كما خلّفته أيدى الغزاة، الذين استخدموا أحدث الطائرات - صناعة أمريكية - ضد مواطنين عزل، وضد فتية آمنوا بفلسطينهم، فقاتلوا إلى الطلقة الأخيرة، فكتبت طلقاتهم البيان الأول من عصر جديد، أو مرحلة جديدة من صراعهم، صراعنا ضد العدو الصهيونى مرحلة لن يكون فيها مكان إلا لكل ما هو نبيل، وجاد، وأصيل، مرحلة تعاف الميوعة، وتعرف الرجولة، تعشقها وتقدسها، وفاء لدماء الرجال الأبطال، الذين قاتلوا حتى الموت، وقتالهم واستشهادهم يجب أن يسجلا تفصيلاً، وأن ينقلا قراءة، وترتيلاً، وبالصوت والصورة ذخرًا وكنزًا فى كل بيت فى كل قطر من أقطارنا العربية، لكى يشعر الجميع بالخزى؛ لأنهم لم يتحركوا كالرجال لإنقاذ الرجال، ولكى تكون الوقفة على جانبيها بداية للجديد الآتى، البازغ والمؤذن بمرحلة ما بعد جنين، الذى صنعه رجال وقفوا صامدين دون طعام ودون نوم تسعة أيام، اعترف العدو بأنها كانت «فظيعة». ويحكى أحد جنودهم بعض وقائعها، فيقول: «القتال كان قريبًا جدًا، وشخصيًا جدًا، نحن نقول لهم (اطلع بره) فيردون علينا: (يا أبناء الزنا سنقتلكم، نحن انتحاريون، اخرجوا من مخيم اللاجئين) (من مقال طويل نشرته «كول هزمان» فى يوم الجمعة ٢٦ من نيسان/ أبريل الماضى، بعنوان «صباح الخير يا جنين»).

لقد شنت إسرائيل حربها الجديدة ضد الشعب العربى فى فلسطين، تحت اسم « السور الواقى»، وادعت أن هدفها هو «تدمير بنية الإرهاب»، ولكن الهدف الحقيقى كان «هدم البنية التحتية الجماعية للشعب الفلسطينى»، حسب تعبير الكاتب الإسرائيلى «ميرون بنفنستى»، الذى يوصف بأنه «يسارى» (أكدت الأحداث صدق وجهة نظرنا بأن المرء لا يمكن أن يكون صهيونيًا ويساريًا، فى آن).

الذى قارن بين مذبحة دير ياسين فى أبريل/ نيسان ١٩٤٨، ومذبحة جنين فى أبريل/ نيسان ٢٠٠٢، وقال: «إن التشبيه بين دير ياسين وجنين ليس مقتصرًا على الفلسطينيين، فهناك إسرائيليون لن يثوروا ضده، كونهم يرون، أيضًا، أحداث أبريل ٢٠٠٢ فى السياق المباشر لأحداث أبريل ١٩٤٨، وكانوا سيسرون لو أن الفلسطينين كرروا رد فعلهم الفزع على دير ياسين، وهربوا بعد أحداث جنين. كما أن هناك إسرائيليين يتفقون على أنه لا يجب التمييز بين البنية التحتية للإرهاب والبنية التحتية الجماعية للشعب الفلسطينى. إذن على الرغم من المذبحة والمجزرة فى جنين، على الرغم من التخريب والتدمير، طاش سهم إسرائيل، وسقط هدفها من وراء تسوية المخيم بالأرض، وهدم ٨٠٠ منزل تم هدم بعضها فوق رؤوس ساكنيها، وأثبت الشعب الفلسطينى أنه تعلم الدرس، وأن ما حدث فى ١٩٤٨ غير قابل للتكرار، وأن الأرض مثل العرض، لا يمكن التفريط فيها، ولا الخروج منها.

إذن الجنين فى جنين لم يكن مجرد صلابة، وبسالة، وصمود، واستشهاد،

بل كان، أيضًا، وعلى المستوى نفسه من الأهمية ثباتًا وتمسكًا بالأرض، وهو ثبات سيجعل الإسرائيليين أنفسهم يعيدون النظر فى كثير من حساباتهم، وفى كثير من توقعاتهم، فهم خاضوا معركتهم، معركة السور الواقى، ليس باعتبارها مجرد معركة أخرى، بل يحسبونها معركة فاصلة، معركة تقود إلى دولة فلسطينية كرتونية على مساحة ٤٢٪ من الضفة الغربية، وما لا يتجاوز ٦٠٪ من غزة، أى حوالى ١٠٪ فقط من مساحة فلسطين الأصلية، وقد أهيل تراب كثير فى جنين حول هذه الحسابات الإسرائيلية، ومن الخطأ - كل الخطأ - ألا يعتبر بعض العرب بذلك فيسارعوا من جديد بتقديم المزيد من التنازلات، إن هذا فعل مضاد للجنين، الذى استتر فى أحشاء، وفى بيوت، وفى أزقَّة، وفى أسلحة جنين، وفى صلاة مقاتليه، الذين طلبوا الشهادة، فنالوها، فتذكروا يا أولى الألباب.

إن رياح جنين ستهب قوية عفية، وستكنس كثيرًا من أوراق الخريف العربى، والويل لمن لا يدرك ذلك، ولمن لا يحسب حسابه، أو يخطىء فى قراءة مفرداته، ومن هذه المفردات أن إسرائيل خرجت من معركة جنين، وهى تتمنى لو أنها لم تدخلها، ولكن فاتها وقت الندم، ها هى إسرائيل ٢٠٠٢ دولة بأعصاب منهكة، تائهة، مواطنوها لا يعرفون ماذا سيأتى بعد، أفقها غامض وعاصف، حكومتها تتنازع مع العالم كله، ومع نفسها، واقتصادها ينجر من عام ركود سىء إلى عام ركود أسوأ.

وصاحب هذه الكلمات كاتب إسرائيلى هو «سيفر بلوتسكر»، وقد نشرتها

صحيفة «يديعوت أحرونوت»، فى يوم ٢٠٠٢/٤/٢٥، واعترفت «هآرتس»، فى اليوم التالى، بأن «إسرائيل تعيش حالة طوارئ أمنية واقتصادية».

وإذا كان بلوتسكر قد رأى أن إسرائيل تعيش اليوم أزمة ثقة تمتد وتتعمق، فإن هآرتس نفسها خلصت إلى أن غياب أى أفق سياسى للنزاع يشمل إنهاء الاحتلال من شأنه أن يؤدى إلى غرق أعمق. أليست هذه آية أخرى من سورة الشهادة فى سفر جنين؟ السفر الذى يدعونا ويطالبنا بأن يبقى، كما خلفه العدو خرابًا وتدميرًا ليكون شاهدًا على نصره، وعلى عجزنا، وعلى بداية الإفاقة من مرحلة العجز العربى، التى تقطع بأن النصر آت، فما النصر إلا صبر ساعة، والقراءة فى سفر جنين لا تكتمل إلا بالصلاة فوق ترابها، وتقبيل تربتها، التى تعطرت بدم الشهداء، الذى يصنع النصر، وإن كره الكارهون.

○○○

الفصل الثانى عشر

وماذا بعد ..؟

خواطر ودروس لما بعد غد

د. عبد التواب مصطفى

تَقْصُر إمكانات الأقلام والكاميرات عن تصوير ما حدث فى مخيم البطولة الأسطورة «جنين» على مدى الأسبوعين الأولين من أبريل/ نيسان ٢٠٠٢، فإن ما حدث هو «الجحيم» أو «الزلزال» أو «جريمة القرن الحادى والعشرين» كما وصفه كل أصحاب القلوب والضمائر، ممن زاروا ركام وأطلال ذلك المخيم، بعد أن خسف به الأرض كلٌ من «بوش» و«شارون».

مع هذا، فإن ذلك المدعو «باول» سكرتير عصابة السطو والطغيان، المسماة «الولايات المتحدة» أعمى الله قلبه، وإنْ ظلت عيناه تبصران، إذ بعد زيارة التآمر والتواطؤ التى شد فيها على يد الكلب العقور «شارون» نجده - أى باول - يقول: «لم أر فى جنين ما يمكن اعتباره جريمة حرب» متعاميًا عن رؤية بقايا ومخلفات البركان، الذى أوقده شارون فى جنين.

وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور﴾.

ولا عجب فإذا كان المجتمعان الأمريكى والإسرائيلى يعانيان معًا عقدة أنهما «مجتمعات لمامة» أتوا من أطراف العالم، إلى حيث هم الآن، فإن «باول» و«شارون» على وجه التحديد، يعانيان أيضًا عقدة أخرى، هى عقدة «عبودية آبائهم» ولا أصل لهما يردهما، أو يمنعهما من الإقدام على ما ارتكبا من جرائم، فهما ينفثان سمومهما، وحقدهما، وعقدهما فى وجوه الآخرين.

والدرس: فلْيُفِقْ العرب، ولْيُدْرِكوا مع مَنْ يتعاملون، فإما ليعدوا العدة المادية لمواجهة هذه الثلة من البلطجية والمارقين، أى الصهاينة والأمريكان، أو ليعدوا العدة العقلية أى الحكمة البالغة، ليُفَوِّتوا على حمقى هذا الزمان المزيدَ من محاولات النيل من كرامة أوطاننا، والنيل من مقدرات شعوبنا.

على جانب آخر، نتساءل: كيف تمكن هذا الـ«بوش» الصبى من الوصول إلى كرسى يحكم من خلاله العالم، وهو يجهل الفرق بين الإرهاب، وحق الشعوب فى مقاومة قوات الاحتلال؟!

صحيح أنه اشتهر عن ذلك الرئيس بأنه الرئيس الجاهل، وأنه الرئيس الذى كثرت زلات لسانه، حتى أنه لم يخل حديث عام له من هذه الزلات، وفى كل مجالات المعرفة: التاريخ، السياسة، الاقتصاد، القانون...إلخ، لكن ما كنا نتصور سقوطه إلى هذا الحد، فوجب علينا أن نرده إلى الصواب.

الإرهاب أيها الصبى الجاهل هو الذى «مرمط» بكرامتك وكرامة أهلك الأرض فى الحادى عشر من سبتمبر/ أيلول ٢٠٠٢.

الإرهاب هو الذى فضح جهلك، وفضح غفلة العصابة الصهيونية المحيطة بك فى البيت الأسود، والتى تتغذى بخبز نيويورك وواشنطن، لكن ما يهمها هو أمن ومصلحة تل أبيب.

الإرهاب هو الذى نكس رأس امبراطوريتك الهشَّة، وجعلها أضحوكة المسرح السياسى العالمى فى غرة القرن الحادى والعشرين.

أما حق الشعوب فى مقاومة الاحتلال، فهو الحق الذى يمارسه أبطال «انتفاضة الأقصى»، وبواسل المقاومة فى جنين، ورام الله، والخليل، ونابلس، وغزة، وهو الحق نفسه الذى مارسه أجدادك حتى حرروا بلادك، وتخليدًا له أقاموا تمثالى الحرية وتمثال جورج واشنطن.

والدرس: هو توجيه إنذار شديد اللهجة لبوش، ولكل من يتنكر لحقائق تاريخ الحرية، وحقائق القانون.

الإنذار بأنهم لو تمادَوْا فى تنكرهم هذا، فليس لهم فى ذمتنا إلا المعاملة بالمثل بأحد أسلوبين هما:

أولهما - اعتبار تمثال الحرية فى أمريكا رمزًا للإرهاب العالمى، تمشيًا مع مفردات القاموس السياسى الأمريكى الجديد، وكذلك الشأن بالنسبة لتمثال جورج واشنطن، فيجب اعتباره تمثالاً للإرهابى الأمريكى الرائد جورج واشنطن.

ثانيهما - توجيه النداء العام لكل الأحرار فى العالم، وفى مقدمتهم العرب والمسلمون لإعلان حرب الحرية المقدسة على أمريكا، ورموز الإرهاب العالمى الذين ترعاهم وتمدهم بالمال والسلاح، وفى مقدمتهم العصابة الصهيونية الفاشية النازية فى إسرائيل.

● **تبًا لمساعداتك يا أمريكا بعد أن قتلتِ «جنين» ومشيت فى جنازته،**

أىُّ استخفاف بعقولنا، وأىُّ قدر من الغباء الأمريكى هذا؟!

هذا الأسلوب القبيح فى التعامل مع الشعوب لم يعد مقبولاً، ووجب الرد عليه بالاستخفاف المماثل على الأقل.

لم تتآمر أمريكا، ولم تتواطأ، ولم تعط الضوء الأخضر فحسب، بل شاركت إسرائيل، فى سحق مخيم جنين، والخسف به وبمن فيه الأرض.

وبعد كل هذا تمد أمريكا يد العون بالمعلبات والمثلجات لأهل جنين!!

رد أهل جنين هذه المساعدات فى وجوه أعدائهم الأغبياء، الأمريكان، ولولا فضيلة الأدب والدين لدى شرفاء جنين، لألقوا بالمعلبات والمثلجات الأمريكية فى المجارى والمستنقعات، فهى ليست أعز من أجساد شهدائنا، إن العربى الذى غُذِّىَ كرامة وإباءً وشرفًا، يمقت ويحتقر هذه البراجماتية الأمريكية الدنيئة.

والدرس: اعلموا أيها الصهاينة والأمريكان، يا مَن تجردتم من الأدب والحياء والضمير، اعلموا أننا - كما قال صلاح الدين - لا نكفر بأخلاقنا - أى لا نتخلى عنها - ولو أفاد منها الأعداء حينًا.

الاستشهاديون قادمون

هذه العبارة المفعمة بالقوة والعزيمة والإصرار، والتى تفيض أملاً وتعلقًا بالمستقبل، حملتها لوحة صغيرة كتبت بخط اليد، ووضعت على أنقاض ما دمره النازيون الجدد فى مخيم جنين.

توهم هؤلاء الصهاينة النازيون أنهم بتحطيمهم الحوائط والجدران، قد قهروا أيضًا إرادة الإنسان فى جنين.

لكن سرعان ما تكشف توهمهم عن سراب، وأطلت هذه اللوحة فى وجوههم، ناطقة بألسنة البواسل وأشبالهم فى مخيم البطولة والأسطورة، مخيم جنين.

هذه اللوحة «الأبيض وأسود» كانت أشد بريقًا ونفاذًا بدلالاتها إلى القلوب والأذهان، من كل رايات الجهاد الخضراء، وكل الأعلام الفلسطينية التى رفعت فى المظاهرات برغم ألوانها الملتهبة الخاطفة.

هذه اللوحة التى وضعت على الأنقاض والأطلال، كانت الأعلى صوتًا من تصريحات كل المجتمعين فى أروقة وقاعات الجامعة العربية، وقصور الرياسات والممالك العربية.

كانت تلك اللوحة هى الأشد بريقًا، والأعمق دلالة، والأعلى صوتًا؛ لأنها فى الميدان.

وتَواصَل مضمونها مع مضمون تعليق ساخر، كُتب تحت أحد الرسوم الكاريكاتورية يصور بعض ما فعله شارون فى جنين - يقول التعليق: «لم يعثر شارون وزبانيته حتى الآن على مكان اختفاء صلاح الدين تحت الأنقاض».

والدرس: يقينٌ مستقر فى قلوبنا، ورسالة نخرق بها عيون أعدائنا، مضمونها أنه اقترب اليوم الذى سيواجه فيه الصهاينة والأمريكان، أحدُ رجلين:

- أيوبى جديد، يدفن الصهاينة فى فلسطين، حتى لا يدنس بهم ماء البحر.

- أو ناصر جديد، يحطم أركان امبراطورية الشر التى تؤازرهم اليوم، كما فعل بسالفتها بالأمس.

بين مظاهرات القردة ومظاهرات الأحرار... شتان

كلما رأيت على الشاشة مشاهد المتظاهرين فى القاهرة، وعمان انتابنى إحساس بالخجل، والخزى والعار، فمشاهد هؤلاء المتظاهرين خلف القضبان الحديدية لأسوار وبوابات الأقفاص التى سُمح لهم بالتظاهر داخلها، لا تختلف كثيرًا عن مشاهد القردة داخل أقفاصها بحدائق الحيوان؛ إذ لا يُسمح لها بأكثر من التعلق بقضبان هذه الأقفاص، والصراخ بداخلها.

ينتابنى هذا الإحساس إشفاقًا منى على هذه القطعان من القردة - كما تراهم الأنظمة - وحسرةً منى على نفسى وعليهم؛ إذ بينما هذه حالنا، هناك الأفواج المتلاطمة من البشر «الأحرار فى بلادهم» يخرجون - نيابة عن كل الأحرار فى العالم - فى كل عواصم الغرب، وبعض العواصم العربية،

يندّدون بمجازر السفاح شارون، ويطالبون بمحاكمته، ويخلعون عليه وعلى عصابته صفات النازية والفاشية، ويعلنون تضامنهم مع نضال الشعب الفلسطيني: «ثلاثون ألفًا تظاهروا فى روما» و«ثلاثون ألفًا فى برلين وفرانكفورت» و«٥٠,٠٠٠ فى باريس» و«٦٠,٠٠٠ فى بروكسل» و«٧٠,٠٠٠ فى أمستردام، تحرسهم الشرطة والمروحيات» و«١٠٠,٠٠٠ فى واشنطن» و«١٥٠,٠٠٠ فى لندن» و«مليون فى كل من الرباط والخرطوم».

والدرس: صبرًا آل ياسر، لا تتعجلوا تحرير الأرض: فلن تحرر الأرض قبل أن تتحرر الشعوب ذاتها.

الضرب في «الأنظمة العربية» حرام

هل توارى الحس القومى لدى الأنظمة العربية إلى هذا الحد؟!

هل خمدت الحمية القومية؟

هل انعدم الإحساس بالمسئولية تجاه الأشقاء؟

هل أصبح ما يجرى فى عروقنا ماءً باردًا، بديلاً عن الدم العربى الدافئ؟

هل أصبحت الأنظمة العربية فى عداد الموتى، ويصدق عليهم القول بأن «الضرب فى الميت حرام»؟

ليس شارون وحده هو بطل مشاهد العبث واللا معقول التى تعيشها «منطقة الشرق الأوسط».

إذا كان شارون وعصابته النازيون قد تجاوزوا كل الخطوط الحمراء فى العدوان، فقد تجاوزت الأنظمة العربية كل الخطوط السوداء فى التخاذل والسلبية والانكسار.

هل شُلَّت الإرادة السياسية لدى الأنظمة العربية إلى هذا الحد؟!

إلى الحد الذى تكون فيه حكومة بلجيكا، وحكومة النيجر أكثر عروبة من الأنظمة العربية، وأكثر إسلامية من الأنظمة الإسلامية التى لا تزال على علاقة بالكيان الصهيونى.

والدرس:

نكسوا أعلامكم أيها العرب والمسلمون، إلى أن تُبْعَثَ أنظمتُكم من مراقدها.

نكسوا أعلامكم إلى أن يتوقف ضخ البترول العربى إلى الدبابات والمقاتلات الإسرائيلية.

نكسوا أعلامكم إلى أن يتوقف ضخ الأموال العربية إلى خزائن المصارف الأمريكية.

● حيرًا: وفى إطار الدروس المستفادة ... هناك خطآن - فيما أرى -

يجب التعجيل بتصحيحهما:

أولهما - يتعلق بالأعمال الاستشهادية، فمع بالغ تقديرنا لها باعتبارها أسمى صور البطولة والتضحية فى المقاومة الميدانية ضد العدو الصهيونى، أرى بأنه لا ضرورة للإعلانات التفصيلية التى تصدر فى أعقاب هذه العمليات، متضمنة بيانات القائمين بها؛ فإن قدرًا كبيرًا من هذه البيانات يسهل على العدو الصهيونى القيام بعملياته الانتقامية ضد هذه القرية، أو ذلك المخيم، الذى ينتمى إليه الأبطال الاستشهاديون، فيكفى فى بيان إعلان المسئولية الإشارة إلى ذكر جماعة المقاومة، التى ينتمى إليها منفذو العمليات، إلى جانب أسمائهم بالطبع.

وطلبى هذا يتضمن دعوة فصائل المقاومة لالتزام منهج إنكار الذات، قدر الاستطاعة، لضرورة التكتم على تحركاتهم، وخططهم، وكوادرهم، فسياج السرية والحيطة من أهم أسلحة المقاومة فى هذه المرحلة، ولا يمكن تفعيل هذين السلاحين إذا تسابقت الفصائل فى الحديث عن أعمال المقاومة التى تنفذها لمجرد أن تثبت - بهذا الحديث - أنها على الساحة أو فى الميدان.

الخطأ الثانى: هو فى الواقع ظاهرة لافتة للنظر، لتفشيها فى صفوف الأشقاء الفلسطينيين، وأقصد بها التخابر أو التعاون مع المخابرات الصهيونية، وكادت تطعن فى وطنية كثيرين من هؤلاء الأشقاء.

فإذا كان مألوفًا أن نجد خائنًا، أو قلة من الخونة بين أبناء كل شعب، قد

يضعفون تحت بعض الظروف، ويتعاونون مع الأعداء، فإن أمر هذه الظاهرة قد تجاوز كل الحدود المألوفة بين قطاع كبير من الفلسطينيين، الأمر الذى يتناقض تمامًا مع كثافة التضحيات التى يقدمها آخرون من دمائهم، وأموالهم، بل حياتهم.

وقد كلفت هذه الخيانات حركة المقاومة الكثير من الخسائر من الكوادر والقيادات، التى يصعب تعويضها فى المدى القريب، ولم يعد كافيًا أن يتم إعدام هؤلاء الخونة، أو التمثيل بجثثهم كما نرى، بل أصبح لزامًا دراسة جذور الظاهرة، ومعالجة نقاط الضعف التى يبدو أنها كثيرة، والتى تسهل نفاذ المخابرات الصهيونية إلى هؤلاء المتعاونين معها من الفلسطينيين.

وبقدر ما ألح فى طلب دراسة هذه الظاهرة، فإنى ألح فى تحرى أعلى درجات الموضوعية فى تناولها، وغلق باب الأخذ بالشبهات، هذا الباب الذى أصبحت رياحه تلاحق جميع قيادات المقاومة باستثناءات قليلة جدًا، وليس البسطاء المقهورين نفسيًا واقتصاديًا واجتماعيًا فحسب.

○○○


القدس
تقرير شهري يرصد ويحلل تفاعلات القضية الفلسطينية محليًا وإقليميًا ودوليًا
خاص بالمشتركين
على حساب
مركز الإعلام العربي :
للاستثمار والتنمية - الدقي - القاهرة
أو حساب رقم (٤٠٢٧١) بنك القاهرة فرع الهرم -
الوحدة الفيصلية .


صدر حديثاً من:
سلسلة كتاب القدس
(١) الخطر يتهدد بيت المقدس أ.د. أحمد صدقي الدجاني
(٢) القدس قضية أمة أ.د. جاسم بن محمد بن مهلهل الياسين
(٣) أدبيات الأقصى والألم الفلسطيني أ.د. جابر قميحة
(٤) أورشليم القدس في الفكر الديني الإسرائيلي أ.د. محمد جلاء إدريس
(٥) حرب تكنولوجية لقمع الانتفاضة أ.د.وجدى عبد الفتاح سواحل
(٦) مدن فلسطينية أ.فيصل الخيرى
(٧) القدس بين الانتفاض والتفاوض أ.د.محمد خالد الأزعر
(٨) انتفاضة الإنترنت أ.د.وجدى عبد الفتاح سواحل
من الجهاد المسلح إلى الجهاد الإلكتروني
ثمن النسخة فى مصر ٥ جنيهات شاملة أجور البريد.
ثمن النسخة فى البلاد العربية ٣ دولارات شاملة أجور البريد.
ثمن النسخة فى باقى دول العالم ٥ دولارات شاملة أجور البريد.
الناشر: مركز الإعلام العربى
ص.ب ٩٣ الهرم - الجيزة - مصر ت: ٣٨٣٣٦٦١ ت / ف: ٣٨٥١٧٥١
البريد الإلكترونى E.Mail:media-c@ie.com.
موقع المركز على الإنترنت www.Resalah4u.com
حساب رقم (٤٨٧٨١) المصرف الإسلامى الدولى للاستثمار والتنمية - القاهرة.
أو حساب رقم (٤٠٣٧١) بنك القاهرة - فرع الهرم - الوحدة الفيصلية.

المحتويات

تقديم المحرر	٣
مقدمة الكتاب: من وحى صور مخيم جنين	٥
«مدخل» الإطار السياسي لهجمة ٢٩ من مارس	١٥
الفصل الأول: جنين ومخيمها	٢٥
الفصل الثانى: هجمة ٢٩ من مارس	٤٥
الفصل الثالث: المواجهة المسلحة فى المخيم	٦٣
الفصل الرابع: كلنا استشهاديون	٨٣
الفصل الخامس: الجريمة	٩٣
الفصل السادس: أصداء مذبحة جنين فى الصحف الإسرائيلية	١١١
الفصل السابع: أداء السلطة	١٢٩
الفصل الثامن: الأصداء العربية	١٤٩
الفصل التاسع: الأصداء الخارجية	١٧٩
الفصل العاشر: فى المحافل الدولية	١٩٧
الفصل الحادى عشر: بورسعيد الفلسطينية تتحدى	٢١٥
الفصل الثانى عشر: وماذا بعد..؟ خواطر ودروس لما بعد غد	٢٣٣
محتويات الكتاب:	٢٤٨